

مكتبة
786
ديك الجن
الفرج
عصير الكتب

مكتبة | 786
سُر مَن قرأ

ديك الجن

الفرح



إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● المؤلف: حسام أبو طويلة (ديك الجن)

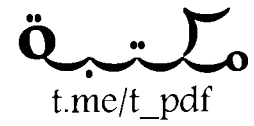
● تدقيق لغوي: نهال جمال

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: سبتمبر/ 2021م

● رقم الإيداع: 2021/21157م

● الترقيم الدولي: 4-40-6902-977-978



ديك الجن

مكتبة | 786
سُر مَن قرأ

الفرح



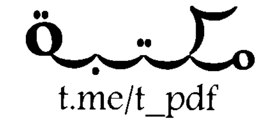
المحتويات

إهداء

قد يروي لك كلُّ عاشقٍ قصّةً مختلفة لتعاسته.. لكن الحقيقة أنّ التعاسة التي يتشاركونها جميعًا واحدة.. وهي أنّ حواسّهم مهما فعلت، فهي قاصرة عن تحقيق مراد قلوبهم.

إلى نهى الزغاري.. المرأة التي طاردتها حواسّي الخمس عمرًا كاملًا دون جدوى، أهدي هذه الكلمات..

ديك الجن



الحلم (قصة قصيرة)

فعل خالد اليبرودي كل شيء يمكن فعله ليمحو أيَّ أثر لوالده عن الوجود، باع أو أتلف كل شيء مرتبط به، قطع علاقاته بكل من يعرفه، مزق صوَره القديمة، حتى تلك التي جمعتْهما معًا، وباستثناء الأوراق الحكومية، فلم يكن اسم والده ليجاور اسمه قط، مع ذلك، ففي كل مرة كان يقف فيها أمام المرآة، كان يعرف أن كل تلك الجهود تذهب سدى، لقد كان نسخة كربونية عن والده؛ طوله الفارع، جسمه الضخم الممشوق، ملامحه الحادة، شفاهه الغليظة الشهوانية، عيناه العميقتان اللتان لا يمكنك التنبؤ بما وراءهما، لقد أخذ عن ذلك السكِّير العجوز كل شيء، حتى خيوط الشيب في جانبي رأسه كانت هي نفسها سابقًا في رأس أبيه. لقد عكست المرآة صورة أبيه نفسه، في شبابه على الأقل، وفتحت باب ذكرياته المؤلمة.

- شوفي! مش كل ليلة تعملي لي نفس الفيلم، ترى مية مرة فهَّمتك، أنا زلمة بحب أسهر، هيك الله خلقني، بحب أعيش الليل خواجا، وآه يا ستي بسكر! ارتحتِ؟ إذا مضايقك الموضوع كثير، بوجهك على دار أبوكِ وقولي له جوزي بسكر، وإذا لأ، نيمي ابنك وانخمدي.

دارت كلمات أبيه القديمة في رأسه بأسى وسخرية، وهو واقف أمام المرآة يسوي ياقة قميصه، لقد مضى ذلك الزمان الذي كان فيه طفلًا مرعوبًا يختبئ خلف أمه، إنه آمن الآن، ومضت أمه أيضًا، ومضى أبوه، وصحيح أن ملامحه تشبه ملامح أبيه، لكن هذا لا يهم، إنه شخص مختلف تمامًا، وأب مختلف، لا يشرب الخمر، لا يقامر، لا يضرب أطفاله، لا يسبهم أو يهددهم بالطرد من البيت، وبالتأكيد لا يحضِر العاهرات إلى سرير أمهم بعد شهر واحد من وفاتها!

مع ذلك، لم يكن خالد اليبرودي يحس أنه قد شفي تمامًا من أبيه، جزءٌ ما في روحه كان لا يزال يؤلمه، تساءل وهو يصفف شعره أمام المرآة، هل هذه الملامح هي تركته الوحيدة فعلًا؟ ألا تشكِّل كل مآسيه الداخلية تركة أيضًا؟ هذا الرعب الدائم من شيء ما سيئ ومجهول سيحدث، قلقه اللحظي وكأن حياته ليست سوى سطح بحيرة متجمدة، ما سببه؟ آه كم كانت حياته ستكون مختلفة لو لم يولد لذلك الأب!

- يلا حبيبي، راح نتأخر على الجماعة هيك، أنا قلت للُبنى إنه على التسعة راح نكون هناك.

قطع صوت زوجته الملائكي حبل أفكاره السوداء ومقارناته الموجعة، نظر إليها صامتًا بامتنان وحب، هذه الصغيرة -كما كان يحب أن يناديها- هي أغلى شيء في حياته، هي عدل الله أو الدليل الوحيد على عدله لو كان موجودًا! بعد طفولة كطفولته، وشباب كالذي عاشه، ما الذي كان سيبقيه على قيد عقله لو لم يرسل الله هذه الملاك في طريقه؟

احتضن خصرها بلطف، ألقى نظرة خاطفة حوله، أومأ برأسه للخادمة، ثم غادرا المنزل.

* * * *

«دب، دبدوب، درفيل، برميل، دبوس، أبو كرش» وقاموس كامل من الألقاب والشتائم حفظه عامر اليازجي عن ظهر قلب، حتى قبل أن يتعلم القراءة والكتابة، كانت السمنة، والسمنة فقط، هي الطريقة التي رأى بها الآخرون عامر، وبالضرورة كانت هي الطريقة التي رأى بها نفسه.

قبل أن يكتشف الله، كان الانعزال الحزين هو حل عامر الوحيد لمواجهة تنمر وسخرية الآخرين من بدانته، أما عندما شرح الأستاذ شوقي عن قدرات الله اللامحدودة، وما يمكن له أن يفعل بأعدائنا لو دعوناه -نحن المؤمنين به- من قلب صادق، فلم يكن هنالك مجال للتردد، وجد عامر حله المنشود، في تلك الليلة صلى ابن الثمانية أعوام أكثر من عشرين ركعة، ونام وهو يفكر

إن كان الله قد سمع فعلًا صوته الخافت من تحت اللحاف، هل فعلًا تصل قدرة الله لحد أن يسمع الأصوات الخافتة؟ وإن سمع، هل سيستجيب فعلًا؟

لحسن الحظ لم يترك الله لعامر فرصة حتى للشك في نجاح مساعيه، في الصباح التالي كُسِرت ساق سالم في أثناء نزوله على الدرج، بعدها بيومين انتقل علاء من المدرسة، وقبل نهاية الأسبوع اكتشف الأستاذ خليل أن شعر التوأم حسن وحسين مليء بالقمل، وأمرهما -وسط ضحكات الجميع الشامتة- ألا يعودا إلى المدرسة إلا بعد الخلاص منه، وهكذا، ما انتهى الأسبوع الأول من صداقة عامر الجديدة مع الله، إلا وكان كل طالب تنمر عليه قد عوقب بشكل أو بآخر، وبعد ظهر يوم الخميس عبر عامر باب المدرسة الحديدي عائدًا إلى البيت وهو يبتسم ويؤشر بإبهامه إلى السماء.

لكن هذا الصديق القوي والخفي والقادر على كل شيء لم يكن ليحمي عامرًا في البيت أيضًا، لا لشيء، إلا لأن عامرًا نفسه لم يكن ليطلب منه ذلك، صحيح أن أخته كانت تسومه سوء العذاب، لكن هل كان من المناسب أن يدعو عليها مثلًا؟ أو على خالته؟ لم يكن ذلك لائقًا، ولا ضروريًّا في الحقيقة، كان في البيت شخص آخر يقوم مقام الله في الدفاع عنه.

- يعني عجبك اللي حكيته؟ هي زعلت سوزان!

- تزعل ولا تنفلق! يعني تتمسخر على ابني واسكت لها؟

- يا محمد هي شو حكت؟ خالته للولد وبتمزح معه! بعدين ما كلنا بنحكي له دبدوب، عادية الكلمة! وهو تعود عليها!

- لا مش عادية! وما بدي أسمع حد يحكي له إياها! وبعدين شو تعود عليها هاي؟ الكلام المؤذي زي السكين، حدا بتعوِّد على السكين؟

بين مساعدة الله له، وحماية أبيه، مرت أيام عامر اليازجي، صحيح أن بعض الأيام كانت سيئة، والمساعدات كانت تتأخر أحيانًا، لكن ذلك لم يكن ليقلقه، كان يعرف في قرارة نفسه أنها ستأتي آجلًا أو عاجلًا، في النهاية لا بد أن الله لديه أشغالًا أخرى، لن يتفرغ له فقط، هنالك أيضًا أطفال في مكان ما يحتاجون إلى مساعدته، وهو لن يكون ثقيل الظل ويزعج

الله دائمًا بطلباته، القليل من الصبر لا يضر، وظلت تلك الحال حتى أكمل عامر عامه الثاني عشر، وبعدما بدأت العطلة الصيفية بيومين، حدث ما لم يتخيله عامر قط ولا حتى في أسوأ كوابيسه، استيقظ من النوم ليجد أن أحد صديقيه قد قتل الآخر! كان أبوه قد مات!

فيما كان الجميع يبكون حزنًا على والدهم، وحده عامر كان يبكي غضبًا وقهرًا! لماذا فعل به صديقه ذلك؟ كيف طاوعته نفسه أن يأخذ أباه منه؟ ألم يعلم كم كان يحبه؟ ألم يعرف ماذا كان يعني له؟ أليست الأرواح كلها بيده؟ لماذا يترك جميع الآباء السيئين ويأخذ أباه الطيب؟ كيف لهذا أن يحدث؟ كيف؟ آلاف وآلاف الأسئلة طافت في مخيلته في ذلك الصيف ولم يجد لها جوابًا، لكنها لم تنتهِ إلى لا شيء، عندما عاد عامر إلى المدرسة بعد ذلك الصيف، كانت علاقته بالله قد انتهت، لم يعد يثق به أو يطلب منه شيئًا، حتى العقوبات الصغيرة التي نالها بعض الأطفال جراء السخرية منه لم تعد تعني له شيئًا، عدَّها محاولات استرضاء متأخرة وغير ذات جدوى، وأدار ظهره لها، بعد فقد والده لم يكن لأي شيء معنى.

لم يعد يبكي كما كان من قبل، لكنه انعزل، عن المتنمرين وعن غيرهم، عن أصدقائه وعن أعدائه، عن أخته وأمه والناس أجمعين، لم يعد يريد شيئًا من أحد، لقد قرر أن يعيش حياته وحيدًا، أو على الأقل كان هذا قراره حتى التقاها، غيداء القضاة، الفتاة التي استطاعت أن تفك عزلته، وأن تعيد علاقته مع الله إلى سابق عهدها، بعد ما يقرب من عشرين عامًا من القطيعة.

كان عامر قد جاوز الثلاثين بقليل، ومع ذلك، فلم يكن قد عرف الحب بعد، إنما عرف ظل الحب، الجنس، أو بشكل أدق، الجنس المنفرد أو عزف السولو كما كان يروق له أن يسميه، وعلى الرغم من أن تخيلات عامر الليلية السرية كانت تظهره عربيدًا حقيقيًّا، فإنه كان في النهار أخجل من عذراء، وفي كل مرة كان يجبَر فيها أن يكون في مكان توجد به امرأة، كانت سيول من العرق البارد تتدفق في ظهره، أما لو حدثت الكارثة، واضطر أن يحادثها وتحادثه، فإن جيوشًا من نمل النار كانت تدبُّ تحت جلدة رأسه،

لأجل ذلك لم يكن من دواعي سروره قط أن يحال الحاج عزمي إلى التقاعد، وأن تحتل تلك الفتاة العشرينية ذات الشعر الأحمر مكانه كأمينة للمكتبة التي يستعير منها الكتب.

في بداية الأمر، حاول جاهدًا التنصل من أي حديث معها، إذ ليس هنالك ما يدفع الرجل إلى الحديث مع أمين أو أمينة المكتبة! من الممكن أن يتم الأمر بصمت متبادل، كما أنه لم يكن يتحدث مع الحاج عزمي إلا بدافع الصداقة، نعم الصداقة، لكنه ليس مجبَرًا على صداقة هذه الفتاة ولا الحديث معها، هكذا قال لنفسه وهو يقترب منها ليستعير كتابًا ويعيد آخر.

لكن ذلك لم يكن ممكنًا، اتضح أن الفتاة حشرية، ولم تكن فقط تسأله عن الكتاب الذي يستعيره، بل وأيضًا عن رأيه في الكتاب الذي يعيده، ومع أنه فكر فعليًّا أن يغير تلك المكتبة، أو أن يتوقف عن الاستعارة حتى، إلا أنه عدل عن ذلك حين لاحظ أن جزءًا صغيرًا وخفيًّا بداخله كان يحب تلك الحشرية، شيئًا فشيئًا بدأ عامر يعتقد أن تصرفها قد لا يكون حشرية كما كان يعتقد، بل لطافة، وأن الفتاة فعلًا لطيفة، وبدأ توتره في حضورها يصبح أقل كثافة، بل وفي بعض الأحيان أصبح يتعمد أن يعيد الكتاب بشكل أسرع من المعتاد، وهكذا دخلت غيداء إلى حياته.

لم تدخل غيداء مخيلة عامر الليلية، لكنها بدلًا من ذلك احتلت كل دقائق اليوم، كانت لا تغيب عن باله حتى تحضر مرة أخرى، ورويدًا رويدًا، بدأت علاقتهما تتوطد، وبدأ الصديقان الجديدان يتحدثان في عدة أمور خارج نطاق الكتب، ساعد في ذلك أن غيداء كانت سلِسة وبسيطة كالماء، كل التكلف الذي كان يبذله في الحديث مع الآخرين اختفى معها في أقل من أسبوع، كانا يتحدثان وكأنما كانا يعرفان بعضهما العمر كله، وفي اليوم الذي هاتفته فيه لتطلب منه أن يرافقها لتشتري هدية عيد ميلاد لابنة أخيها، تأكد للاثنين أن شهادة ميلاد حبهما قد كُتِبت.

مع غيداء، اكتشف عامر اليازجي أن السر الوحيد في الحياة يكمن في أن تمتلك شخصًا يريحك من ثقل أسرارك في صدرك، معها كان قادرًا على الحديث في أدق تفاصيل حياته، كان لديها تلك القدرة الخارقة على

الاستماع الذكي، كانت تقبض شفتيها بحزن حقيقي عندما يكون الأمر حزينًا فعلًا، أما لو احتمل الأمر بعض الفكاهة، فكانت تبتسم ببطء ثم تنفجر فجأة بضحك جاهدت وهي تكتمه، فيرتبك هو قليلًا ثم يكتشف أن الموضوع مضحك فعلًا فيبدأ بالضحك معها، كانت ماهرة جدًّا في جعله يحوِّل بعض أسوأ ذكرياته إلى سخرية مضحكة من الذات.

في الليلة التي وافق فيها أهل غيداء على ارتباطهما، عاد عامر اليازجي إلى بيته بمشاعر مختلطة، كان من المفترض أن يكون هذا أسعد أيام حياته، لكنه ما إن أغلق الباب على نفسه حتى بدأت دموعه بالانهمار، ثم انخرط في موجة بكاء قاسية، كان يبكي كل شيء؛ طفولته القاسية، مراهقته، وحدته الطويلة، حتى هي، كان يبكيها ويبكي الفرح الذي تعطيه إياه، كان كالسجين الذي خرج من معتقله بعد عشرين عامًا، فأعادت له حريته كل ذكريات حبسه، وعندما جفت دموعه أخيرًا وهدأت أنفاسه الباكية، نظر إلى سقف غرفته بامتنان، كان يعلم أن الله والله وحده هو من أرسلها في طريقه، وبنظرة تملؤها الدموع كان عامر يشكر صديقه القديم ويوطد لمصالحة بينهما.

مرت الآن ستة أشهر على خطبتهما، ستة أشهر كسرت خلالهم غيداء القاضي كل قواعد عامر اليازجي الحياتية وعاداته؛ ترك السجائر، اختلط بالناس، فتح حسابًا في البنك، بل واشترك في نادٍ رياضي حتى، لكن عادة واحدة خالدة لم يتمكن أحد من كسرها، ولا حتى غيداء نفسها، تلك المتعلقة بوالده.

قبل خروجه من البيت، هاتف غيداء ليخبرها بأنه سيمر لاصطحابها تلبيةً لدعوة العشاء، تأكد من هندامه للمرة الأخيرة، وضع هاتفه ومفاتيح سيارته في جيبه، وقف بقرب صورة والده، انتزعها من الجدار بكل رقة واحترام، ضمها بيديه وعينيه، قبَّل موضع جبين أبيه في الصورة، ثم أعادها حيث كانت، وغادر المنزل.

* * * *

ست دقات من ساعة الحائط الضخمة كانت كفيلة بأن توقظ ذلك القط الكسول من غفوته، تثاءب بعمق، مط جسده على استقامته، لوَّح بذيله يمنة ويسارًا، ثم تهادى فوق السجادة الحمراء العتيقة بخطى كسولة حتى وصل إلى حيث كان يجلس صاحبه، حازم الشاوي.

قفز القط بخفة إلى حضن حازم الذي لم يجد بدًّا من أن يضع كتابه جانبًا ويحتضن القط الذي أغمض عينيه بدلال مستسلمًا للمداعبات، لقد كبر هذا الصغير. قال حازم لنفسه وهو يمرر يده على ظهر قطِّه أن سبع سنوات مرت منذ رآه في أربيل لأول مرة، كان بحجم كف اليد أو أكبر قليلًا، اقترب من طاولة حازم وهو يتناول العشاء وبدأ بالمواء الذليل، كان ضعيفًا ومريضًا ومتسخًا وجائعًا، لكنه كان جميلًا، فرو أبيض ثلجي مع ذيل أسود كثيف كالليل، أحبه حازم ورأى فيه تحفة متسخة، بحاجة إلى بعض العناية فقط، أطعمه من طعامه وحمله معه إلى غرفة الفندق وسط دهشة العاملين من حوله، بدا لهم أنه ليس من الملائم أن يلتقط زبونٌ غني قطًّا من قطط الشوارع ويأخذه معه إلى غرفته، إلا أنه في الحقيقة لم يكن ذلك غريبًا قط، لقد دارت حياة حازم الشاويش كلها حول تجميع التحف.

هذا الأثاث المغربي الفخم أحضره من الدار البيضاء، تمثال أنوبيس الأسود اشتراه من الإسكندرية عندما كان لا يزال طالبًا في الكلية البحرية، وفي أول رحلة له كقبطان، اشترى تلك السمكة الزرقاء الضخمة من جنوى، لوحة الملاك مكسور الجناحين التي تزين الحائط من كولومبيا، البيانو الأبيض الكبير من برشلونة، السجادة من بندر عباس، ساعة الحائط من بورتسموث، الأسد النحاسي من أبيدجان، وهكذا، كل مدينة زارها حازم الشاويش كان يشتري منها تحفة ما.

إلا أن أغلى تحفة على الإطلاق وأقربهم إلى قلبه، كانت منحوتة من عاج أبيض اقتناها في عمَّان قبل ست سنوات، كانت المنحوتة لفرس عربية أصيلة، ولم تكن صغيرة بحيث يمكن وضعها على رف، بل إن وزنها كان نحو خمسة وستين كيلوجرامًا، بجسد مدهش وتفاصيل تخلب الألباب، ومع بياض جسدها العاجي اللامع، إلا أنه كان يعلو رأسها ورقبتها شعر أسود

كالليل، ورُكِّب لها في وجهها ماستان زرقاوان تضيئان وجهها كنجمتين، وكأي تحفة نادرة، كان لهذه التحفة اسم تعرَف به، وتلك التحفة الجميلة عُرفَت باسم لبنى اليازجي.

كان القط الكردي قد انسل عائدًا إلى مخدعه وعاد حازم لكتابه، عندما طوقت لُبنى عنقه من الخلف بذراعيها.

- شو عم تقرأ؟

- رواية اسمها العنف والسخرية لفيلسوف اسمه ألبير قصير.

- أول مرة بسمع فيه.

- هو مش مشهور كثير، بس بحسه بشبهني.

- كيف بشبهك؟

- كان مثلي بحّار، لف شوية بلاد، بعدين استقر في غرفة فندق في فرنسا، وعاش فيها بقية عمره، خمسين سنة تقريبًا ما طلع من غرفته.

تتنهد لبنى بعمق ثم تقول:

- هاد مجنون، وما بشبهك ولا بتشبهه ولا عمرك راح تشبهه، صاحبك هاد ما كان عنده لبنى، أنت عندك، وأول ما تخلص الشتوية راح نسافر، وما راح نرجع عالبيت قبل خمس سنين، اتفقنا؟

يبتسم حازم ويهز رأسه، فتكمل هي:

- الناس صاروا على وصول، تعال نطلع على البلكونة نشم شوية هوا أحسن من قصير وفلسفة قصير.

تضع الكتاب جانبًا، وتدفع كرسي زوجها المتحرك باتجاه الشرفة.

عندما التقيا لأول مرة، كان حازم يكبرها بثلاثة عشر عامًا تقريبًا، شاب رياضي وسيم ومن أسرة ثرية، يهوى الملاكمة والسباحة وجمع التحف والعشيقات، وكانت هي لا تزال في السادسة والعشرين من عمرها، مهندسة معمارية جميلة تقضي نهارها تعمل في شركة يملكها صديق

لوالده، وتقضي ليلها في التفكير في أسهل طريقة تمكنها من اختراق طبقتها لتصل إلى حيث تحلم.

لم يكن حازم قبل ذلك قد فكر قط في أن يتزوج ويستقر، كان نمط حياته اللاهي والعابث يلائمه تمامًا، لكنه عندما رآها، قرر أن تكون هذه الفرس البيضاء له، وبأي ثمن، تقرب منها بدعوى أنه يريد تصميمًا لبيت، وبعد أسبوعين من العمل اليومي معها على تصميم ڤيلته المزعومة كان قد اتخذ قراره، لُبنى ستكون زوجته، وتقدم لخطبتها بشكل رسمي، لكن لدهشته ولدهشة كل من حوله، رفضته.

كان حازم الشاويش هو حلم لُبنى البعيد الذي تجسد أمامها حيًّا وناطقًا وملونًا، لكنها مع ذلك رفضته بدعوى أنه دونجوان! هذا الرفض الذكي هو الذي أشعل قلبه تجاهها أكثر فأكثر، كان رفضًا فعلًا، لكنه حمل في طياته إعجابًا كبيرًا به، لقد قالت نعم في قالب لا، وهذا ما لم يدركه كثير من المحيطين بلُبنى، لم يكن جمالها الأخاذ هو أهم مزاياها، بل ذلك الذكاء المتقد الذي يختفي خلفه، كانت تعرف تمامًا ماذا تريد، وتعرف كيف تحصل عليه.

تزوجا في عمَّان، وسرعان ما غادراها إلى أوروبا في شهر عسل طويل زارا فيه تقريبًا كل مدن أوروبا، من إسطنبول حتى جبل طارق، ثم عادا ليبنيَا ويسكنَا البيت الذي صممته هي، كل شيء في حياتهما كان كاملًا بطريقة مخيفة، كانت الحياة من الروعة بمكان أن رعبًا يوميًّا كان يصيب لُبنى في كل ليلة، رعب أن الحياة جميلة أكثر مما ينبغي، وأن شيئًا ما سيئًا على وشك أن يحدث فجأة وينسف هذا كله، وهو بالضبط ما حدث بعد ثلاث سنوات.

في أثناء رحلة بحرية في مسقط، ارتطمت زلاجة حازم المائية بقارب سريع، قطعت إحدى ساقيه على الفور وتضررت الأخرى ضررًا بالغًا، قبل أن يبترها الأطباء لاحقًا تفاديًا للمضاعفات، بعد شهرين من المعاناة خرجت لُبنى من بوابة المستشفى وهي تدفع كرسيًّا متحركًا يجلس عليه بقايا حلمها المكسور، الذي بدا وكأنه والدها المسن.

* * * *

حول طاولة العشاء الرخامية جلس الجميع، ترأس حازم بكرسيه المتحرك الطاولة، عن يساره جلست زوجته لُبنى، كانت تبدو مذهلة في ثوبها الأسود ذي الذراعين العاريتين، وبجانبها جلست غيداء، على يمين حازم جلس خالد اليبرودي، وعلى يمينه جلست زوجته علياء، أما عامر اليازجي فقد جلس على الطرف الآخر من الطاولة.

في أثناء وضع الخدم الطعام على الطاولة، انشغل حازم وخالد في نقاش كروي حول نتائج فريق آرسنال السيئة وعمر أرسين فينجر المديد، وبينما كانت علياء تثني على مهارة لُبنى في تزيين الطعام، قرَّب عامر رأسه من رأس خطيبته وهمس لها بشيء ضحك هو نفسه عليه، بينما عاتبته وهي ترفع حواجبها بابتسامة خجلة مندهشة! وما إن وُضِع الخروف المشوي في منتصف الطاولة، حتى توقفت كل الأحاديث الجانبية وبدأت الملاعق والشوك والسكاكين بالكلام.

لحم الخروف المشوي كان طبق خالد المفضل، مع ذلك، ففي اللحظة التي أدخل فيها قطعة اللحم الأولى في فمه، كان عليه أن يستخدم كل الثبات الانفعالي الذي يملكه، كي لا ينتفض من مكانه أو يصدر شهقة كانت قد وصلت بالفعل إلى شفتيه!

في أثناء لقمته الأولى كانت قدم نسائية بأصابع صغيرة ناعمة قد تسللت تحت جنح الطاولة لتلامس ساقه اليمنى، لم يكن بحاجة إلى أن يحزر صاحبة تلك الأصابع، كان يعرفها ويعرف أصابعها عن ظهر قلب، فما كان منه بعد أن استعاد هدوءه، إلا أن مضغ قطعة اللحم التي وقفت في حلقه، ثم طأطأ رأسه مبتسمًا وهو لا يزال يحس بخدر في ساقيه.

أول مرة التقى فيها لُبنى اليازجي كانت قبل ثلاث سنوات، كانت قد هاتفته لعمل بعض الديكور في بيتها بعد توصية من صديق مشترك، وعندما التقيا ووُضعت الأسماء على الوجوه، بدت أجمل بكثير مما أوحى به صوتها ولهجتها الجدية.

عملت شركته في منزلها لشهر تقريبًا، كان كل يوم في ذلك الشهر أشبه بالجحيم، وبعكس زوجها الهادئ المنعزل، كانت تتدخل في كل شيء، وتتذمر من كل شيء، وتشتكي من كل شيء، وتوافق على الشيء ونقيضه في اليوم الواحد عدة مرات! ولولا أن مَن عرَّفها إليه كان أحد زبائنه الكبار، لما تردد لحظة في الهروب من جحيم تلك السيدة المجنونة.

عندما جاء وقت الحساب، جادلته لساعتين تقريبًا، وعند كل نقطة في الحوار يكسب بها، كانت تخترع عيبًا جديدًا في عمله، وتدور حول نفسها في دوائر مغلقة، حاول الحديث مع زوجها لكنه لم يكن موجودًا ذلك اليوم، وفي نهاية الساعتين كان قد استنفد تمامًا كل ما لديه من أعصاب، وفي اللحظة التي أوشك فيها أن يقتلها بيديه العاريتين وليحدث ما يحدث، أمسكت به من ياقة قميصه وقبَّلت شفتيه بعنف.

عندما غادر منزلها بعد ظهيرة ذلك اليوم كان فاقدًا تمامًا لتوازنه، قطع إشارتين حمراوين، كاد أن يدهس عائلة كاملة وارتطم بعدة أرصفة، وعندما وصل أخيرًا إلى مكتبه، كان المصباح الأمامي الأيمن لسيارته يتدلى منها كرأس ذبيحة غير مكتمل القطع.

أمضى فترة المساء جالسًا في مكتبه يفكر فيما حدث، لم يكن قادرًا على مواجهة علياء مباشرة، كان لا بد أن يستوعب هو نفسه أولًا ماذا حدث، لم تكن لُبنى المرأة الأولى التي يعرفها، عرف الكثير من النساء قبلها، لكنها كانت الأولى بعد زواجه، وكانت علاقة كاملة بامرأة حقيقية! كان الموضوع مثيرًا جدًّا لكنه في الوقت نفسه أحس بالعار، لقد خان علياء، المرأة التي أحبها أكثر من أي شيء آخر.

عندما انتصف ليل ذلك اليوم كان قد وصل لنتيجة ترضيه، وتعيده في نظر نفسه إلى المربع الذي كان فيه في الصباح -مربع الزوج المخلص-، ما حدث كان نزوة، هي لا تحبه وهو لا يحبها، ربما هي تمر بصدمة ما بعد حادث زوجها، وهو بدوره لم يكن قديسًا ولا حجرًا، لكن هذا كل ما في الأمر، لن يراها مرة أخرى، سيأخذ فقط حسابه منها في الغد، ثم سيدفن

الأمر كأن لم يكن، ردد هذا الكلام لنفسه عشرات المرات وهو في طريق العودة للمنزل.

في اليوم الثالث للقائهما هاتفته، كانت باردة ورسمية جدًّا في أثناء المكالمة، مما منحه نوعًا غريبًا من الارتياح، هي إذن تنظر إلى الأمر كما يراه هو، نزوة عابرة وانتهت، تردد في الذهاب إليها لكنه في النهاية ذهب، تقابلا في بيتها، وبدأ اللقاء بشكل جاف، وبنظرات لا تعطي أي انطباع عن الذي حدث بينهما، أعطته حسابه كاملًا، وأضافت له طوعًا كل شيء طالب به، وبعد أن شكرها على ذلك ولم يبقَ له إلا أن يغادر، ساد بينهما صمت مربك لعدة ثوانٍ، بدا الصمت ثقيلًا جدًّا على كليهما، ربما كان يعني في جوهره أن تلك المغامرة الصغيرة على وشك أن تنتهي بتمثيل ممجوج، ثم قطعت لُبنى الصمت بضحكة صغيرة غير متوقعة، وفجأة، كانت كل أيمانه وتعهداته السابقة لنفسه قد تطايرت كخيوط دخان، في ذلك الشهر وحده، التقيَا ثماني مرات.

* * * *

- وأنت يا خالد شو رأيك؟

أيقظه سؤال حازم من ذكرياته، فانتبه فجأة أنه كان غائبًا تمامًا عن الحديث الدائر على الطاولة.

- رأيي في شو؟

قالها ببراءة المذنب المبتسم، موجهًا نظراته نحو الجميع.

- رأيك في الخروف المشوي، ذي القرنين.

قالت لُبنى بجدية مصطنعة، فانفجر الجميع ضاحكين، قبل أن تتطوع زوجته التي لم تضحك بقدر الآخرين، لتخبره:

- كنا عم نحكي حبيبي عن قصة البنت اللي قلت لك عنها، اللي شافت ابنها بالحلم وعرفت مين خاطفه، وطلع كلامها صح، والشرطة مسكوا الخاطف.

- آه أوكي تذكرتها، بس لا ما أعتقد، يمكن هيك قصة عملوها بس عشان البرنامج، بس إنه من خلال الحلم نعرف شي ما كنا نعرفه؟ مستحيل، ما بصدق، الأحلام أحلام، شي هيك مخربط.

- اسمح لي أختلف معك أستاذ خالد (قالت غيداء بصوت أكاديمي)، الأحلام من بداية البشرية، وهي معروف إنها وسيلة تواصل من جهة واحدة، بين قوى غيبية -خلينا نقول- وبين الإنسان، صحيح في جزء كبير منها بكون أضغاث أحلام، بس هذا لا ينفي إنها في كثير حالات، كانت الأحلام تشكل أحد مصادر معرفة الإنسان، وهذا الشي مثبت في كل الحضارات حتى الإسلام، يعني قصة النبي يوسف كلها حلم، وتحقق بالأخير، وقصة ذبح النبي إبراهيم لابنه كمان كانت حلم، يعني فعلًا الحلم وسيلة تواصل.

ابتسم عامر وهو يراقب خطيبته بفخر، بينما راوح حازم نظراته بين الجميع، قبل أن تضيف زوجته:

- غيداء، هاد بس للأنبياء يمكن، بس الناس العادية ما أتوقع، أنا أصلًا هديك اليوم قرأت على الفيس بوك إنه الأحلام عبارة عن نبضات كهربائية عشوائية بعملها الدماغ عشان نصحى، فهي شي فيزيائي بس وما إله معنى، بس إحنا بنحاول نفسرها، وهاي هي تجارة الوهم اللي عايشين عليها الناس.

بدا أن غيداء صُدِمت بجواب لُبنى التي تسلت بوضع قطعة طماطم قزمة في فمها، قبل أن يتدخل عامر لدعم وجهة نظر خطيبته.

- لُبنى، الطبيعة الفيزيائية للأشياء ما بتنفي أو بتتعارض مع معناها الحقيقي، ما هو بمنطقك هاد، الشعر بكون تراكيب لغوية، والموسيقى مجرد أمواج صوتية، والحب مجرد هرمونات، بس هاد كلام مش صحيح، فيزيائيًّا ممكن الأحلام تكون صور وخيالات بعرضها الدماغ، بس أكيد إلها معاني، ووجودها مش شي عشوائي أبدًا.

في مجلس آخر كانت لُبنى ستوبخ أخاها الأصغر على معارضتها وتظهره بمظهر الأحمق، لكنها هنا اكتفت بابتسامة باردة بدا ضيقها واضحًا منها، مما اضطر زوجها للتدخل.

- شوفوا يا جماعة، أتوقع الكل رأيه صحيح لكن من وجهة نظره، يعني الناس اللي دارسين فيزياء وتشريح، بشوفوا إنه الأحلام مجرد ومضات كهربائية، وهذا صحيح من ناحية فيزيائية، بينما من وجهة نظر الماورائيات فهي رسائل من عالم آخر، زي ما قالت غيداء، وهذا شي موجود بالقرآن، فنقاشه صعب يمكن، لكن وجهة النظر الثالثة واللي أنا بميل إلها، فهي وجهة نظر علماء النفس اللي بعتبروا الأحلام عبارة عن استرجاع لأحداث اليوم، أو انعكاس لقلق الإنسان وشعوره بالذنب تجاه أمور معينة بتأرقه في اللاشعور، أمور مسببة له أزمة في حياته، وما بقدر يعبر عنها في خلال يومه، فبتظهر مرمَّزة أو معكوسة في الأحلام، وهذا مبدأ فرويد وغيره، وأثبت نجاعة كبيرة حقيقةً.

من الأشياء التي كرهها خالد اليبرودي في نفسه أن رأيه كان يتغير بمجرد أن يدير رأسه للمتحدث، فقد أقنعه كلام غيداء أولًا، ثم أقنعه كلام لُبنى أن الأحلام ومضات، وعاد عامر لإقناعه أن الطبيعة الفيزيائية لا تنفي المعنى، وها هو حازم يقنعه بنظرته الشاملة وتفسيره العلمي، فكيف حدث ذلك؟ ولماذا يتغير رأيه بهذه السرعة؟ وما هو رأيه أساسًا؟ قطعت علياء أفكاره بقولها:

- صحيح حازم، بس أنا بدي أوضح نقطة مهمة هون، إنه الإسلام مثلًا ما اعتبر كل الأحلام رسائل من ربنا، أو الماورائيات بحسب تعبيرك، القرآن كان واضح تمامًا، لما استخدم كلمة حلم، كان يقول أضغاث أحلام، يعني أشياء ما إلها معنى، بس لما استخدم كلمة رؤيا كانت تتحقق، فهو مش كل حلم إحنا لازم نتابعه ونفسره، خصوصًا إنه موضوع الرؤى هاد، شبه حصري على الأنبياء.

- مية بالمية علياء، وهاد اللي بقوله، (أضافت غيداء) والرؤيا بتفرق عن الحلم إنها بتكون حلم متكرر، يعني مو كل حلم لازم نهتم فيه،

المتكررين بس، لأنه حتى القرآن استخدم صيغة الفعل المضارع «إني أرى» دلالة على حدوث الحلم أكثر من مرة. بس ما بتفق معك إنه خاص بالأنبياء، ممكن يصير للبشر كمان، هاي الملك في قصة يوسف حلم بالبقر السمين والنحيف، وخدم الملك حلموا ويوسف فسر أحلامهم، فلأ، الرؤيا مو حكر على الأنبياء بس، بتصير للبشر كمان، وأنا مقتنعة تمامًا بقصة الست هاي، وممكن جدًّا الإنسان توصله معرفة معينة عن طريق الأحلام، بس بشرط يتكرر حلمه ثلاث مرات على الأقل، ولا كيف ربنا بده يحكي معنا؟ عن طريق الحلم، هادي قناعاتي، ومو بس قناعات، أنا قرأت كثير عن الموضوع على فكرة، ومش بس عنا بصير، حتى عند الغرب، يعني جزيء البنزين تم اكتشاف تركيبته بحلم، وماكينة الخياطة كمان إجت فكرتها بحلم، وأشياء تانية كتير، سيمفونيات وأفكار أفلام ومشاريع وغيره.

هز خالد حاجبيه دهشة، وبينما صمتت علياء، كان عامر ينظر إلى خطيبته المثقفة بجذل ويثني في صدره على حسن اختياره، أما حازم فبدا أن في فمه بعض الكلام ليعقب به، لكنه قبل أن ينطق بحرف، قررت لُبنى التي لم يعجبها الموضوع قط أن تغير مجرى الحديث كاملًا، فعاتبت الجميع أن أحدًا منهم لم يجرب سلطة الكينوا الرائعة التي صنعتها، ومع الكينوا والحديث عن الكينوا الجديدة التي بدأت تغزو عالم الطبخ، كان موضوع الأحلام قد طُوي تمامًا ولم يعد أحد للحديث عنه.

* * * *

باستثناء الحلم الذي دشن فترة مراهقته، فيمكن القول إنَّ كل أحلام خالد اليبرودي كانت مزعجة أو مرعبة إلى حد ما، سقط من شواهق، طاردته كلاب بعدة رؤوس، ذئاب عملاقة ضاحكة، وضفادع حمراء متوحشة تمشي على قدمين، كما حلم أن باص المدرسة الذي كان يستقله وهو طفل قد احترق، ومرة حلم أن القيامة قد قامت ورأى الله، أو -بصورة أكثر دقة- رأى ركبتيه، كان الله في الحلم ضخمًا جدًّا لدرجة أنه رفع رأسه عاليًا جدًّا فلم يرَ سوى ركبتيه فقط، هذا طبعًا عدا الكوابيس المتكررة التي كان يرى

فيها أباه، لكن أيًّا من تلك الأحلام لم يترك في نفسه ذلك الأثر الذي تركه حلم الليلة الماضية.

ذلك أن كل الأحلام السابقة -أو الكوابيس لنقل- كان يجمعها شيء واحد، كلها كانت تبدو منطقية وحقيقية وقت النوم، لكن متى استيقظ وعاد إلى عالم الإدراك الحقيقي كان يدرك لا منطقيتها، فتبدو سخيفة وتافهة مما يجعله ينساها بسهولة، لكن ما رآه في حلم ليلة أمس كان مختلفًا، لم يكن في الحلم أي شيء لا منطقي، على العكس، بدا حقيقيًّا جدًّا أو قابلًا للحدوث على الأقل، والأكثر رعبًا أن الحلم لم يكن يتعلق به، بل حولها هي، المرأة التي أحبها أكثر من أي شيء آخر؛ علياء، رأى في الحلم أنها تخونه!

وبعكس كل أحلامه السابقة التي كان يتذكرها بضبابية وبعد دقائق من استيقاظه، لم يفكر عندما استيقظ في أي شيء سوى هذا الحلم المرعب، في الحقيقة، لم يبدُ وكأنه كان يحلم ثم استيقظ، بل بدا وكأن وعيه لم ينقطع قط، كما لو كان في قاعة سينما مظلمة ثم أضيئت الأنوار.

في أثناء جلوسه على مقعد الحمام، راح يسترجع تفاصيل حلمه الغريب، لقد رأى في منامه أنه كان في غرفة كبيرة، في طرف تلك الغرفة يستقر بيانو أبيض ضخم، يشبه كثيرًا البيانو الذي يمتلكه حازم، لكن أصابع البيانو في الحلم لم تكن سوداء، بل حمراء، وفي الطرف الآخر كانت علياء، مرتدية فستانها الأزرق ومنحنية أمام كرسي متحرك يجلس عليه غريمه، حازم الشاويش نفسه!

لم يستطع رؤية وجه حازم بوضوح، كان ينظر نحو نافذة الغرفة، لكنه كان هو بشحمه ولحمه وكرسيه المتحرك، بلحيته المهملة التي يغزوها الشيب، بيديه المعروقتين، وبرأسه الذي يشبه كوز ماء، لكن المهم في الحلم لم يكن حازمًا، بل علياء، زوجته، لقد رآها تركع أمام ساقي ذلك المسخ كما لو كان إلهًا.

* * * *

في الطريق إلى العمل كما في المكتب، حاول خالد أن يشغل نفسه بأمور أخرى، لكن بعد مناقشات الأمس فلم يكن هذا بالأمر الهيِّن، قطعًا

لم يكن لديه ذرة شك في قدسية علياء، وبالتالي بدت أطروحة ذات الشعر الأحمر عن الرؤى سخيفة، لكن الحلم كان مزعجًا فعلًا، ووجد نفسه يميل لتفسير حازم: الأحلام هي شعورنا المعكوس بالذنب، فعلًا، هذا الحلم هو أكبر تجسيد لإحساسه العارم بالذنب تجاه علاقته مع لُبنى، الإحساس الذي يحاول دائمًا أن يتجاهله، لكنه جاء معكوسًا بأسوأ صورة ممكنة.

في المكتب جلس يراجع تاريخ علاقته مع لُبنى، ثلاث سنوات كاملة من الخطيئة، لكنها هي من بدأت كل شيء، هي أغوته، نعم هي من أغوته، كما أنه حاول أن ينهي العلاقة عدة مرات، وهي من تمسكت به، لكن هل هذا عذر فعلًا؟ لا، إنه مخطئ، لقد أرادها بقدر ما أرادته، لكن لماذا؟ حسنًا، هي لديها أسبابها، ربما شعورها بالوحدة والاكتئاب بعد حادث زوجها، لكن هو ما عذره؟ إنه لا يحبها، ربما قال لها إنه يحبها أكثر من مرة، لكن هذا غير صحيح، يقول الإنسان أي شيء في السرير، لكنه لا يعنيه بالضرورة، وهي أيضًا لا تحبه، وقد قالت ذلك صراحة، وعادت به ذاكرته إلى لقاء آخر جمعهما ذات يوم.

- لُبنى أنتِ بتحبيني؟

- أنت شو شايف؟

- شايف إني بحبك وبتحبيني.

مكتبة
t.me/t_pdf

- لكان لشو بتسأل؟

- أقول لك بصراحة، يعني الظاهر إنه إحنا بنحب بعض أكيد، بس يعني مرات بحس إنك بتشتاقي لي، فقلت أسألك وأعرف شو جواك.

نظرت إليه وقتها بابتسامة تعني أنني أعرف أنك كاذب وتعرف أنني كاذبة، ثم قالت:

- خالد، خليك على الظاهر، أنا نفسي ما بعرف شو جواي، بحبش أتطلع جواي.

ما الذي يجمعهما إذن؟ ما الذي جعله مستمرًا بهذا العبث لسنوات؟ كيف له أن يفعل شيئًا مريعًا كهذا؟ ضاقت به الدنيا وهو يسترجع مواقفهما معًا،

شعر بالعار والضعة، وأحس أنه يختنق، خرج إلى شرفة مكتبه ليتنفس، لكن السماء المكفهرة أضاقت صدره أكثر وأكثر، كانت الغيوم الرمادية تغطي الأفق كاملًا وكأنما لا شيء خلفه، فضاق عالمه كله عليه.

في المساء كان التفكير بلُبنى وعلاقته معها قد أرهقه، لكنه وصل إلى قرار مريح، سيتركها، نعم سيتركها مهما توسلت، إنها لا تحبه وتراه كثور فقط، لتجد ثورًا آخر إذن تشاركه مغامراتها، سيقطع علاقته معها ومع زوجها أيضًا، ليذهبا إلى الجحيم لا يهم، لكنه لن يخون علياء مرة أخرى، تلك القديسة لا تستحق سوى الحب، وسيطهِّر نفسه من أجلها، نعم، هذا ما سيفعله، همس لنفسه بذلك وهو يراقبها تصلي العشاء بينما هو يضع كفيه تحت رأسه في السرير.

* * * *

في نهاية الشهر الأول لزواجهما، كانت علياء قد عرفت عن علاقة خالد بعائلته، أضعاف ما عرفته خلال سنة من الأحاديث الطويلة في فترة الخطبة، وحدث ذلك دون أن يقول لها كلمة واحدة.

كل ما كانت تعرفه قبل زفافهما هو أن أباه كان يملك محلًّا للأثاث، وأن أمَّه توفت وهو في العاشرة من عمره، وتبعها أبوه بعد ذلك بعدة سنوات، لكن كيف كانت علاقة خالد بهما؟ كيف كانا كشخصين؟ لم تكن تعرف شيئًا، كانت تلك منطقة مظلمة بالنسبة إليها، لكن وفقط في ثاني ليلة لهما كزوجين بدأ كل شيء يتضح.

استيقظت مع الفجر على صوت بكاء مرير، وقبل أن تصحو من صدمة الاستيقاظ على صوت بكاء عريسها، كانت الصدمة الأكبر أنه نائم! اعتدلت في سريرها وجلست تراقب رجُلها برعب شديد، كان يحمي وجهه بيديه ويتوسل طالبًا من أبيه أن يرحمه، ويعده أنه لن يكون شقيًّا مرة أخرى، فطر المشهد الحزين قلبها، ولم تستطع أن تتركه يعاني أكثر من ذلك، احتضنته بقوة شديدة محاولة تهدئته أو إيقاظه، فما كان منه إلا أن ذكر اسم أمه، قبل أن يعود إلى نومه بسلام.

تلك الحادثة وحوادث أخرى متفرقة ساعدت علياء أن تفهم طبيعة الرجل الذي تزوجته، وعرفت، دون أن يخبرها أحد، أن خلف ذلك الجسد الضخم والملامح القاسية يختبئ طفل صغير مرعوب، طفل بحاجة ماسة إلى حنان دائم، ذلك الحنان الذي لم تبخل به.

بعد سنوات من الزواج، كانت جهودها كزوجة وأم لخالد قد أثمرت، لم تعد تلك الكوابيس المفزعة تزوره بالحدة ذاتها، ولم يعد يصرخ أو يبكي كما كان في بداية زواجهما، إنما كان يحدث كل عدة أشهر أن تستيقظ لتجده يرتعش في سريره، فتحتضنه حتى يهدأ وينام في حضنها، وفي السنتين الأخيرتين اختفت تمامًا حتى ظنت أنها ذهبت إلى غير عودة.

من أجل ذلك، تفاجأت علياء في فجر ذلك اليوم عندما سمعت زوجها يصرخ بكلمة «لا» قبل أن يستيقظ وهو يرتجف، لكن المفاجأة الأكبر حدثت عندما اقتربت منه لتهدئته، لم يضع رأسه في حضنها كما كان يفعل، إنما أمسك كتفيها بقوة شديدة، ونظر مباشرة إلى عينيها بطريقة مرعبة، كانت عيناه مرعبتَين حتى ظنت أن روحه كلها قد تركزت في عينيه، لم تكن عيناه عينَي بشر، بل كرتان من نيران سوداء كانتا على وشك التهامها، وقبل أن تجرؤ على قول كلمة واحدة، وجدته فجأة يفلت كتفيها، وينسحب مسرعًا نحو الحمَّام ويقفل الباب بقوة!

* * * *

في مكتبه، أغلق خالد الباب على نفسه ودفن رأسه بين راحتيه محاولًا تجميع شتات نفسه، لقد عاوده الحلم اللعين مرة أخرى، لكن بشكل أوضح هذه المرة، لم يكن فقط قد رآها راكعة عند كرسي حازم المتحرك، بل رأى أيضًا أصابعها وهي تتخلل لحية ذلك المسخ، وسمعها بأذنيه وهي تقول إنها تحبه!

شعر بقشعريرة تجتاح كل خلية فيه، وبلا وعي وجد نفسه يتساءل، هل حقًّا تخونه علياء؟ ولماذا قد تفعل ذلك؟ لقد أحبَّها فعلًا، فلماذا تفعل ذلك؟ حسنًا، لقد ضاجع تلك العاهرة لبنى لكنه لم يكن حبًّا قط، لم تحتل في قلبه أي ركن، لكن لماذا تفعل علياء ذلك؟ لماذا؟ ثم أنه ليس مذنبًا لتعاقبه الحياة

بهذا الشكل، لا ليس مذنبًا، لبنى هي من أغوته، وذلك المسخ زوجها لم يفهم شيئًا، كيف لرجل معاق أن يستوعب أن زوجته الشابة الجميلة ستكتفي به؟ لا بد أن تبحث عن آخرين! هذا واضح للأعمى حتى، لكنه هو نفسه لا يعاني شيئًا، فلماذا تخونه علياء؟ ومع من؟ مع نصف الرجل ذاك؟ ماذا رأت به؟ هل لأنه معسول الكلام؟ هو أيضًا معسول الكلام، حسنًا، قد لا يكون متحدثًا بارعًا، وليس مثقفًا أو قارئًا، لكن هل هذا يعيبه؟ إنه يكسب أضعاف أضعاف ما يكسبه أي من أولئك المثقفين الرخوين! لماذا فعلت ذلك؟

سرت آلاف الأسئلة في حلقه كحمض، لكنه لم يجد أي إجابة، فقط أسئلة تتوالد من أسئلة وتمزق روحه، لكن لماذا يفترض أنها تخونه أساسًا؟ لا، إنها لا تخونه، هذا مجرد حلم، كابوس من مئات الكوابيس التي مرت به، ثم إن تلك العاهرة الأخرى الصغيرة قالت إنَّ الرؤيا تتكرر ثلاث مرات، وهذا الحلم جاء مرتين فقط، حتى وإن تكرر، فهذا لا يعني شيئًا، ألم يحلم بموظفة المصرف العجوز مرتين من قبل؟ ماذا حدث وما معنى ذلك الحلم؟ لا شيء هراء، لا يجب أن يصدق غيداء، ولماذا يجب أن يصدقها؟ ماذا تعرف عنه وعن زوجته؟ لا شيء، زوجته لا تخونه، هذا أكيد، لا يمكن لعلياء أن تفعل ذلك، كيف فكر أساسًا في هذا الاحتمال القذر؟ لا بد أنه شعور بالذنب فقط، وتكرر، ثم لماذا كان عليه أن يذهب إلى ذلك العشاء المسموم؟ اللعنة عليك يا لُبنى، هي من بدأت كل هذا العبث.

بدت حججه مقنعة بالنسبة إليه، ولتعزيز تصوره لجأ للإنترنت، وبدأ البحث عن «حلم متكرر» ولحسن حظه أنه لم يقرأ أي مقال يدعم وجهة نظر غيداء، الجميع تحدث أن الأحلام المتكررة هي مسائل نفسية عالقة ولم تُحَل، فعلًا، هي مسائل نفسية عالقة لم تُحَل، لكنها ستُحَل الآن وإلى الأبد، وارتسم شبح ابتسامة باهتة على شفتيه المرتعشتين، هو حلم إذًا، ما الذي كانت تهذي به ذات الشعر الأحمر، رؤى وسخافة، لكن لن تمر هذه الحادثة عبثًا، سيتعلم منها، الآن سيتصل بلُبنى ليخبرها بأن تختفي من حياته. وبأصابع مرتعشة أمسك خالد هاتفه ليجد أنه بالإضافة إلى عشرات المكالمات الفائتة والرسائل هنالك رسالة من لُبنى.

«خلُّودي، أنا اليوم نازلة على القدس مع رنيم، راح أقعد هناك أسبوع، وبس أرجع بدي أشوفك، اشتقت لك يا دبّ».

فكر كثيرًا في أوقح رد يمكن أن يرسله إليها، لكنه بالنهاية لم يرسل شيئًا، لن يرسل أي شيء، نعم، لن يتعاطى معها بأي شكل من الأشكال، هكذا أفضل، سيقوم بحظرها، نعم، أحس خالد ببعض الارتياح عندما وصل إلى تلك النقطة، هدأت أعصابه قليلًا، أتم عملية الحظر، وتراجع قليلًا في كرسيه، ليكتشف أن الساعة قد قاربت الثالثة عصرًا.

ثماني ساعات مرت عليه في هذه المحنة دون أن يأكل أو يشرب أو حتى يحادث أحدًا، لكن هذا غير مهم، ليتماسك الآن، لم يحدث شيء، إنه يحب زوجته وزوجته تحبه، وهذه مجرد كوابيس، وليذهب أي شيء آخر إلى أعمق جحيم ممكن، لن يستمع لأي رأي آخر، ولن يفكر فيه حتى، إنه قوي، نعم قوي، ويعرف زوجته جيدًا، وسيعبر هذه المحنة كما عبر غيرها، سيعبرها مع علياء وليس مع أي شخص آخر، إنها حبيبته التي يثق بها أكثر من نفسه حتى، وشعر بالحقارة أن كيف حتى سولت له نفسه أن يشك في هذه الملاك.

وهكذا دفع خالد كل شكوكه السوداء عميقًا، وتسلح بتفاؤل كان يقوِّيه في نفسه كل لحظة، ومع جوعه الشديد، إلا أنه لم يشعر بأي رغبة في الأكل، اكتفى بتجرع كأس من الماء، ثم غادر المكتب وهو يكرر في نفسه أفكاره الإيجابية.

في المساء، جاهد خالد نفسه لكيلا تحس علياء بالحرب التي تطحن روحه منذ يومين، اعتذر منها على موقفه في الصباح، وهي بدورها لم تعِر الموضوع اهتمامًا كبيرًا وبذلت جهدها للتسرية عنه، وأعدت له عشاءً لذيذًا، ومع أنه كان جائعًا جدًّا، فإنه اكتفى بقطع بسيطة من الجزر، كان أضعف من أن يأكل، وبينما كان يراقبها وهي تتمتم أدعيتها على سجادة الصلاة، كان هاتف في نفسه يسأل، هل من الممكن أن تكون كاذبة فعلًا؟ هل من يصلي بكل هذا الخشوع يخون؟ هل من الممكن أن تكون هذه الملاك مجرد ممثلة؟ حسنًا، هو أيضًا ممثل بارع، وقد خانها عشرات المرات ولم

تحس بشيء، لكنه لا يصلي، ولا يعرف الله ولا الله يعرفه، لكنها مختلفة، فهل من الممكن أن تكون هي قد...؟

انتبه فجأة أن أفكاره السوداء قد عادت له، فطردها من رأسه فورًا «لا، هذا ليس ممكنًا، لا، مجرد كوابيس، مجرد كوابيس»، وغطى رأسه بلحافه كي يمنع نفسه عن التفكير، سينام، فقط سينام، ولأول مرة منذ وفاة أمه، وجد خالد نفسه يقرأ المعوذات قبل أن ينام.

* * * *

لو أن مصورًا ما احتاج إلى صورة تصف الرعب البشري بتفاصيله كافة، لما وجد شيئًا يصوره أفضل من وجه خالد اليبرودي عندما استيقظ في ذلك الصباح المشؤوم، لم يكن قد رأى نفس الحلم للمرة الثالثة فحسب، بل وكان أول شيء فتح عينيه عليه، هو زوجته وهي واقفة تتزين أمام المرآة، بفستانها الأزرق السماوي ذاته!

بينما كانت علياء تغادر الغرفة ذاهبة إلى عملها، كان خالد متسمرًا في سريره، فاقدًا لأي إحساس بساقيه، كل التماسك الذي بناه في نفسه بالأمس اختفى تاركًا في صدره فراغًا مرعبًا، لقد تحطم كل يقينه دفعة واحدة كلوح زجاج سقط على الأرض.

لم يعرف خالد أي شيء أنهضه من سريره وجعله يقود سيارته ويصل إلى مكتبه، كان عقله غائبًا تمامًا، وأحس أنه ممزق بالكلية من الداخل، جلده فقط هو الذي أبقاه قطعة واحدة، لكنه لم يكن غاضبًا أو حانقًا كما كان يريد أن يكون، كان مكسورًا فقط، وما إن أغلق باب مكتبه على نفسه حتى بدأ بالبكاء.

«ولك كلهن زي بعض! اوعى تصدق في ها الدنيا ست واحدة محترمة، كلهن قاريات عند نفس الشيخ اسمع من أبوك يا أهبل»، ربما كان أبوه على حق، لم يكن العيب في أبيه إذن، بل فيه هو، لم يكن يكره أباه بل يكره الحقيقة، حقيقة هذه الدنيا القذرة، ولماذا عليه أن يغضب؟ إنه ساذج، ساذج فقط، وها هو قد أصبح مثل أبيه، فلماذا يجب على علياء أن تكون

شيئًا مختلفًا؟ نعم، وغصب نفسه على ضحكة سخرية خرجت من بين دموعه، لا لن يبكي، ليواجه الحقائق، هو خان زوجته وهي خانته أيضًا، مؤلم لكنه حقيقي، لن يكون ساذجًا أكثر من ذلك ويبحث لها عن أعذار، لقد أمضى اليومين السابقين وهو يحاول إيجاد أعذار لها، لكن يبدو أن ذات الشعر الأحمر كانت على حق في النهاية، سيطلقها، نعم، سيطلقها، ومن الجيد أنهما لم ينجبا أطفالًا بعد، أي طفل هذا الذي كان سيولد لأم عاه---، لم يستطع نطق الجملة، وبدأ بالبكاء مرة أخرى.

الصورة المخزونة عن أم خالد في نفسه كانت صورة لشابة في الثلاثين، هكذا يتذكرها قبل أن تموت، وهو الآن أكبر منها عمرًا، لذلك كانت علياء دائمًا في نظره أمًّا له، فكيف للأم أن تخون؟ لماذا فعلتِ ذلك يا علياء؟ من أجل ماذا؟

لم يعرف خالد كم من الوقت مضى عليه وهو يبكي، لكن رسالة على هاتفه انتزعته من أحزانه، كانت من علياء نفسها، «حبيبي، أنا راح أتأخر شوي اليوم، عندي شغلة بدي أعملها ضروري، لا تستناني على الغدا، بحبك».

حاول اغتصاب ضحكة من شفتيه لكنها خرجت كتمتمة مقهورة، الكاذبة الساذجة، تظن أنه سيصدق أعذارها الرخيصة، لا شك أنها ستذهب لمقابلته، تلك نفس أعذاره عندما كان يذهب للقاء لُبنى، لكن لا، لن تهنأ بما تفعل، لن تنطلي حيلتها الصغيرة عليه، سيريها من هو خالد اليبرودي، هو من سيداهمها ويكشفها على حقيقتها، هذه العا... العاهرة! نعم عاهرة! «عاااااهرة»، صرخ في مكتبه بقوة وهو ينهض ويمسك مفاتيح سيارته ويردد، عاهرة! عاهرة!

* * * *

في تمام الثالثة عصرًا، كان خالد قد أمضى ثلاث ساعات كاملة وهو متوارٍ في سيارته مقابل البناية التي تعمل بها زوجته، منتظرًا بكل صبر أن تخرج، في تلك الساعات الثلاثة، كانت خيانة زوجته له هي كل ما يسيطر على عقله، لقد تغير العالم الذي كان يعرفه، كذبة، لقد هدمت وسرقت كل شيء، كل حياته عبارة عن كذبة، حتى ذكرياته الجميلة معها كلها كذب

وزيف وخداع، كيف كان بهذه السذاجة؟ كيف لم يلاحظ أي شيء عليها؟ كيف كان يفسر كل شيء لصالحها؟ لو قالت له إن الشمس ستشرق من المغرب لصدقها، فكيف كان ذلك؟ تلك العاهرة!

لاحت على شفتيه ابتسامة تشفٍّ وانتصار عندما شاهدها تخرج مع جمع الموظفين من بوابة المبنى، وردد لنفسه «ستتأخرين، ها؟»، وانتظر بصبر حتى ركبت في سيارتها وانطلقت، لم يكن بحاجة ليعرف أين تتجه، كان يعرف إلى أين ستذهب عن ظهر قلب، وفعلًا، عند كل منعطف تأخذه علياء كان قلبه يغوص بين جنبيه أكثر فأكثر، إلى أن توقفت سيارتها أخيرًا على بعد مائتي متر تقريبًا من بيت حازم الشاويش.

وقف هو على الجانب الآخر من الطريق كيلا تلاحظه، وبينما كانت تخرِج كيسًا ضخمًا من سيارتها، كان هو ينتظر بنفاد صبر أن تسمح إشارة المرور للمشاة بالعبور، «مع هدية أيضًا، محظوظ ذلك المسخ».

وأخيرًا توقفت السيارات وسُمِح للمشاة بالمرور، فعبر خالد الطريق بخطوات مسرعة، بينما علياء تمشي أمامه بثوبها الأزرق السماوي، مع كل خطوة كانت أنفاسه تزداد سرعة واحتراقًا، وكانت فخذاه ترتجفان كأسنان تصطك، صحيح أنه قرر ملاحقتها لكنه لم يقرر ماذا سيفعل بعد ذلك، هل سيمسكها وهي عند الباب؟ أم سيتركها حتى تدخل عند الرجل؟ لكن ماذا إذا... لاحت صورة في مخيلته لكنه لم يستطع رسمها، وأحس أنه يريد أن يتقيأ، لكن لم يكن في معدته شيء من يومين، فملأ قليل من الحمض فمه.

وعلى بعد عشرة أمتار فقط من بيت حازم، انعطفت علياء فجأة إلى اليمين، ودلفت عبر بوابة زرقاء صغيرة، لم يفهم خالد ماذا حدث، شُلَّ عقله فجأة، وقبل أن تستطيع عيناه قراءة اليافطة التي تعلو المبنى الذي دلفت إليه زوجته، «مبرَّة الأمل للأيتام» كانت أصوات الأطفال الصغار المرحبين بزوجته تصم أذنيه.

استند خالد بجسده إلى جدار قريب، ومن خلال السور الحديدي للمبرة كان يشاهد ما لم يتوقعه قط، ما إن عبرت زوجته تلك البوابة الزرقاء حاملة

معها ذلك الكيس الأزرق الكبير، حتى تقافز الأطفال الصغار حولها كما تتقافز البطات الصغار حول أمهم إذا عادت.

كانوا نحو عشرين طفلًا تتراوح أعمارهم بين الثالثة والسابعة، وبينما حملت علياء أصغرهم على ذراعها اليسرى وهو يقبِّلها دون توقف، كان بقية الأطفال يمسكون بساقيها ويحاول كلٌّ منهم أن يقبلها أو يحتضنها أو يقول لها شيئًا، وهي منحنية لتوزع الألعاب عليهم، وتقبِّل هذا وتكلم ذاك وهي في أقصى درجات السعادة.

* * * *

وكماء انزلق فجأة في فتحة مصرف، اختفت فجأة كل مشاعر الحنق والسخط والحقد التي ملأت صدر خالد اليبرودي في الأيام الأخيرة، بدا أن صدره قد فرغ من القطران فجأة، ثم ملأته ريح ثلجية أحس ببرودتها تسري في عروقه، لم يكن فعليًّا قادرًا على الوقوف، حالة غامرة من الفرح الشديد الذي هبط من السماء، كانت أنفاسه متلاحقة وسريعة وكأنه نجا من الموت، لم تسقط السماء فوق رأسه كما كان يعتقد، ما زالت زوجته هي زوجته، كما يعرفها، وما زال هو هو، وما زال العالم هو العالم، لم ينهَر العالم الذي يعرف كما كان يتهيأ له منذ دقائق! لم يتغير شيء! لم يتغير شيء!

كيف؟! كيف شك فيها أصلًا؟ يا له من أحمق كبير! يا له من أحمق! رؤيا، ها؟ وجد نفسه يضحك من سخافته، كيف لرجل خبير مثله أن يكذِّب عينيه وإحساسه ليصدق ترهات ذات الشعر الأحمر؟! ومن متى كان يصدق أولئك الذين يعيشون حياتهم داخل الكتب؟ وجد نفسه يضحك بهستيريا، إنه محظوظ بتلك الملاك، محظوظ فعلًا، لقد هزمت تلك القديسة كل الأفكار السيئة عن النساء، هزمت كل أولئك الأدباء والمخرجين والروائيين الذين لا يرون في النساء إلا عاهرات، تلك الصغيرة هزمت كل الأفكار السيئة في العالم وحدها، وهو والله أكثر فرحًا بها من أولئك الأطفال، سيفعل لها كل شيء، سيوافق على عملية الأنابيب التي اقترحتها، سيعطيها الطفل الذي أرادت، أو سيتبنى واحدًا، لا يهم، المهم أن تكون سعيدة، لكنه سعيد أكثر منها الآن، سعيد، سعيـــــــــد.

وبخفة طفل صغير، بدأ خالد اليبرودي يخطو عائدًا إلى سيارته، حتى إن خطواته كانت نقرًا على الأرض وكأنها رقصة الحياة، وقطع ممر المشاة عائدًا إلى سيارته وهو يتقافز بين الخطوط البيضاء والسوداء وكأنه يعزف على بيانو ضخم، ويلتف حول نفسه بجنون، كل شيء في الكون كان يعزف معه فرحته، الناس والسيارات والمباني وحتى الطيور، المدينة كلها كانت وكأنها أوركسترا عملاقة تعزف لحن انتصاره، لذلك لم يكن من السهل عليه في وسط كرنفال الفرح هذا أن ينتبه أنه كان يقطع ممر المشاة في الوقت الخطأ!

ربما سمع عقله الباطن بوق الشاحنة التي كانت تهدر مسرعة باتجاهه، ولعله ظنه جزءًا من الموسيقى، لكنه عندما نظر أخيرًا حيث كان يجب أن ينظر، كان الوقت قد تأخر لعمل أي شيء، كان مصباح الشاحنة الأمامي في مقابل وجهه تمامًا، ولم يكن يملك سوى أن يغمض عينيه.

* * * *

خمسة عشر عامًا مضت منذ طلاق جيهان الراوي بدعوى افتقارها للرومانسية، ومنذ ذلك الحين، وهي تستغل كل دقيقة من الساعات الثمانية التي تمضيها في المستشفى للتجسس على أي زوجين تأتي بهما الأقدار في طريقها، تراقب نظراتهما، انفعالاتهما، ما تقوله الأعين وما لا تقوله، تتأمل لحظات الضعف والقوة، لحظات الانكسار والبكاء، وتستمع -بينما تتظاهر بالانشغال بعملها- لكل كلمة أو همسة بينهما.

ولئن كان هذا الأمر في البداية محاولة لمعرفة تقصيرها أو مقارنة زواجها الفاشل بزواج الآخرين الناجح، فإنه استحال مع مرور الوقت هدفًا لذاته، وهوسًا صامتًا تستلذ به وتمضي به أيامها ولياليها الطويلة الوحيدة، لذلك لم يكن غريبًا قط أن يحصل خالد اليبرودي وعلياء على اهتمامها الكامل منذ اللحظة التي وصلوا بها إلى المستشفى.

كانت الساعة قد قاربت على الرابعة عصرًا، وكانت قد انتهت من دوامها للتو، عندما اندفع المسعفون وهم يجرون نقالة ملطخة بالدماء، مع النقالة كانت علياء، تركض مع الراكضين ممسكة بيد زوجها الغائب عن الوعي

وتصرخ كالمجنونة، بدا هذا مشهدًا معتادًا لجيهان، لكن شيئًا ما خفيًّا أجبرها أن تبقى.

منع الممرضون علياء من دخول غرفة العمليات، فراقبتها جيهان وهي تستند بظهرها إلى الجدار، ثم تنزلق على الأرض وتتكور على نفسها كجنين خائف، وهي تتلو بأنفاس متقطعة وسريعة دعوات غير مسموعة، مرت نصف ساعة محمومة، وعندما فُتح الباب أخيرًا، انتفضت علياء وكأنما مسَّها جان! خرج الطبيب بردائه الدامي وهو يطمئنها بيديه أن زوجها سيعيش، لكن بدا أن في عينيه كلامًا لم يقله بعد، لاح خيال ابتسامة خائفة على محياها، وانتظرت بصبر فارغ أن يكمل، تنهد الرجل ثم أخبرها بكلمات متقطعة أن قد تم إنقاذ حياة زوجها، لكن لم يكن هنالك مفر من بتر ساقيه!

تراجعت علياء خطوتين إلى الوراء، أغمضت عينيها بشدة، ثم دفنت رأسها بين راحتيها، حاولت أن تتماسك، لكن وعلى غير إرادة منها، بدأ جسدها كله يهتز، كان الألم أكبر من قدرتها على دفعه، توالى صوت بكائها وتعالى حتى أصبح عويلًا طويلًا ومنتظمًا، عند تلك اللحظة لم تستطع جيهان الراوي البقاء، صحيح أنها قد شاهدت الكثير من الحزن كممرضة، لكن عويل تلك الزوجة الشابة المتواصل، كان أقسى من أن يحتمله قلب إنسان.

*** *

ستون يومًا مضت منذ رأت جيهان الراوي خالد اليبرودي لأول مرة، لقد شاهدته في كل أحواله، كانت هناك عندما جيء به مضرجًا بدمائه، وكانت بقربه عندما أفاق من التخدير واكتشف فقدان ساقيه، هز صراخه المكلوم يومها جدران المستشفى، شاهدته وهو يضرب جسده بالسرير، وكأنما يحاول تخليق ساقيه من جديد، شاهدته وهو يشتم الممرضين، وهو ينتزع الإبر من يديه، وهو يقذف صينية الطعام إلى الأرض، وهو يمزق الشراشف ويحطم زجاجات الأدوية، وشاهدته أيضًا وهو يرتخي تحت تأثير المهدئات، ويجنح رويدًا رويدًا إلى الصمت والعزلة، مستسلمًا بواقعية محزنة لحقيقة حياته الجديدة، لكن لم تشاهده قط وهو يبكي، حتى جاء اليوم الذي كان عليها أن تودعه فيه.

أعدت له أوراق الخروج، وكيسًا من الأدوية، ثم حمله ممرضان شابان كطفل صغير، ووضعاه في كرسيه المتحرك الجديد فجلس فيه ساكنًا ينظر نحو النافذة، كان قد فقد ربع وزنه تقريبًا، غارت عيناه، وبرزت عظام وجنتيه، وحالت جروح في وجهه دون أن يتمكن من حلق لحيته، فطالت وغزاها الشيب، وبمقارنة صورته تلك مع الصورة التي أتى بها قبل شهرين فقط، بدا لجيهان أن شيئًا غامضًا قد امتص روح الرجل، كأنه أشبه بنسخة مجففة عن ذاته القديمة.

في تمام التاسعة، جاءت علياء لاصطحابه، كان قد نحل عودها هي الأخرى، وتركت ليالي الحزن الطويل هالات سوداء تحت عينيها، لكن ذلك لم يكن كافيًا لإخفاء جمالها، بدت لجيهان في فستانها الأزرق السماوي كملاك حزين مكسور الجناحين.

انزوت جيهان بعيدًا متظاهرة بتعقيم شيء ما لتترك للزوجين مساحتهما الخاصة، اقتربت علياء من كرسيه بهدوء، ركعت أمامه وكأنه إله، وبينما كان ينظر نحو النافذة، كانت أصابعها النحيلة تتخلل لحيته التي يملؤها الشيب، قرَّبت رأسها من رأسه، وبصوت تملؤه الدموع الباسمة قالت له إنها لطالما أحبته، تحبه، وستحبه دائمًا.

لم يبدُ لجيهان أن تلك الكلمات التي قالتها علياء عن حبها الأبدي لزوجها خارجة عن المألوف أو مبتكَرة، لكن رد فعل خالد هو الذي أثار دهشتها، بدا أن تلك الكلمات البسيطة عن حب زوجته الأبدي له قد اخترقت روحه كحربة! أدار رأسه باتجاهها، وشاهدته جيهان يبكي لأول مرة، لم يكن بكاؤه عاديًّا، بدا وكأنه بكاء شخص حُرم من البكاء لفترة طويلة، بكى وبكى وبكى لدرجة أن جيهان أحست بحرارة دموعه على خدها هي.

هذا هو الحب إذن؟ هذا هو الذي تمجده القصائد والأغاني؟ والذي اتُّهمت أنها لا تعرفه؟ وهل هذا هو ما يفعله الحب بالرجال؟ وهل كان زواجها سينجو لو أنها -في يوم ما- قالت لزوجها مثل تلك الكلمات البسيطة؟

مضت وهي تتساءل...

تمِّت

يدبِّر الأمر!

- لا تعزِل نفسك، ويجب عليك ألا تكره الناس، لا تفكر بهذه الطريقة، قد يكونون هم السبب في حزنك كما تقول، لكنهم أيضًا السبب في سعادتك.

- كيف ذلك؟

- فكِّر في كل الأشياء التي تؤمن أنها ستسعدك، ستجدها مرتبطة ببشر. الوظيفة التي تحلم بها، الاتصال الذي طال انتظاره، الفتاة التي ستتزوجها، أطفالك، عائلتك، كل شيء مفرح ممهور بتوقيع البشر، حتى النقود الصمَّاء، في جوهرها تمثل جهود الناس، ولا معنى لها دونهم.

- أين دور الله في هذا كله إذن؟ أليس له دور؟!

- بلى، هو من يحركهم باتجاهك.

إنَّ الأرض للّه

يعجبني (يدهشني/يسحرني) الله جدًّا حين ينسب الأرض لذاته، ساحبًا البساط من تحت أقدام الجميع، وهادمًا كل مفاهيم الوطن والوطنية بجملة واحدة «إن أرضي واسعة».

والجميل أنه وفِي الوقت ذاته الذي يهدم فيه هذا المفهوم الوثني الذي يقدس الجمادات، فإنه لا يترك المتلقي حائرًا أو فارغًا لثانية واحدة حتى، فيكمل بذات الإيجاز «فإياي فاعبدون»، معيدًا بوصلة الحياة البشرية باتجاه عنصرها الأساسي، ليس الأرض، بل من عليها؛ الإنسان، وحياة أفضل للإنسان.

وهذا لعمري لا يتأتى إلا من إله.

نحو إلحاد أكثر ذكاء... (مقال)

وسط ملايين الافتراضات التي يتجادل الناس حول صحتها ليلًا ونهارًا، تبرز حقيقتان واضحتان كالشمس، ولا يمكن لأي بشر ولا حتى حيوان حتى أن ينكرهما، ألا وهما الولادة والموت، الخلق والفناء، حول هاتين الحقيقتين الراسختين التي تؤمن بهما حتى كلاب الطرق وصراصير الحقول، طرح الجنس البشري ثلاثة أسئلة وجودية كبيرة.

السؤال الأول كان: كيف بدأ الخلق؟ من بدأ متوالية التكاثر هذه التي نراها اليوم؟ كيف بدأ كل شيء؟ السؤال الثاني: ماذا يحدث بعد الموت؟ كيف سينتهي هذا كله؟ أم أنه سيبقى بلا نهاية؟ والسؤال الثالث كان: لماذا؟ ما هي الحكمة من هذا كله؟ وما هو الدور المطلوب منا كبشر أن نلعبه؟

طبعًا من البَدَهي القول إنَّه من المستحيل على الإنسان أن يأتي بإجابة شافية عن هذه الأسئلة،ـ والسبب بكل بساطة أنها حدثت خارج مجاله الزمني، أي أننا لم نشهد بداية الكون لنعرف من أنشأه، ولم يعد أحد من الموت ليروي فيما إذا كان هنالك حياة بعد الموت أم لا، لكن وعلى الرغم من ذلك كان هنالك عدة تخمينات، فاليونانيون مثلًا آمنوا بآلهة متعددة تتحكم في الظواهر الطبيعية كالرعد والمطر وغيره، أما المصريون فربطوا الدين بالفلك، وهنالك من عبد الشمس وهنالك من عبد الحيوان، وهنالك من آمن فعلًا أن هذا الكون محمول على ظهر فيل أو قرن ثور.

بالنسبة إلينا في منطقتنا العربية، ففي يوم من أيام سنة 611 ميلادي خرج على الناس رجل من قبيلة قريش اسمه محمد بن عبد الله، يدَّعي أنه يملك إجابات مقنعة عن الأسئلة الثلاثة، فقال إنَّ من خلق الكون كله هو إله يتصف بصفات الكمال، وبدأ خلق البشر من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وأن مصير كل الناس بعد موتهم إلى يوم يبعث فيه الجميع ليحاسب كل شخص على أعماله، وأن الحكمة أو الدور الإنساني المطلوب هو العمل الصالح، أي باختصار كانت إجاباته: خلق فموت ويوم آخر يحكم مصير الإنسان فيه عمله السابق في الدنيا.

طبعًا محمد بن عبد الله لم يقل إن هذا النموذج التفسيري للعالم آتٍ من بنات أفكاره، بل قال بكل بساطة إنه مرسل من خالق هذا الكون نفسه، وأن الوسيط بينهما هو كائن نوراني اسمه جبريل يعمل عند هذا الإله وينقل لمحمد جملًا عربية محكمة الصياغة قال عنها محمد إنها آيات من القرآن الكريم الذي يمثل كلام الله، ومع أن أحدًا لم يشاهد جبريل هذا، لكن بدأ عدد من الناس بتبني الإجابات التي طرحها محمد، وبدت مقنعة جدًّا لهم.

هذا النموذج التفسيري للعالم كما طرحه محمد، والذي عُرف لاحقًا باسم الإسلام، كان الشيء الوحيد الذي دارت دعوة محمد حوله لمدة ثلاثة عشر عامًا، ثلاثة عشر عامًا لم يقل فيها محمد لأي شخص شيئًا عدا ذلك، لم يكن هنالك أي شعيرة من شعائر الإسلام التي نعرفها اليوم، لا صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج ولا مواريث ولا أي شيء آخر، كل ما كان يطلبه محمد من الناس أن يؤمنوا فقط بالتفسير الذي جاء به؛ خلق وبعث وعمل صالح، حتى إن كل آيات القرآن التي نزلت في تلك الفترة كانت تناقش الأمر نفسه، وتبتدئ على الغالب بجملة يا أيها الناس.

الحاصل أنه في مقابل الناس الذين آمنوا بإجابات محمد، هنالك ناس رفضوها، لم يقتنعوا بما قال، أو ببعض ما قال، فالبعض مثلًا اتفق مع محمد أن هذا الإله الذي تقول عنه هو من خلق الأرض والإنسان فعلًا،

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [آية 25، سورة لقمان]. لكنهم رفضوا فكرة البعث، وسخروا من فكرة الحياة بعد الموت ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [آية 29، سورة الأنعام]. لكنهم في كل الأحوال لم يناقشوا أي شيء آخر مع محمد، رفضوا أطروحته الأساسية وحسب.

بعد فترة من إيمان عدد معين من الناس بأطروحة محمد عن الخلق والبعث والعمل الصالح، وجدت قريش أن هؤلاء الناس تكاثروا وأن محمدًا بدأ يشكِّل تهديدًا حقيقيًّا عليهم فقرروا قتله، فما كان منه إلا أن أخذ أصحابه وهاجر من مكة إلى المدينة، لتبدأ المرحلة التفصيلية في الإسلام، أو في الأطروحة لنقل.

في المدينة، بدأ محمد يفصل ويوضح لأصحابه (المؤمنين به هنا) الجزء الثالث من أطروحته: العمل الصالح، فجاءت آيات القرآن كلها تفصيلية ودقيقة لأمور حياتية يعيشونها بشكل يومي، وبدأت معظم تلك الآيات بجملة «يا أيها الذين آمنوا»، فتكلم القرآن عن المال وأحكامه: حرَّم الربا وأكل مال اليتيم والسرقة وحث على الزكاة والصدقة وغيرها، ثم تحدث عن علاقة النساء بالرجال:

ففصَّل الزواج والطلاق والحشمة وغض البصر إلخ، ثم تحدث بتفصيل أيضًا عن الأخلاق الواجب التحلي بها: فنهى عن الحسد والغيرة والنميمة والغيبة والتجسس وفاحش القول وأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وطبعًا وضع قوانين تتعلق بالعقوبات، مثل القتل والجروح والزنا، كما سنَّ المواريث وحرم الخمر والخنزير وفرض الشعائر الفردية مثل الصلاة والصوم والحج.

باختصار، كانت المرحلة المدنية هي مرحلة تفصيل وتوضيح لفكرة العمل الصالح التي كان الصحابة الأوائل يجتهدون فيها، ويحكمهم فيها وازعهم الداخلي القوي دون نصوص محددة، واستمرت تلك التوضيحات

مدعمة بالآيات حتى توفي محمد بن عبد الله وبموته يمكن القول إن مشروعه كان قد اكتمل.

في ضوء ما سبق يمكننا الآن استيعاب عدة أمور، أولها أن الإسلام لا يقوم على المظاهر التي يبدو أنها ركائزه الأساسية، كالصلاة واللحية والحجاب وغيره، هذه أمور مهمة فعلًا، لكنها مجرد تفاصيل لفكرة العمل الصالح، الإسلام بشكل أساسي -وكما يجب أن يدرَّس للأطفال ويرسَّخ في العقول ويُشرَح للناس- هو أنموذج تفسيري للعالم، واقتنع به المسلمون -عقليًّا- عبر كلام نبيهم محمد، فيكون السؤال: هل هنالك أي دليل ملموس على صدق تلك الإجابات التي جاء بها محمد؟ الإجابة وبكل بساطة، لا، ليس هنالك أي دليل ملموس أو أنابيب اختبار تدل على صدق تلك الإجابات، لأنه كما سبق وقلنا إن تلك الأمور من بداية الخلق ونهاية الحياة هي أمور خارج نطاق الإنسان الزمني، إنما هو إيمان عقلي، إيمان بغيبيات، وهو الوصف الأول للمسلمين في القرآن، «يؤمنون بالغيب».

ولأنه إيمان غيبي فمن غير المعقول أن يأتي شخص ليحطَّ من قيمة العقل في الإسلام، لأن العقل كان هو الأداة الرئيسية التي خوطب الناس عبرها في بداية الأمر، ويخاطبون بها إلى الآن، ولأنه إيمان غيبي أيضًا، فليس من المنطق في شيء أن يتم إجبار الناس عليه، أو أن تُقطَع رؤوسهم في حال رفضوه، من شاء أن يقتنع بهذا النموذج فليقتنع، ومن لم يقنعه، فهو وما أراد.

الأمر الثاني الذي يمكن استنتاجه من هذا الطرح، أن مقولة تعارض الدين مع الإنسانية هي مقولة باطلة ومضحكة، لأن أحد ركائز الإسلام الثلاثة وعقد المسلم مع الله لدخول الجنة هو العمل الصالح، أي حسن التعامل مع البشر والحيوانات أو ما يُعرَف اليوم بالإنسانية، وهذا بالضبط ما فهمه صحابة محمد في بداية الإسلام، وقبل حتى أن يفرض عليهم أي شيء، بل إن عددًا منهم ماتوا في تلك الفترة وشهد لهم محمد بالجنة

دون أن يصلوا ركعة واحدة أو يصوموا نهارًا، كزوجته خديجة وآل ياسر وغيرهم، فبماذا وجبت لهم الجنة إلا بالإيمان العميق وحسن الخلق؟ ومن الجيد الكلام هنا، أن الفاتحة وهي السورة الأساسية التي لا تقوم الصلاة إلا بها، لم تكن قد نزلت بعد، ونزلت بعد الهجرة فقط.

أما الأمر الثالث والأهم، فهو أنني -وبكل أمانة- أطلب من الملحدين أن يكون لديهم نوع من الذكاء يساوي على الأقل ذكاء كفار قريش، فمن السخيف جدًّا أن تأتي لتقول إنني أرفض الإسلام لأن الرسول تزوج عشر نساء، أو لأن الإسلام يفرض الحجاب أو يقطع يد السارق.

ذاك أن الإسلام يا عزيزي الملحد -للمرة العاشرة- هو أنموذج تفسيري لحقائق الكون التي لا جدال عليها، فإن كان لديك نموذج تفسيري آخر مقنع ويفسر الموت والحياة وما بينهما، قله وسأكون أنا -كاتب هذه الكلمات- أول من يتبعك، أما إن كنت غير مؤمن بما يؤمن به الناس، وفي نفس الوقت لا بديل لديك، فما الداعي حقيقةً لتصديع رؤوسهم واستفزاز مشاعرهم ليلًا ونهارًا؟ ما الداعي لنقد تفاصيل التفاصيل من دينهم الذي من المفترض أنه لا يعنيك؟ ألا يمكنك أن تكون بمستوى كفار قريش الذين رفضوا أصل الأطروحة من الأصل، وأقاموا على متعتهم وحياتهم في اتساق كامل مع ما يؤمنون به؟

بمعنى آخر، إذا لم تقنعك آيات «يا أيها الناس» فلا تجادل في آيات «يا أيها الذين آمنوا»؛ هذه لم تُكتَب لك ولا تعنيك.

لا أجيد الغزل...

لا أجيد الغزل، ولا أعرف كيف أعوِجُ لساني وأنمِّق الكلمات كما يفعل الشعراء، أكره الورد، أنسى التواريخ، لا أحفظ الأغاني، وعلاقتي مع الهدايا مرتبكة ومشوَّشة...

كما أنني ملول غضوب متشائم، يتسرَّب مني الفرح كمنخل، وتعلق بي الأحزان كإسفنجة، وزاد الطين بلَّة أنني عشت في هذه اليباب القفار الموحشة، فإذا ما حدَّثتني عن جمال الغابة، حدَّثتك عن غلاء الأسعار، وإذا ما حاورتني عن ازدحام النجوم، شكوت لك من ازدحام المواصلات، ولا أرى في جمال الليل الذي تصفينه، سوى خيام اللجوء الباردة، ولا أسمع في هدوئه الذي يسحرُكِ إلَّا أنَّات المعتقلين، ثم أنني قد كبرت، وتركتْ رحلتي الطويلة وحمولتي الثقيلة آثارها عليَّ، ووهن العظم مني، واشتعل القلب قسوة وشيبًا، ولَم يعد في جعبة أيامي أكثر مما كان فيها.

وهكذا ترين يا سيِّدتي الجميلة أنه وعلى الرغم من فقري الشديد كعاشق، وعجزي الكامل عن فك رموز لغة الغرام، وحقيقة أنَّكِ ربَّما لو كنتِ قد أحببتِ لوحًا من رخام، لتكلَّم فيك أكثر مما فعلت، فإنه وكما الليلة الأولى التي جمعتنا، ما زال بإمكانك أن تنامي ليلك الطويل، آمنة مطمئنة، أن أحدًا لن يحتل مكانك في قلبي.

المنقطع والمستمر

من الآيات العظيمة جدًّا في كتاب الله آية ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [آية 35، سورة الزمر].

الآية لا تطرح فقط رؤية الله للإنسان بأنه يصيب ويخطئ، لكنها ومن طرف خفي أيضًا وعبر تغيير صيغ الفعل عمل بين الماضي المنقطع والمضارع المستمر، تطرح رؤية الله لمسار حياة الإنسان، أسوأ الذي عملوا أي أن الخطايا شيء طارئ عليهم، وأحسن الذي كانوا يعملون أي أن الغالب على حياتهم والذي يكررونه هو الخير.

وهذا هو الإنسان المؤمن الذي يرى الله أنه يستحق جنته، الإنسان الطبيعي صاحب التوجه الدائم نحو الخير، لكن تتخلل حياته سقطات منقطعة.

الخالدون (مقال)

ينقسم الإيمان بالله إلى جزأين أساسيين، الأول هو الإيمان المعرفي، والذي يختص بالإجابة عن أسئلة من قبيل: من خلق الكون؟ من هو الله؟ ما بعد الموت؟ الجنة، النار، الحساب. أي ببساطة، هو ما نعلِّمه لأطفالنا في المدارس، وهذا النوع من الإيمان نادرًا جدًّا ما يُستحضَر من وعينا، يبقى مدفونًا وكامنًا في دواخلنا كمسلمات، اللهم إلا إذا صادفنا رجلًا يقول إن الكون نشأ من ذيل سحلية أو رجل ضفدع.

الجزء الثاني من الإيمان، هو ما أسميه أنا الإيمان الوجودي أو الفلسفي، سمِّه ما شئت، لكنه يختص بالإجابة عن أسئلة أعمق قليلًا، مثل، لماذا تحدث الأشياء الجيدة للناس السيئين وتحدث الأشياء السيئة للناس الجيدين؟ لماذا لا يساعد الله أولياءه؟ لماذا لا يتدخل أمام كل تلك الحروب والمآسي وقتل الأطفال وخلافه؟ ما الحكمة هنا؟ ما الحكمة هناك؟ وتبقى الأسئلة تكبر وتكبر ككرة ثلج حتى تتركز في سؤال واحد ضخم، من الذي يدير الكون؟ الله أم الإنسان؟

هذا الجزء من إيماننا يُمتحَن بشكل يومي تقريبًا، وأكثر من يفكر فيه ويحاكمه، هم أناس يعتمد تقدم حياتهم على عوامل خارجة عن سيطرتهم، شاب مثلًا أنهى دراسته الجامعية ويطمح لأن يجد عملًا ويبدأ حياته العملية مثل الآخرين، لكنه كلما تقدم إلى وظيفة، يُرفَض أو يُهمَل أو يحصل عليها شخص آخر، هو درس وتعب وأدى ما عليه، لكن العقبة التي تقف أمام تقدم حياته، وتبدأ البطالة تأكل روحه، ليست في يده. أو فتاة، درست وتخرجت وتعمل ربما، وآن الأوان أن تتزوج وتشكِّل أسرة، لكن «جلب» هذا العريس ليس في يدها بالطبع! وتمر الأيام عليها ثقيلة وقاسية.

المشكلة الأساسية التي يعانيها هؤلاء الناس، خصوصًا لو كانوا ملتزمين دينيًّا، تكمن فيما أسميه أنا متوالية الأمل والخيبة، بمعنى، يزور أهلَ الفتاة عريسٌ طالبًا رؤيتها، فتبدأ ببناء آمال على هذا العريس، فلا يلبث أن ينسحب لسبب ما، مما يضعها في مربع الخيبة، شهر أو شهران، يأتي شاب آخر لرؤيتها، فأمل مرة أخرى، فخيبة، وهكذا دواليك، حتى يصاب الإنسان بكره عميق لمتوالية الأمل والخيبة هذه، والأمر نفسه طبعًا عند الشاب الباحث عن عمل، حيث يبني آمالًا عريضة على كل مقابلة عمل، ما تلبث أن تهدم...

متوالية الأمل والخيبة هذه، لديها القدرة على تحطيم يقين الإنسان، كما يحطم المد والجزر صخور الشاطئ، خصوصًا مع إيمان الإنسان أن الله هو من يدير الكون، ولو بشكل غير مباشر ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [آية 5، سورة السجدة]. وبالتالي، يبدأ الإنسان في مساءلة ربه بخجل، فيم أذنبت يا الله حتى تعسِّر حياتي بهذا الشكل؟ بينما حيوات الآخرين الأقل التزامًا مني ميسَّرة وهادئة؟ أنا والله يا ربي قد أحسنت، ألم تقل في كتابك هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ ألم تقل إن مع العسر يسرًا؟ أين إحسانك لي؟ أين يسرك؟ وهكذا دواليك... وتستمر هذه المتوالية في تحطيم يقين الإنسان حتى تخرجه عن دينه أو تكاد.

طبعًا هذا الكلام لا يمكن لشخص حياته مستقرة أن يتقبله، حتى لو كان رجل دين، لأن حياته مستقرة، وله زوجة وأطفال وراتب شهري، فما الداعي لمساءلة أقدار الله يعني؟ هنالك وسادة ناعمة تقف بينه وبين هذا الألم، وسادة يتكئ عليها، لذلك يكون هذا الكلام عند أصحابه حديث نفس، وإن تجرأ الإنسان وباح به لمقرب، أو عبَّر عنه مواربة لرجل دين، فسيحصل بالتأكيد على إحدى الحسنيين؛ إما تأنيب قاسي وأن هذا لا يصح من مؤمن، ولا يليق بمسلم، وأن عليه أن يسترجع ويستغفر ويتبَع السيئة الحسنة تمحها، وإما قد يصل إلى قذفه بالزندقة والإلحاد، فيعود المسكين بخفي حنين، وقد كسب ضيقًا فوق ضيق، وفؤاده فارغ كفؤاد أم موسى.

الغريب فعلًا أن الله -عز وجل- الذي يحذرك الناس من غضبه وسخطه إذا ما راودتك هذه الأفكار، ذكرها صراحة في كتابه في موضعين، الموضع

الأول، في سورة الأحزاب آية 10 و11، المتعلقة بغزوة الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

الظنون هنا على إطلاقها، وجُمِعت لاختلافها، أي بعضكم يظن أن الله سينصره، والبعض يظن عكس ذلك، والبعض يظن شيئًا آخر، موقف مهيب، ابتلاء عظيم، الأحزاب تحاصرهم من كل مكان، وبينهم وبين الموت شعرة، واليهود من خلفهم خانوهم، مجزرة مؤكدة، لا نجاة منها إلا بمعجزة، لكن بماذا وصف الله أولئك الذين جاءتهم تلك الظنون؟ المؤمنون.

الموضع الثاني وهو أشد وضوحًا وصراحة، والذين جاءتهم الظنون هنا ليسوا رجالًا عاديين، بل رسلًا، رسل قابلوا ملائكة، ماذا تقول الآية؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [آية 110، سورة يوسف]. رسل محاصرون ربما، مروا كما مررنا ونمرُّ بمتوالية الأمل والخيبة، حتى وصلوا لمرحلة الاستيئاس، وهو تكرار اليأس، وظنوا أنهم قد كُذِبوا، كُذِبوا هنا بكسر الذال فقط، على من يعود الفاعل فيها؟ هم ظنوا أنهم قد كذبوا، الحقيقة أن هذه الآية حاول بعض السلف قراءتها بتشديد الذال، أي كذَّبهم أقوامهم، والبعض قال «تفسيرها كما نخاف»، أي أن الرسل ظنوا بالفعل أن ما وعدهم الله كان -حاشاه- كذبًا.

رسل، شاهدوا الملائكة، ربما كان لهم كتب، ومع ذلك في لحظات الابتلاء، ظنوا أنهم قد كذِبوا، وأن كل ما وعدوه لن يتحقق، لماذا يقول الله لنا ذلك؟ ألا يقوله لنعلم أن خواطرنا هذه كبشر، مرت على قلوب أناس إيمانهم أقوى من إيماننا؟ هل هناك لطف من الله أكثر من ذلك؟ طمأنة على قلب المؤمن؟ إشعاره بأنني كإله أعلم بما تمر به، وانظر إلى من سبقك، مروا بنفس الشيء.

يصب في نفس هذا الموضوع ويحله فعليًّا، الحديث الأسطوري للرسول محمد -عليه السلام-، في يوم الطائف، رجل بلغ الخمسين من عمره، توفيت زوجته وابنتان ربما من بناته، توفي عمه داعمه الأول، قومه يكذبونه ويؤذونه ويقتلون من يؤمن به، لعشر سنوات متتالية، ويضعون حتى

أمعاء الجمال على رأسه، يخرج من قريته (مكة) إلى قرية أخرى (الطائف) لعل وعسى يحصل على بعض الدعم، وبعد عشرة أيام كاملة في الطائف، يُطرَد، ولا يكتفون بطرده، لكن يرسلون صِبيتهم وسفهاءهم ليضربوا هذا الرجل الخمسيني بالحجارة، على رأسه وظهره وكعبه الشريف حتى يسيل دمه، ويقول وقتها دعاءه الخالد: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس»، أليس هذا ما يشعر به الشاب اليائس الباحث عن عمل؟ الهوان على الناس؟ أليس هذا ما تشعر به الفتاة التي ترى كل من حولها تزوج بينما هي بقيت بلا رفيق؟ ضعف قوة؟ قلة حيلة؟ هوان؟

يكمل النبي -عليه السلام-، وهنا يشكو أقدار الله إليه: «إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟» تمامًا كما نشكو نحن، إلى أين تأخذني أقدارك يا الله؟ إلى من تكلني؟ لمَ تفعل بي ذلك؟ ثم يقول النبي نفسه، ما يحل عقدة نفسه وعقدتنا نحن أيضًا: «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي».

الصبر مفهوم جميل، لكنه ليس طيبًا كما يُشاع، الصبر شيء مرٌّ، لأن الصبر في جوهره هو قبول النفس بأذى غير مستحق وطويل الأمد، بمعنى، لا أحد يصبر على أن تجارته نجحت، أو أن أطفاله متفوقون، الصبر يكون على أذى، ولا أحد يصبر أنه رسب في امتحان لم يذهب إليه، لأنه استحق ذلك، ولا أحد يقول صبرت على زوجتي خمس دقائق لتحضر الغداء، الصبر مرتبط بوقت طويل، فهو إذًا قبول النفس بأذى غير مستحق وطويل الأمد، فعلت كل ما يمكن فعله، ولم تجازَ، وطال عليك الأمد حتى بدأت بالشك، هنا يبدأ صبرك، هنا يكون امتحانك المرُّ، هنا يردد الإنسان لنفسه ليقنعها: «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي»، وطبعًا ما قالها الرسول -عليه السلام- إلا لأنه فهِم حقيقة الصبر الخالدة، فهِم أن الصبر لا يكون إلا عندما نرى الأشياء بمنظور الله، عندما نقتنع يقينًا أننا مخلوقات خالدة، نعيش إلى الأبد، نرى الوقت كما يراه الله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [آية 6/7، سورة المعارج]. لذلك لا يتدخل الله، لأنه يراه قريبًا، ولذلك نغضب نحن، لأننا نراه بعيدًا، لكن متى ما تمكننا أن ننظر إلى الوقت

كما يراه الله، فسنصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ماذا تعني سنة وسنتان وعشرة في مسيرتنا الخالدة؟

في الفترة الماضية، عرفت من محيطي عن سيدة فاضلة، زوجة وأم وتعيش حياة هادئة ومستقرة مع زوجها وأطفالها، يميزها فقط عن الناس ربما أن القرآن كان عشقها الأول والأخير، قراءة وحفظًا وفهمًا، تشاء الأقدار أن تُبتَلى السيدة الفاضلة هذه بمصيبة كبيرة تزلزل كيانها كاملًا، وهي مظلومة فيها ولا ذنب لها من قريب أو من بعيد، لكن هذه المصيبة تقلب أركان حياتها، ولا تكاد تقف على قدميها منها، وتبدأ بلملمة شتات حياتها، حتى يتم تشخيصها بالسرطان في مرحلة متقدمة، تنتقل إلى المستشفى للعلاج، تاركة وراءها زوجها وأطفالها ومنهم رضيع.

بعد أشهر من الآلام والعلاج الكيماوي، يقرر الأطباء أن علاجها مستحيل، ويقررون إبقاءها فقط على المسكنات والمنومات لشدة الألم، يروي لي من زارها في أواخر الأمر، أنها هزلت ونزل وزنها إلى النصف تقريبًا، لدرجة أن من كان يعرفها طوال عمره لم يميزها عندما رآها، وأنها في شهرها الأخير، وفي الدقائق البسيطة التي كانت تفيق فيها، كانت لا تسأل عن زوج ولا عن ولد ولا عن أهل حتى، ولم يكن على لسانها سوى جملة واحدة: «اللهم لا تفتنِّي في ديني»، وظلت على ذلك حتى توفاها الله غير مفتونة.

لقد احتوى صدر تلك السيدة البسيطة على سر الإيمان العظيم الذي ضاقت به صدور صحابة ورسل من قبلها، عرفت ضعف نفسها بوضوح، وأدركت أن كل خسارة (بما فيها خسارة الروح) تهون أمام خسارة الإيمان، لذلك لم تهتم إلا بإيمانها، وكأنها كانت تقول لله خذ مني كل شيء وأبقِ معي إيماني بك، نفس كلام نبيها محمد: «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي».

اللهم اقبضنا على ما قبضت عليه تلك المرأة، وإن كنت قد كتبت علينا ضيقًا من ضيق الدنيا، فاكتب لنا معه سعة في الصبر، وإن كنت قد كتبت أن يُعطَى الناس بعد اليسر يسرين ونُعطَى نحن بعد العسر عسرين، فارزقنا إيمانًا يقوينا على ذلك، وثبتنا على ديننا حتى نلقاك، ولا إله إلا أنت، ولا إله إلا أنت.

من قصاصاتي (1)

- كلَّما نظرتُ إلى وجهك، تأكَّدت أن الله قد وضع اسمه على كلٍّ شيء، لأنني وبلا وعي مني، أبدأ فورًا بالتسبيح.
- عندما قيل لك ألَّا تثق بأحد، كان المعني بالتحديد ذلك الشخص الذي استثناهُ عقلُك من الجملة.
- الزواج اجتهاد، لكن الحب نفسه رزق، أي من السهل عليك أن تدخل مشروع الزواج وتدفع تكاليفه وتتحمل التزاماته، أو قد يكون صعبًا لكنه ممكن في النهاية، لكن ما احتمال أن تجد روحًا تتناغم مع روحك؟ روحًا تضحك لروحك؟ وتغنيك عن الدنيا وما فيها؟ لذلك ادعُ الله أن يرزقك الحبَّ، ويعينك على حمل الزواج.
- ما وقعت في مصيبة، صغيرة كانت أم كبيرة إِلَّا كنتَ أنت ملجئي الأول والأخير، وما أتاني من رزقٍ صغيرًا كان أم كبيرًا إلا نظرت إلى سمائك وابتسمت...

بهذا اليقين عاش عبدك يا الله، وعليه يموت بإذنك.

- علاقات الرجل المتعددة دلالة واضحة على نقص إحساسه برجولته، وحاجته الماسَّة والمتكررة إلى تأكيدها من أكثر من مصدر...

يحتاج إلى أصوات كثيرة خارجية لتعلو على الصوت الداخلي الذي لا ينفك يهمس في أذنه: «لستَ رجلًا بما فيه الكفاية».

- ربَّما من أجمل صفات الله -عز وجل- في نظري أنَّه لا يتغيَّر، الأول ليس قبله شيء، والآخر ليس بعده شيء، وعبر تلك الأبدية الطويلة

لا يتغيَّر، هو هو، بالأمس، واليوم، وبعد ألف عام، بإمكانك دائمًا أن تعود إليه فتجد أنَّ ما يحبُّه ذاته، وما يمقته ذاته، وما يدافع عنه ذاته.

- - هل لك سرٌّ عند الله؟

  - خطايا، أسراري خطايا.

- العتب ليس صابون القلوب، وإن كان فهو لمرَّات قليلة فقط ومتباعدة جدًّا، عدا ذلك فهو شيء منفِّر جدًّا، ولا أحد يمقت الناس صحبته ويرونها ثقيلة أكثر من المتعتِّب، الخلق الراجح هنا هو التغاضي، التعامي، وغضُّ النظر عن الصغائر، هكذا تزهر العلاقات وتستمر.



الحافة (قصة قصيرة)

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلًا عندما نهض من سريره، كانت زوجته قد غطت في نوم عميق ولم يعد بمقدوره أن يتظاهر بالنوم أكثر من ذلك، نزل عن السرير ببطء، حمل سجائره وهاتفه، وغادر الغرفة على أطراف أصابعه، وخطر له قبل أن يذهب إلى المطبخ أن يطمئن على أطفاله، كان الثلاثة نائمين كملائكة، لكن الصغيرة الشقية -كعادتها- كانت قد نزعت عن نفسها الغطاء، عدَّل الغطاء، وقبَّل جبينها الغض، وألقى عليهم ابتسامة راضية، وخرج.

على طاولة المطبخ كان هنالك بعض فتافيت الخبز ونصف تفاحة وسكِّين، أحسَّ ببعض الجوع، فكَّر في أن يأكل نصف التفاحة لكنه في النهاية اكتفى بشربة ماء، أشعل سيجارة، وبدأ ينفث منها بعض الدخان وهو ينظر ببلاهة إلى ما حوله، لماذا تستخدم زوجته هذه السكين لقطع التفاح؟ إنها حادة جدًّا، سيعاتبها غدًا، أي غد هذا؟ أراد أن يضحك ساخرًا من نفسه، لكنه لم يستطع...

لقد انتهى كل شيء إذن، بهذا البرود وهذا الهدوء، في الصبح سيتم اعتقاله، يعلم هذا يقينًا، ولا يعلم بالتحديد كم سنة سيلبث داخل السجن، عشرة عشرون؟ ربَّما، لا يعلم، لكن جريمة اختلاس بهذا الحجم ليست مزحة على أي حال، والأسوأ أنه لا يملك قرشًا واحدًا مما اختلسه، ابتلعت شاشات البورصة الرقمية كل شيء، كل شيء تحطَّم في لحظة عابرة، كل شيء تحطم في نزوة فاجرة.

أراد أن يضحك مرة أخرى على هذا الاقتباس السخيف، لكن لم يخرج من صدره سوى زفرة صغيرة، لا يستطيع حتى تخيُّل ماذا سيحدث، سينهار العالم غدًا صباحًا، كل شيء سيختلف، غدًا لن يكون هنا، سيكون في زنزانته، وهؤلاء الصغار ماذا سيحل بهم؟ زوجته؟ أمُّه؟ زملاؤه؟ بدا أن التخيل أسوأ من أن يتم التفكير فيه حتى، ارتشف رشفة ماء أخرى وفتح هاتفه الخلوي، لا يريد أن يفكر بشيء الآن، سيضيع، فقط سيضيع.

بعد فترة لا يدري كم هي من التصفح العشوائي وجد نفسه يتصفح حساب إحدى الفتيات على تويتر، أعجبته تغريدة ساخرة لها، لكن يبدو أنها لم تعجب أحدًا غيره، مع أنها مضحكة جدًّا! وجد هذا غريبًا فعلًا، تصفح الحساب أكثر، فعلًا لا أحد يتفاعل مع حساب الفتاة، نظر إلى صورتها، بدت طيبة وهادئة، معظم تغريداتها ساخرة، لكنها سخرية ذكية، إنه يعرف هذه النغمة، هذه الفتاة وحيدة، وحيدة جدًّا، يعرف ذلك جيدًا بخبرته، هو أيضًا كان يفعل ذلك عندما كان وحيدًا، قبل أن تصبح الوحدة آخر مشكلاته.

انتهى به الأمر يدقق في صورتها، ثم انتبه أن لديها ما يقرب من الألف متابع ولم يكلف أحد نفسه عناء أن يعلق على صورتها الجديدة، أو أن يضع عليها إعجابًا واحدًا، الأوغاد، ألا يعلمون ما يعني هذا الأمر لفتاة؟ إنها تريد أن تسمع منكم أنها جميلة، ولو كذبًا، أوغاد مراهقون سفلة، قرر هو أن يتصرف، لا بأس ببعض العبث في آخر ليالي الحرية، نسخ رابط حسابها على صراحة وبدأ في كتابة رسالة لها.

«مرحبًا، أنا معجب سري، سرِّي للغاية، زي يُسري فودة هيك، واليوم أول مرة بشوف حسابك، وأدهشتِني فعلًا، عندك حس سخرية ودعابة مش موجود حتى عند أدباء كبار، بتذكريني بهمبرت همبرت، بس أنا مش باعت لك عشان أنت ذكية، لا، أنا باعت لك لأنك حلوة، كثير حلوة يعني، وجذابة، وصدقي لولا أنا متزوج ومفلِّس كمان، كان ممكن أكون هلأ بتقاتل مع

أخوي ليش الكنافة ما كفت عند النسوان، بس للأسف ما بزبط، يعني حتى لو تخطينا موضوع إني متزوج، بظل موضوع إني مفلس، حتى كاندي ما بقدر أجيب لك، مش كنافة، أيوا اضحكي، ضحكتك حلوة، أصلًا على قد ما أنتِ حلوة، متخيل لو التقيت فيك فجأة هيك الدنيا تطلع قلوب حب وورد، ويطلعوا لنا هنود يرقصوا حوالينا.

مرة ثانية، أنا مش باعت الرسالة هاي عشان تضحكي بس، أنا باعت أقول لك إني فاهم إنه الدنيا ممكن تكون مظلمة، بس هذا هو قدر النجوم، إنهم يظلوا مضويين، شو ما كانت الدنيا حواليهم مظلمة، عشان بدي إياك تظلي دايمًا مضوية، زي نجمة بهالسما، ولما تتوجعي، اسخري من حالك ومن الأشياء زي همبرت، مين همبرت؟ هذا واجب عليك، لازم لحالك تعرفي مين هو، ولا بدك تتزوجيني بدون تعب؟ اتعبي شوي، داخلة بمجهودك أنتِ؟

اضحكي، وخليكِ مضوية، واعرفي إنه في ركن من هذا العالم البائس، في رجل شايفك قمر.

وحتى ألقاكِ مرة أخرى.

معجبك السري للغاية...

يسري فودة همبرت».

* * * *

تعبر الكاميرا المدينة، لتصل إلى شرفة لشقة على الطابق الرابع، حيث تجلس فتاة عشرينية على حافة الشرفة وتنظر نحو هاتفها بعينين ذبَّلهما البكاء، تضغط الفتاة على شاشة هاتفها بسرعة جنونية منتقلة بين تطبيق وآخر وهي تزفر بغضب، ثم تغلق الهاتف وتنظر نحو الأسفل، يلزمها فقط أن تميل إلى اليمين قليلًا لتسقط من هذا الارتفاع، تغمض عينيها، تأخذ نفسًا عميقًا، وتشد بعصبية على الهاتف بينما تبدأ بمَيْلِ جسدها قليلًا قليلًا

نحو اليمين، عندما يصدر الهاتف صوت رسالة، ترتكز بظهرها إلى الجدار مرة أخرى وتبدأ بتصفح الهاتف.

تبدأ بقراءة الرسالة، ورويدًا رويدًا تظهِر عيناها الباكيتان طيف ابتسامة، تتسع ابتسامتها لتصبح ضحكة بعد عدة ثوانٍ، تصمت، ثم تضحك مرة أخرى، لدرجة أنها كادت أن تفقد توازنها، تنزل عن حافة الشرفة، وتجلس على الأرض وتبدأ بقراءة الرسالة مرة أخرى، وهذه المرة تختلط دموعها بابتساماتها.

تدخل نحو غرفتها، تضع الهاتف جانبًا، تأخذ نفسًا عميقًا جدًّا، ثم تقفز فرِحة في فضاء الغرفة، قبل أن تقرر أن تأخذ حمامًا ساخنًا.

* * * *

تعود الكاميرا إلى المطبخ، حيث لا تزال هنالك فتافيت الخبز فوق الطاولة، ونصف التفاحة أيضًا، والهاتف والسجائر، لكن الرجل نفسه لم يعد جالسًا إلى الطاولة، كان ممددًا على الأرض شاخصًا ببصره إلى السماء، وبقربه السكين وقد تلطخت بالدم، ويبدو خط الدم ممتدًا من شرايين يده اليسرى حتى المصرف، مشكِّلًا في النهاية بركة كبيرة حمراء.

تمِّت

الوهم والحقيقة

يقف موسى -عليه السلام- على شاطئ البحر، وحوله آلاف مؤلفة من بني إسرائيل العبيد الضعفاء العزَّل، نساء وشيوخ وأطفال، لا حول لهم ولا قوة، ولا علم لهم بحرب أو بقتال، يضطربون، وتكاد تذهب عقولهم من الرعب، ينظر خلفه فيرى بحرًا واسعًا يبتلع كل من يفكر في عبوره، وينظر أمامه، فيرى جيش فرعون العرمرم وهو يقترب ويكاد يطبق عليه، يرى لمعان سيوفهم، يسمع صوت خيلهم وهي تنهب الأرض، ويكاد يلمس الموت الحتمي الذي يحيط به من كل جانب...

لكنه وبكل ثقة يقول: «كلا، إن معي ربي سيهدين»، عبقرية فذة من نبي، يرى أن كل أسباب الدنيا الملموسة التي تصوِّر له موته المحتم ليست إلا خيالًا، وأن ما لا يراه هو الحقيقة، وهو النجاة.

اللهم ارزقنا شجاعة ألا نخاف مما نرى، ثقة فيما لا نرى.

كل ما لدي...

لقد تأخرتِ يا صغيرتي الفاتنة عشرين عامًا عن موعدك، لم يعد هذا الجلمود الأصمُّ في صدري قادرًا على الحب، لم يعد يخفق أو يهتز أو يحركه شيء، مستلقٍ بين ضلوعي كخنزير ميت، بالكاد يقوم بضخ الدم، بل علي أن أبتلع بضعة أقراص كل يوم لأساعده على ذلك.

لكن عقلي لا يزال متقدًا كشهاب، ولم أخسر قدرتي على التمثيل بعد، لذلك ما زال بإمكاني أن أشعِرك أنني مهتم تمامًا بما تقولين، ما زلت قادرًا على الضحك على نكاتك السخيفة وكأنني أسمعها لأول مرة، والانبهار بألاعيبك الصغيرة التي تسلب اللب، وتصنُّع الدهشة عندما تسردين علي أفكارك التي نسيتها منذ زمان بعيد، بل وحتى يمكن للحزن أن يعتصرني على مآسيكِ التافهة، أي بإمكاني تمامًا أيتها الصغيرة أن أصنع لك العالم الذي ترغبين فيه.

هذا الضبع الأشيب الذي أمامك أيتها الغزالة البيضاء، ما زال قادرًا على تزييف كل شيء فيه؛ الحب، والشوق، والوله، والحكمة، والسعادة الغامرة بوجودك وكأنك الأنثى الوحيدة على الأرض، لكنك إن فتحتِ يومًا صدره، فلن تجدي سوى رغبته البدائية في الامتلاك، قابعةً هناك كوحشٍ متوثبٍ لم يأكل منذ ألف عام، هذا كل ما لديه.

فعل امتناع (مقال)

ما يدفعنا نحن كبشر إلى مغادرة بيوتنا صباحًا هو مبدأ بسيط جدًّا جدًّا، اسمه المزاحمة في الرزق، وهو تمامًا ما تفعله الدجاجات عندما تتزاحم لتلتقط حبوب الذرة من الأرض، والرزق الذي نسعى إليه كبشر، يمكن تكثيفه في ثلاثة أمور أساسية: سلامتنا الجسدية، وطعامنا الذي نأكله، والعائلة التي تحيط بنا. لا يوجد أحد على سطح هذه الأرض يبحث عن أكثر من ذلك، وهذا هو دافع البشرية الأكبر للنهوض من السرير صباحًا والبدء بالعمل؛ مزاحمة الآخرين على الرزق، أن ندفعهم ويدفعونا، ننافسهم وينافسونا، نريد الحصول على أفضل بيت، في أفضل موقع، نريد المنافسة على أكثر الوظائف دفعًا للمال، نريد كرجال أن نرتبط بأجمل فتاة ممكنة، ننافس الآخرين على حبها، ونريد كفتيات أن نحصل على أفضل رجل ممكن، نختطفه من بين أيدي الأخريات ليصبح ملكنا، لنا، هذه هي فكرة البشرية الكبرى ودافعها الأسمى للحركة، موارد قليلة، متاحة، لكن بحاجة إلى تدافع ومزاحمة، لا شيء سهل، لا بد أن نتزاحم! وبشكل يومي ودائم.

طبعًا فهمنا لمعنى الحياة بأنه مزاحمة في الرزق سيفتح أعيننا على أمور كثيرة جدًّا، من أهمها موضوع الأدوات، بمعنى أنه لكي تزاحم الناس في الرزق ينبغي أن يكون لك أدوات «مخالب»، تمكنك من انتزاع رزقك من بين ملايين الأيادي التي تنافسك، وهذه الأدوات ليست مقصودة لذاتها، بقدر ما هي مقصودة كونها أدوات، فالصحة مثلًا هي أداة، مخلب، فإن شئتُ أن أعمل فلا بد أن تكون صحتي جيدة، وإن شئتُ أن أحمي نفسي من الأذى، لا بد أن تكون صحتي جيدة، وبنياني جيدًا، والصحة الجيدة شيء ضروري لتقبل بي فتاة أحبها، الجمال أداة، لماذا تتزين الفتيات؟

أداة لتحصيل رزق الزوج والعائلة، لماذا نتعلم؟ أداة، لماذا نتعلم اللغات؟ أداة، لماذا نقرأ؟ لنفهم ونقوي أداة الوعي لدينا، لتحصيل الأرزاق بأنواعها، وقد تختلف الأدوات من شخص لآخر، لكن الأداة التي نملكها جميعًا هي الحركة الدائبة، السعي دائم وراء الرزق بأنواعه الثلاثة، وطبعًا من البَدَهي القول إن فكرة المزاحمة هذه مرهقة للإنسان، لذلك نحلم جميعًا بتقاعد مريح، والتقاعد هنا لا يعني إلا أن نستريح من عناء المزاحمة هذا.

نقطة أخرى تفهمها إذا ما أيقنت بحقيقة أن الحياة ما هي إلا مزاحمة في الرزق، هي أنك ستفهم لماذا تخيب مساعي الناس ذوي القلوب الرقيقة في الحياة، ولماذا ينتهي بهم المطاف عادة في خانة الخسارة، لأن فكرة المزاحمة تتطلب منك نوعًا من العنف التنافسي مع الناس، والذي قد يعده هؤلاء نوعًا من التعدي ويفضِّلون الابتعاد عنه، فينتهي بهم الأمر بعيدين عن مواطن الرزق، لأن الحياة لا تقبل الضعف، هذه مزاحمة، الدجاجة الضعيفة أو الخجولة لن تحصل على الحب، وستموت جوعًا، وسواء كانت مؤدبة أم غير مؤدبة، فاضلة أم غير فاضلة، لا بديل لديها عن أن تزاحم، لذلك عندما نربي أطفالنا يجب أن نزرع فيهم هذه الحقيقة، لن نربيهم على أنهم وحوش، سنربيهم أن يكونوا فاضلين، لكن يجب أن يفهموا هذا المبدأ، نحن نعيش في غابتنا الإنسانية الخاصة، حيث يجب علينا مزاحمة الآخرين.

الأمر الأهم حقيقةً من موضوع الأدوات وموضوع عنف الزحام، هو فكرة أنه إذا كانت هذه هي الحياة فعلًا، مزاحمة في الرزق، فأين هو دور الله إذن؟ وكيف يمكن للإسلام أن يكون ضامنًا لحياة جيدة للناس إذا كان كل ما يفعله الناس في حياتهم هو المزاحمة على الرزق؟ أو هل فعلًا نحن نحتاج إلى الإسلام؟ شعوب أخرى تعيش حياتها دونه، وسعداء جدًّا، هذا سؤال جوهري، وبحاجة إلى إجابة، لكن قبل الإجابة عنه بالإيجاب أو النفي، سنحاول العودة قليلًا في التاريخ...

القرآن الكريم بصفته النص التأسيسي في ديننا، جاء على هيئة سور متفرقة، البقرة وآل عمران ويوسف وغيرها، سور، كل منها تعالج عدة مواضيع وقصص، جوهرية فعلًا ومهمة، لكن لنقل إنها لم تأتِ بصورة

نقاط يمكن تعلمها واحدة تلو الأخرى، لذلك حاول علماء الإسلام أن يستنبطوا من هذا النص العظيم قواعد معينة، أن يقعِّدوه، فوقع اختيارهم على حديث، بُني الإسلام على خمس، إلى آخر الحديث، وبدأ تعليم الأطفال في المدارس أن أركان الإسلام هي الصلاة والصيام والحج وغيرها، وهذا ما أعده أنا شخصيًّا إحدى أكبر أخطائنا كمسلمين، طبعًا لا أشكك في الحديث ولا يعنيني، لكن توظيفه بهذه الطريقة كان برأيي خاطئًا جدًّا.

لأننا لو نظرنا إلى ما نفعله نحن، وحديث أركان الإسلام، لوجدنا أن سير الحياة نفسها والتزاحم في الرزق في جهة، وما نعتقد أنه الإسلام أو أركان الإسلام في جهة ثانية تمامًا، الصلاة والصيام والحج والزكاة أمور طيبة ورائعة، وتديُّن فردي وروحاني هائل، لكن الله لم ينزِل دينه كي نصلي في بيوتنا ونصوم، أنزل دينه لتحسين حياة الناس، فكيف نحل هذا التناقض؟ كيف تساعدني أعمال فردية مثل الصلاة والصيام والحج في مكة على أن أعيش حياة أفضل؟ لي ولمجتمعي؟

تناقضٌ احتجت حقيقةً إلى أربعين عامًا لأحله، والحل هو أن الإسلام لا يقوم على ما تفعله، بل على ما لا تفعله، هذا هو السر العظيم، في أثناء تزاحمنا كبشر، ولاختلاف أدواتنا، والتفاوت في قدراتنا، نلجأ بطبيعتنا البشرية لأن نتعدى على أرزاق الآخرين؛ على سلامتهم الجسدية، على عائلاتهم وأعراضهم، وعلى أموالهم، فالإسلام إذن هو ألا تدفعك حقيقة المزاحمة في الرزق وامتلاك أدوات أكثر من الناس إلى أن تعتدي عليهم، الإسلام فعل امتناع، الإسلام هو ألا تفعل، ألا تعتدي، ألا تظلم، أن تقاوم غريزتك في أخذ ما هو ليس لك، ولخصه لنا النبي العظيم -صلاة ربي وسلامه عليه- عندما وقف أمام الحجيج في يوم عرفة وكثَّف الإسلام كله في جملة واحدة عندما قال: «يا أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا، اللهم إني قد بلَّغت، اللهم فاشهد، اللهم إني قد بلَّغت اللهم فاشهد، اللهم إني قد بلغت، اللهم فاشهد»! تشهد على ماذا يا الله؟ على تبليغه للبِّ رسالة الإسلام، لأركان الإسلام الحقيقية، ألا تعتدي على دماء الناس ولا أموالهم ولا أعراضهم.

لكن لم يدرسنا أحد هذا الكلام في المدارس، لم يقل لنا الشيخ إن هذه هي أركان الإسلام، علَّمونا أن نصلي ونصوم ونلبس الحجاب ونقرأ الكهف في كل جمعة، هذه هي الأركان التي تعلمناها، وماذا كانت النتيجة؟ النتيجة أننا نصلي ونصوم فعلًا، لكننا نعتدي على بعضنا بعضًا، وبالمقابل يعتدَى علينا بشكل يومي، في أموالنا، وسلامتنا، وأجسادنا، مزاحمة غير عادلة في الرزق، غابة يأكل القوي فيها الضعيف، ونعود في آخر نهارنا المسموم لنصلي فرضنا ونقرأ وردنا، ونحن مهزومون ومقهورون وضائعون، ندعو الله أن يغير حالنا الذي تسببنا نحن به!

النتيجة لهذا الفهم المشوه والمحرَّف لرسالة الإسلام، أن مدينة كالقاهرة مثلًا، فيها عشرون مليون إنسان، يحلم كل واحد منهم بالذهاب إلى أوروبا أو أمريكا أو كندا وأن يستقر هناك، لماذا؟ لماذا يتركون مدينة الألف مسجد ويذهبون إلى الغرب؟ ليصلوا ويصوموا هناك؟ لا طبعًا، لكن لأن هنالك قانونًا أغنى الأوروبيين عن الإسلام، قانون يضمن لك ألا يعتدي أحد على سلامتك الجسدية (ولا النفسية بالطبع)، ولا يعتدي على عائلتك، ولا أموالك، قانون جعل أموال الناس ودماءهم وأعراضهم حرامًا، قانون خطبة حجة الوداع نفسه، الذي طبقوه فأصبحت بلادهم الملحدة جنانًا يتهافت عليها الناس، وأهملناه فأصبحت بلادنا (أم المساجد) خرائب قهر وظلم واستعباد، وصرنا نحن (خير أمة أُخرجَت للناس)، نرغب في الهروب من جلودنا والذهاب للعيش هناك.

مرة أخرى، ولتفادي الجدل، أرجو ألا يتم تحريف وجهة المقال، أنا لا أقلل من قيمة العبادات، لكنها فرع من أصل، والأصل هو التقوى كفعل امتناع، الأصل هو كبح جماح النفس، والابتعاد عن ظلم الناس في أثناء المزاحمة في الأرزاق، وما الصلاة والصيام والحج إلا أدوات فردية لتحقيق التقوى التي هي الأساس، أدوات للامتناع عن الفعل، (لعلكم تتقون)، هي فقط أدوات لتذكيرك أن لهؤلاء الذين تظلمهم ربًّا يعلم ماذا تصنع وسيعاقبك، فاذكر الله في كل شيء تصنعه، وهذا ليس كلامي بالمناسبة، هذا كلام الله –سبحانه– في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [آية 45، سورة العنكبوت].

التسويف

المهام التي تؤجلها، لا تتركها خلفك كما كنتَ تظن، في الواقع أنت تضعها أمامك، وتشعر بها كل يوم وهي تعوق سيرك وتنخز في جنبك، لكنك تتجاهل ذلك الشعور، وتظل تتجاهله حتى تتجمع كلها ككومة واحدة ضخمة ومعقدة، تسد طريقك كاملًا، منعتك أن تخطو مجرد خطوة واحدة نحو الأمام.

اجلس على الأرض، انظر لها جيدًا، فكِّكها، وقم بحلها واحدة تلو الأخرى، هذه هي الطريقة الوحيدة لإزالتها من طريقك، ومن عقلك، الهروب نحو الوراء لم يعد يفيد، ليس بعد الآن...

أين تذهب الكلمات؟

الملاحظات الجارحة التي تطلقونها على أشكال الناس وتعدونها نكات مضحكة وتزجية للوقت، لا تختفي في الهواء، ولن تختفي، إنها تذهب عميقًا في أرواحهم، إلى حيث لا يمكن لأحد انتزاعها، ولا فهم الأذى الذي تتسبب به، لكنهم -أي أولئك الناس- سيمضون حياتهم في وهم الصغار والضعة وانعدام الثقة بالنفس بسبب تلك الملاحظات، ولقد يبذل الواحد منهم جل ما يملك ليحاول تأكيد ذاته مرة أخرى، وانتزاع ذلك السم من دمه، لكن دون جدوى.

ومرة أخرى، فإن تلك الملاحظات الجارحة لن تبقى في صدره أو صدرها إلى الأبد، ستخرج عند الموت، وتنتظركم يوم الحساب الأكبر، لكنها -حينئذ- لن تكون ملاحظات جارحة أبدًا، بل خوازيق عملاقة، تدخل من أفواهكم وتخرج من أقفيتكم، في متوالية لا يعلم مداها إلا الله، ولا يوقفها إلا عندما يهدأ غضب المنتقم الجبار.

وانتظروا، إني معكم من المنتظرين...

الجمال الحقيقي (مقال)

كما الآخرين؛ تلفتُ الأجساد الجميلة انتباهي، وقد أدير عيني هنا أو هناك للحصول على نظرة أخرى، لكن هذا كل شيء، هذا أقصى ما يمكن لجسد ممشوق أن يفعله بي، فرجة عابرة سرعان ما تُطوَى في ثنايا الذاكرة كأن لم تكن.

أمَّا ما يعنيني في المرأة ويجذبني إليها فعلًا، وما لا يمكن لي أن أقاومه، فهو شيء غير ملموس، ولا يمكن تقعيده أو تشييئه، أو وصفه بعدة كلمات، هو شيء ما يتعلق بماهيَّة تلك المرأة؛ بذكائها، خفة روحها، الطريقة التي تتحدث بها، الثقة التي تفيض من عينيها، السحر الذي تنثره حولها حين تجلس أو تقوم أو تتحدث أو تبتسم، الألق الذي ينير المكان حين تدخل وينسحب حين تنسحب، هذا الحضور الطاغي هو الرمح الذي يخترق روحي من أقصاها إلى أقصاها، وهو السمُّ الذي لا شفاء منه، وهو الذي يعيد تعريف الجمال الأنثوي ويضيِّقه بحيث يصبح الجمال هو فقط ما هو مرتبط بها، والقبح هو كل ما ليس فيها.

تلك النوعية من النساء هي وحدها القادرة ليس على احتلال ذاكرتك وانتباهك فحسب، بل ومحو كل ما فيها من صور وأحداث وأمكنة وأزمنة، وكأنما وُلدتَ الآن، محولة كل الأشخاص الذين قابلْتَهم قبلها إلى صور باهتة وخيالات غير مكتملة، لا يمكن إعادة تشكيلها حتى، تلك النوعية من النساء هي التي يكفيها فقط حوار واحد معك، لتتركك مدفوعًا بقوة لا قِبَل لك بها إلى بذل الغالي والنفيس من أجل أن تلتقيها مرة أخرى، من أجل حوار بسيط معها، بضع جمل فقط، هي من تدفعك لاعتصار كل معرفتك

وآرائك، وتخطيط الكثير من الحوارات وتمثيلها فقط لتلفت انتباهها. هي من تنزع كل وقارك وحذرك وتدفعك بخفة طفولية لا تعهدها في نفسك، إلى تذكُّر وتنخيل كل النكت والقفشات التي تعرفها، لتختار منها واحدة تشاركها إياها، آملًا أن تظفر منها بضحكة بسيطة تزهر في قلبك إلى الأبد.

محروم فعلًا مَن أعمته مقاييس المجلات عن الجمال الحقيقي للبشر، رجالًا ونساءً.

من قصاصاتي (2)

- أعلم أنك تحبينني، لا أشكك في ذلك، لكنني أحتاج إلى هذا التأكيد العاطفي بين الفترة والأخرى، لنقُل مثلًا، مرة كل شهرين، أو ساعتين، أو نحو ذلك.
- فيما مضى، كنت أقول إنه لا يمكنك الحكم على الناس من أشكالهم، الآن أتراجع، هنالك شيء ما في الوجوه يكشف ما هم، لا تعرف كنهه، لكنه موجود.
- أعتقد أننا جميعًا -بشكل أو بآخر- نحاول جاهدين أن نطعِم وحشًا ما بداخلنا، تختلف طبيعة الوحوش ونوعية غذائها، لكن المشترك بينها أنها لا تشبع.
- ببطء لكن بثبات، وبنفس الطريقة التي يحوِّل بها الخريف شكل الغابة، حولتني آلاف التغييرات الصغيرة إلى شخص آخر.
- لم يحدث في حياتي أن تبت عن شيء ما، أو شُفيت من شيء ما، أو حتى نسيت شيئًا ما، أنا أدَّعي ذلك، وأفاخر به أحيانًا لكنه في الحقيقة كذب، خطاياي وظنوني وعاداتي وانحرافاتي كلها باقية وخالدة إلى الأبد، كامنة، صامتة، مختبئة خلف ستار العادي واليومي والمقبول وما يجب وما لا يجب.
- لقد فقد اهتمامه بكِ، لا تنظري إليَّ وكأن ذلك لم يكن ليحدث قط! الناس يفقدون اهتماماتهم ويخترعون اهتمامات بديلة، كل ساعة وكل يوم!

- أومن بقوة الإنسان وحيدًا، وأدرك أن الظروف لا تخدم الجميع، لكنني في الوقت ذاته أمقت كل محاولات تسخيف الحبِّ والحط من شأنه، لأن لا شيء (بمعنى لا شيء) يمكنه جعل الإنسان يتعايش مع هذه التعاسة المسماة «الحياة» مثل الحب. الحبُّ شيء رائع ولو لم نحصل عليه.
- لعل أجمل ما في الله هو أن الجميع بإمكانهم أن ينتسبوا إليه، وأن يحادثوه، ويجدوه في صدورهم، على الرغم من كل اختلافاتهم الجذرية، الملجأ الأخير لكل مأزوم، والصديق الوحيد للمحرومين، هذا هو الله...

لذلك الأصل في العلاقة بين الإنسان وربِّه أنها علاقة فردية، والإيمان فعل انعزال في الحقيقة، خيوط تواصل غير مرئيَّة بين الإنسان وخالقه، ووجود الرُّسل كان حلًّا تقنيًا فقط، لتبليغ الرسالة للفرد، لكن الأصل في العلاقة أنها فردية، ودون أي وسيط.

وهذا ما يفسر أن من العذاب الشديد في جهنم، أن يفقد الإنسان قدرته على التواصل مع الله، يخسر قدرته على استحضار الله في صدره، مما يضطر أهل النار أن يخاطبوا الملائكة: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [آية 77، سورة الزخرف].

- الكتابة في وسائل التواصل تشبه تمامًا أن تعلِّق ورقة على جدار في المدينة، ليست موجَّهة لشخص بعينه، ولا تعرف من يمكن أن يقرأها، للا أحد وللكل في الوقت نفسه.

الظل (قصة قصيرة)

تضع الفتاة ساقًا على ساق كاشفة عن جزء من ساقيها البيضاوين، تسحب نفسًا عميقًا من سيجارتها النحيفة، وتعدل شعرها قليلًا ثم تقول للشاب الذي يجلس مقابلها:

- هو شوف محمد، يعني أنا عادة مش من الناس اللي بطرحوا آراءهم بالعلن، مش لسبب، لكن لأني ما بتحمل إنه حدا يناقشني مناقشات غبية، وأنت عارف الناس هون كيف أغبياء وما بصدقوا على الله والواحد يحكي شي مش على مزاجهم، عشان فيه، والمشكلة ما بسكتوا، بظلوا كواك كواك لغاية ما يصدعوك! وأنا يعني واحدة أعصابي ما بتتحمل، وإذا صار وخضت نقاش زي هيك بلزمني بعدها يومين عزلة في المزرعة أسمع فيهم أغاني بس، لحتى أقدر أعمل ديتوكس لآذاني ودماغي من التلوث اللي بكون شفته وسمعته، فعشان هيك بضل ساكتة. بس بهاد الموضوع بالذات، ما بقدر أضل ساكتة، لأنه هاي أختي، واللي عم تعمله هبل مركَّب، يعني هي بتقول لك إنه مش ذنب روميو تبعها هاد إنه فقير، بس هاد خطأ، لأنه أول مسؤول عن الفقر هو الفقير نفسه، وأي محاولة عاطفية للتعمية على هاي الحقيقة بتضر ما بتنفع، يعني أنت بنفسك، روح شوفهم في المخيمات والقرى وعلب الصفيح اللي عايشين فيها، شو بتشوف؟ جهل وعنف وتحرش وقرف، وخلفة خلفة خلفة، لغاية ما تشك إنهم أرانب مو بشر، ولا متعلمين ولا معهم صنعة ولا شي، وما بأدوا

أي خدمة للمجتمع غير الشكونة، وغير إنهم يكرهوك لأنك أحسن منهم.

- بس حسب ما عرفت غادة إنه الشاب تبعها هاد متعلم.

- أهلين متعلم! شو يعني متعلم؟ شوف محمد، مهو كونه متعلم هاد جزء من المشكلة مش جزء من الحل، لأنه التعليم عند الفقرا عبارة عن أفيون، بعميهم عن جد، يعني بدخل الواحد فيهم أو الواحدة على الجامعة وهو ما في بجيبته يشتري سندويشة، وبظلوا أهله يتداينوا له من هون ومن هون، ليدفع هالرسوم سنة ورا سنة، وبتخرَّج قال، وبيجوا أهله بهالباص قال وبصيروا يرقصوا ويغنوا كأنهم فتحوا القسطنطينية، طيب انتو ياللي جايين ترقصوا، شو استفدتوا بهالأربع سنين؟ ممكن تقولوا لي؟ صار عندكم أرض من ورا تعليم النضوة ابنكم؟ لا، صار عندكم مزرعة؟ لأ، مصنع؟ لأ، شو تغير بحياتكم شي غير إنكم فقرتوا فوق من انتو فقرا؟ ولا شي، وهم بس، إبرة مورفين إنه ابننا هاد تعلم وراح يصير يكسب ويصير حالنا أحسن، مع إنه بواقع الحال لا راح يكسب ولا راح يصير حاله أحسن، ولا شي، هو كل الفرق إنه أبوه كان يوخد رغيفين، هو راح يصير يوخد ثلاثة، مش أكتر من هيك. ما أنت فكر فيها، التعليم أصلًا هو شو؟ من وين إجا يعني؟ التعليم يا محمد بدأ من الإقطاعيات، لما السيد الإقطاعي قرر -وهاد حقه- إنه خلص ما بده يتعامل مع الفلاحين بشكل مباشر، فشو الحل؟ بتجيب وسيط بينك وبينهم، واحد منهم، من الفلاحين نفسهم، بتوقفه قدامك هيك، بتغسله وبتنظفه وبتعلمه يحكي لغتك، وبتعطيه عصاية وبتحطه مرؤوس عليهم، مش هيك بدأ الموضوع؟ ولسه مستمر هيك، المهندس شو بالله غير مراقب على العمال لمصلحة رب العمل؟ المحاسب شو غير واحد أنت حاطه فوق روس العمال عشان ما يسرقوك؟ والدكتور عشان يعالجهم، والشرطي عشان يربيهم وهيك، يعني صحيح تغيرت الأشكال والأوجه، بس الأنماط نفسها، طبقة دنيا بتشتغل، وطبقة عليا بتملك،

وطبقة وسطى بتدير الأولى لحساب التانية. فعشان هيك بقول لك، إنه تعليم روميو تبعها هاد مشكلة، لأنه تعليمه هو اللي خدعه وخلاه يحس إنه كفء يجي يتقدم لأختي، ضحكت عليه الحكومة بالكرتونة اللي أعطوه إياها، وخلوه يحس إنه شي تاني غير اللي هو عليه فعليًّا، ويعني أنا بلوم الحكومة شوي هون، هم اللي عملوا هيك، إنه علموا شوي منهم، بس مش كلهم، مش هلقد، تعملوش فينا زي ما عمل عبد الناصر، بس هم من جهتهم، بقولوا لك احنا بلد ضعيف، وما في شغل، فبعلموهم لهالشباب، وقبل ما يتخرج الواحد فيهم، بطبعوا لي الفيزا على ضهره وبحطوه بأقرب طيارة، وعلى الخليج، بروح هناك، بشم نفسه، وبصير يتصور عند الأوتيلات اللي ما كان يحلم يمر جنبها، وعند البحر، وبصرف له شوي على البنات هناك يفك عقده، والباقي بحولهم لأهله هون، وأهله بعطوهم للحكومة، فالحكومة بتقول لك احنا هيك مستفيدين، وهم مستفيدين، وين وين ستيويشن يعني. بتصفي المشكلة لو هاد الشاب ما سافر، وظل عندك هون، بتكون شهادته عديمة القيمة هاي أعطته جرعة مورفين كبيرة، بحيث يصير يحس حاله شي كبير، وبتجرأ ويجي بخطب بنات الذوات، بينما أنت روح دور وراه وورا أهله، شو بتلاقي؟ زي ما قلت لك، علب صفيح، ويوم بوكلوا ويوم ما بوكلوا، ومرمطة بالمواصلات وشغل حقير، وأحياء وسخة ومقرفة كلها تحرش وأوباش وولاد صغار نوَر، والمصيبة الست هند مكيفة عليه، وبدها تجيب لنا إياه هو وأهله لعنا، وعلى بيتنا، تخيل! لا وشو كمان، بتقول لك، قال هو ملتزم، على أساس عنده خيار يعني، مهو الهبلة هاي أختي، ما حدا بحياته قال لها إنه التدين هو المورفين الأكبر اللي بتعاطوه هدول الناس، يعني أنت يا محمد، تخيل إنك عايش في هيك ظروف، تخيل بس، شو في نوع مخدرات ممكن تتعاطاه في آخر اليوم بحيث ينسيك همومك وفقرك وحقدك الطبقي على الناس، ووضعك اللي ما في منه أمل؟ هيروين؟ كوكايين؟ ولا بعملوا لك شي، بس قوم جرب صلي لك

ركعتين، وتخيل بعدها إنه راح يجي يوم وتصير زي هالناس اللي أنت بتحسدهم، بتتعافى تمامًا، لا ومن كتر المخدر، راح تصير تحمد ربك إنك فقير قال. وك يا محمد شو بدي أقول لك لأقول لك يا زلمة، قلبي قلبي مطفي منها الهبلة هاي هند، بس شو بدي أعمل؟ أختي...

* * * *

يصرخ المخرج فجأة، وهو يقترب من غادة التي لا تزال تجلس على الكرسي على خشبة المسرح:

- مذهلة مذهلة مذهلة! شيء فوق الوصف! أبدعتِ يا غادة، أبدعتِ، مشهد للتاريخ.

ترد غادة ببرود:

- شكرًا أستاذ، هذا من زوقك.

- لا لا، أنا فعلًا مصدوم، تقمصك للشخصية مذهل جدًّا، أنا متأكد إنه المسرحية هاي راح تكسر الدنيا!

- إن شاء الله يا رب، بعد إذنكم، بدي أغير.

تنهض غادة من مكانها، وتتجه خلف كواليس المسرح الفارغ، بينما يُسمع صوت المخرج:

- يلا يا جماعة، بكفي اليوم، تنسوش تتركوا الأواعي هون، ما حدا ياخذهم ويقول لي نسيت، وبكره كله يجي بكير، آخر بروفا عنا.

بينما ينشغل الجميع بترتيب خشبة المسرح، يبدو وكأن غادة عادت من خلف الكواليس، تقترب من المخرج وتقول بصوت خافت:

- أستاذ ماهر، بعد إذنك يعني، عايزتك في موضوع صغير.

- ولو غادة تفضلي.

وينتحي جانبًا بها.

- فيني آخذ سلفة بسيطة، على بال ما يبدأ العرض؟

- غادة غادة غادة، ما أنتِ عارفة إنه البروفات ما عليها شي، أنتِ بنت مبارح؟

- بعرف أستاذ بعرف، بس وضعي صعب شوي هاليومين، فقلت باخذ سلفة مقدمة، وبس يبدأ العرض اخصمهم من حسابي.

- يا ريت كنت بقدر يا غادة، ما أنتِ عارفة، إحنا قبل ما نبيع أي تذكرة ما معنا شي.

- مش مشكلة.

ترد غادة باستسلام قبل أن تتجه مرة أخرى خلف الكواليس.

* * * *

تظهر غادة في غرفة تغيير الملابس، ويبدو أنها قد نزعت فستانها الأسود القصير، وارتدت بنطالًا من الجينز فقط، وبلوزة سوداء اللون، وتقف أمام المرآة تمسح مكياجها، بقربها تمامًا تقف فتاة أخرى تمسح هي الأخرى المكياج بدورها، وتقول:

- غادة، حكى معي معين اليوم، عنده شغل لتسجيل صوتي في برنامج كرتون لشركة في دبي، وقال لي بتقدري أنتِ وغادة تشتغلوا فيه، شو رأيك؟

تنتهي غادة من نزع مكياجها، وتبدأ بتثبيت الحجاب وهي تقول:

- كرتون شو يعني؟ وقديش راح يدفع النصاب هاد؟

- ما بعرف، ما أعطاني تفاصيل، أحكي معه هلأ وتشوفي؟

- لا مها ما بدي، الوقت متأخر وأنا مستعجلة، لو تأخرت كمان شوي ما بلاقي سرفيس.

تنتهي من تثبيت حجابها، وتمسك شنطتها السوداء بيدها وتخرج.

- أوك حبيبتي بشوفك بكره، سلام.

- سلام.

* * * *

تظهر غادة وهي تمشي في شوارع المدينة بسرعة، تصل إلى موقف السرفيس، حيث تنتظر سيارة أجرة بيضاء، يقف السائق أمامها وهو يدخن، بينما يجلس رجل سمين في الكرسي الأمامي، وشابان في الخلف، ينظر السائق نحو غادة ويقول، مخيم؟

تهز غادة برأسها وتقترب من السيارة وهي تنظر نحو الراكب الأمامي منتظرة منه أن ينتقل إلى صف الكراسي الخلفية، لكنه ينظر باتجاهها مكفهرًا ويقول بلهجة قاسية:

- بتضايق ورا.

فلا تجد الفتاة بدًّا من الصعود بجانب الشابين.

تجوب السيارة الصغيرة الشارع الرئيسي في المدينة، قاربت الساعة العاشرة والنصف مساءً، ومعظم المحلات قد أقفلت، تنظر غادة نحو لوحة إعلانية كبيرة تقول «حقق حلمك»، فتتنهد ثم تبتسم بسخرية.

* * * * *

تظهر غادة وهي تمشي في أحد أزقة المخيم المعتمة، الزقاق خالٍ إلا من قطة تعبث بالقمامة ومجموعة من الشباب صغيري السن الذين يجلسون على قارعة الطريق يدخنون بعض السجائر، يهتف أحدهم لدى رؤيتها:

- ولك أيهم هاي صاحبتك إجت.

ينهض أيهم من فوق الرصيف بسرعة ويحوم حول نفسه منتظرًا مرور غادة التي تلاحظ فعلته.

- إيش يا قمر؟ بدك توصيلة يا كبدي؟ مش حرام القمر يطلع لحاله في الليل؟

تمضي غادة في طريقها غير عابئة بمعاكسات الشاب، بينما يحبس أصحابه ضحكاتهم، ويبدأ هو بالسير بمحاذاتها.

ببرود قاتل ودون أن تلتفت حتى، تشتم غادة الشاب بعورة أمه، وفي حين يقف متسمرًا مصعوقًا من هول ما سمع، ينفجر أصحابه في ضحك

هستيري، لدى وصولها آخر الزقاق، يتناهى إلى سمعها سباب الشاب لها ولأمها، بينما لا يزال أصحابه يضحكون.

* * * *

يفتح باب المنزل، وتدخل غادة التي يبدو عليها الإرهاق الشديد، تجد أمها مضطجعة على أريكة قديمة مهترئة، وتشاهد مسلسلًا تركيًّا على التلفاز.

- مسا الخير يما.

- مسا الخير حبيبتي الله يعطيك العافية.

تلقي غادة شنطتها السوداء فوق إحدى الأرائك، وتنزع حجابها بيدها اليسرى، وتسأل أمها التي لم تحرك عينيها عن المسلسل:

- في أكل يما؟

- آه يما، في مجدرة، هسه بحط لك.

- تغلبيش حالك يما، أنا بحط.

تلقي غادة بحجابها فوق شنطتها وتغيب في المطبخ، قبل أن تعود ممسكة صحن الطعام بيدها، والملعقة باليد الأخرى، وتجلس على أريكة جانبية، وتبدأ بتناول عشائها وهي تنظر نحو التلفاز.

- ما خلص أرطغرل هذا؟

- وهاي خلصت الحلقة، بس راحت عليك الحلقة اليوم، قطعوا راسه لكوبيك الكلب، يا الله شو انبسطت.

- منيح.

لا يبدو على غادة الكثير من الاهتمام بموضوع المسلسل، قبل أن تضيف وهي تأكل:

- قولي لي يما صح، دفعت ناريمان القسط اليوم؟

- آه الحمد لله يما دفعت، الله يسلمك.

- وطبعًا سامر ما حوَّل ولا قرش، صح؟ أخزقي عيني وقولي لي حوِّل.

- لا والله يما، مسكين يا عيني عليه، حكى معي اليوم، كان بده يحول، بس خاصمين الشركة عليه 2000 درهم! ويا دوب يلاقي مصروف، بس وعد الشهر الجاي يحول.

تضع غادة صحن الطعام على الطاولة الصغيرة أمامها قبل أن تقول بلهجة قاسية:

- هو يعني ابنك الحرامي هذا ما بده يبطل كذب؟ بموت يعني لو حول لإمه واخوانه قرشين؟ ولا فلبينيات دبي أولى منا؟

- أي فلبينيات يا غادة؟ أنتِ كل مرة بدك تفتحي هالسيرة؟ لا تظلميه لأخوكِ.

تقول غادة بغضب:

- أظلمه؟ أنتِ لسه مصدقة يما؟! مش ورجيتك صورة معها؟

- مرة يما، مرة كانت هاي زمان، وقال لي إنها هي اللي دارت وراه، وانتهى الموضوع، أخوك منيح يا غادة. لا تظلميه، بس وضعه صعب.

- آه منيح، ممتاز أخوي، داير في دبي على النسوان، وتارك خواته وإمه وأخوه الصغير يموتوا من الجوع وبتقولي لي منيح، لو كان عاطل شو كان عمل؟

- ما احنا مستورة معنا يما، مالنا احنا؟ مش ناقصنا إشي.

- آه يما مناح، مش ناقصنا شي، بنتك الكبيرة بتشتغل شغلتين، والصغيرة إلها سنتين في الجامعة بنفس اللبسة، ويوسف بروح وبيجي على المدرسة ما معه سندويشة، ومش ناقصنا شي، لا والله مش ناقصنا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، بتفرج يما بتفرج.

- بتفرج أكيد، أنا فايتة أنام يما، عندي سروة على الحضانة من الصبح، بدك شي؟

- لا حبيبتي سلامتك، تصبحي على خير، الله يحميك من شر خلقه يا رب.

تذهب غادة نحو غرفتها وتغلق الباب...

* * * *

تظهر غادة في غرفتها وقد خرجت من الحمام لتوِّها، وتلف منشفة بيضاء كبيرة حول جسدها، وأخرى أصغر حول رأسها، تقف أمام المرآة، تنظر نحو جسدها العاري، لقد بلغت الثلاثين، لكنه لا يزال غضًّا، تتنهد وتبدأ بارتداء ملابسها، تقترب من المرآة أكثر، وتلاحظ خطوطًا سوداء تحت عينيها، تبدو عيناها في غاية الذبول، تضع بعض الكريم المرطب حولهما، قبل أن تلبس يانس الصلاة، وتجلس على سجادتها لتصلي.

عشر دقائق تمر وهي مستغرقة في صلاتها تتمتم أدعيتها بهدوء وسكينة، تنهض أخيرًا، فتستقر في سريرها، تمسك هاتفها الخلوي، تضعه في الشاحن وتفتحه وهي مستلقية على ظهرها، وتبدأ بتصفح الفيس بوك، تمر مرورًا سريعًا على حائطها، دون أن تهتم بقراءة أي شي، فقط تقليب سريع للمستجدات، ثم تقف عند صورة لرجل يقف أمام سرير زوجته في المستشفى، ويبدو في الصورة طفل حديث الولادة مستقر على صدرها، والصورة معنوَنة بـ «حب عمري مع حب عمري، إنتاج سنة أولى حب».

تنظر غادة بحزن نحو الصورة، تحاول أن تزيحها من أمام عينيها لكنها لا تستطيع، تكبِّر الصورة بحيث يملأ وجه الشاب المبتسم شاشة الهاتف، تحدق إليها قليلًا قبل أن تنهمر الدموع من عينيها، تغلق الهاتف فجأة، وتضعه جانبًا قبل أن تضع اللحاف على رأسها مخفية نفسها تمامًا.

ويُسمَع صوت نحيب مكتوم...

تمَّت

الرحمة والمعرفة

لطالما أذهلتني الطريقة التي قدَّم الله لنا بها عبده الخضر -عليه السلام-: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [آية 65، سورة الكهف].

أعطاه الرحمة قبل أن يعطيه العلم، الماء قبل النار، كي لا يموت غضبًا وقهرًا، أي شيء يمكنه أن يحطم قلوبنا الهشة أكثر من المعرفة؟ من انطباع الحقائق في أذهاننا؟ من رؤية كل ما يدور حولنا من خبايا بوضوح تام؟ أي شيء أثقل في الروح من شفافية الرؤية؟ أي شيء قادر أن يمزق نياط هذا القلب أكثر من أن تعرف طبيعة البشر، ودوافعهم، وجشعهم، وشهواتهم، وتقديمهم مصالحهم على كل شيء آخر، والسواد الذي تخفيه ابتساماتهم؟ وأي أمنية أغلى عند الإنسان من ألا يعرف اليوم نصف ما يعرفه؟

هذا هو العلم الذي أُعطيَ الخضر، هذه هي النار التي أُلقيَت في صدره، ولكيلا يتحول إلى وحش، أعطاه الله رحمة خاصة من عنده، رحمة سبقت نار المعرفة.

الليل والنهار

كل شيء في النهار مصمَّم لخداعك، كل شيء يدفعك لتعتقد زورًا بأنك إنسان كامل، تجلس في المقهى فتأخذ كرسيًّا كاملًا لوحدك، ويحضِر لك النادل كوبًا كاملًا من القهوة، وقطعة كاملة من البسكويت، تصعد في الحافلة فتحتلُّ مقعدًا كاملًا، ثم تدخل مقرَّ الشركة فتجلس إلى مكتب كامل وحدك، ولَك هاتفك وجهازك الخاصَّان، كل شيء يتآمر ضدَّك ليعطيك الإحساس بأنك كلٌّ متكامل ومستقلٌّ.

وحده الليل يكشف لك الحقيقة، حقيقة أنك لست أكثر من نصف إنسان، وحده الليل من يشاهد تلك اللحظات الثقيلة والكثيفة التي تئن فيها روحك بحثًا عن نصفك الآخر، وحده من يخبرك بأن كل إنجازاتك هشة وبائسة وباهتة وباردة ومعدومة القيمة، وحده من يشاهدك تتقلب في سريرك مصارِعًا تلك الحاجة الهائلة إلى الالتحام بنصف آخر، متمنيًا أن تمسك بيديه، تسمع صدى اسمك من شفتيه، أو ترى انعكاس عينيك في عينيه...

وحده الليل من يخبرك بأن هذه الحياة معركة، ولا يمكن لجندي بذراع واحدة وساق واحدة وعين واحدة أن ينتصر، ثم تنام، هربًا من كلامه القاسي ومن سياط دقَّات الساعة، وتستيقظ، ليخدعك النهار مرَّة أخرى!

كيف خرجت من غيابة الجب...؟ (مقال)

قبل أي شيء، أود أن أوضِّح أنني من الأعداء اللدودين لفكرة إخراج المارد الكامن في داخلك، وتحضير التفاؤل من عدم كما تُحضَّر الأرواح، ولم أومن يومًا أن معرفة مصائب الآخرين تقلِّل من شعوري بمصائبي، أو أنه يمكنني أن أتجاهل ألم ضرسي الملتهب لأن لدي ثلاثين ضرسًا آخرين بحالة جيدة، ولم تقنعني الدعوات الفضفاضة والمطاطة حول أهمية العودة إلى الله كحل للاكتئاب، دون أي توضيح إضافي عن ماهية تلك العودة وكيف لها أن تساعدك، وأقول هذا طبعًا دون أن يمس ذلك من إيماني شيئًا.

بعد هذه المقدمة الضرورية، أكتب هنا اليوم عن تجربتي الشخصية البسيطة في الخروج من بئر الاكتئاب التي جلست فيها طويلًا، وكوني لست متخصصًا بعلم النفس، فبالتالي لا يمكن عد ما أكتبه هنا حلًّا علميًّا أو وصفة سحرية، بقدر ما هو تجربة شخصية قد تفيد شخصًا تشابه ظروفه ظروفي، وقد لا تفيده، لكنني أجد من الضروري نشرها، من أجل نفسي أولًا قبل أي شيء آخر.

موجة الاكتئاب هذه بدأت منذ عامين تقريبًا -وبالطبع سبقتها موجات أخرى- لكن هذه كانت الأعنف والأطول، ولتجنب الوقوع في فخ الاستعطاف والشخصنة، فلن أذكر تفاصيل شخصية عما أدى بي للدخول في هذه الأزمة، لكن يمكنني القول بشكل عام إن الأمر بدأ بخسارة شبيهة بالخسارات التي يتعرض لها الناس في حياتهم، الخسارة كانت كبيرة، وغادرة نوعًا ما، لكنها لم تكن كافية لتحطيمي، قلت لنفسي إن الإنسان

يجب عليه أن يستمر، ومكسب هنا يوازي خسارة هناك، وما إلى ذلك من الجمل التي نواسي بها أنفسنا لنكمل المسيرة، ومضيت في طريقي فعلًا، لكن مع حدوث مشكلة أخرى، اتضح لي كم النزيف الداخلي الذي تسببَتْ به خسارتي الأولى، كانت مناعتي ضد الألم قد تضررت كثيرًا، وتنامى الغضب في داخلي بطريقة لم يكن لي أن أتخيلها، لتتداعى بعدها الأمور كأحجار الدومينو، بحيث إن أصغر أمر يحدث كان يخرجني عن طوري تمامًا، وكما المخدر؛ بدأت أسير في الحياة بأعين زائغة، أنزف صبري وأعصابي يومًا بعد يوم، حتى أتت تلك اللحظة الفارقة، حين قصمت قشة صغيرة ظهر بعيري، ووجدتني أجلس صامتًا على الأرض، أحدق بكل بلاهة ولا مبالاة إلى مفاصل حياتي وهي تنهار مفصلًا تلو الآخر، فاقدًا الرغبة حتى في إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

التأثيرات النفسية طبعًا كانت عميقة جدًّا، عزلة وانعزال، غضب لا نهائي، شعور طاغ بالمظلومية، استعجال ليوم القيامة ووضع موازين القسط، كره عميق للبشرية جمعاء، وغيرها من الأفكار التي ملأتني تمامًا بحيث لم أستطع التفكير في أي شيء آخر، وعلى الرغم من مظهري الخارجي الهادئ، فإن آلاف الأصوات والأسئلة كانت تتردد بشكل دائم في داخلي، مقللة حجم تواصلي مع الناس إلى الحد الأدنى، بل ووصلت الأمور في النهاية إلى أنني أصبحت حتى عاجزًا عن إجراء حوار لأكثر من دقيقة مع أيٍّ كان، وفي أحيان كثيرة، عاجزًا عن سماع كلمة واحدة، وإذا ما أصر الشخص المقابل على قولها أنفجر في وجهه، وصارت الحياة ثقيلة جدًّا وكأنني أسبح داخل بركة لزجة من القطران، ناهيك طبعًا بالمحاولات الدائمة للهروب من العالم عبر النوم نهارًا والسهر ليلًا، والانعزال ما أمكن ذلك.

وإن جاز لي أن أصف ما حدث لي وقتها، فسأقول إنني كنت فعليًّا كمن سقط في بئر عميقة، لكن لا يراه الآخرون، بئر مظلمة عميقة ذات جدران أسطوانية ملساء، ويستحيل علي الخروج منها، لا فائدة أصلًا من محاولة

تسلق الجدران، وهذا كان أصعب ما يواجهني كشخص مكتئب، أن الآخرين لا يرون تلك البئر، يقولون لك بكل براءة: انهض، تحرك، اترك كل شيء وراء ظهرك، لكن أنت تعرف أنك مسجون داخل تلك البئر، وصحيح أن عضلاتك سليمة وتستطيع الحركة، لكن لا فائدة من المحاولة، وهذه هي المعضلة، ففي حين يظن الناس أنه بإمكانك الخروج، إلا أنك تعرف أنه لا يمكنك، دافعك للحياة قد مات، هذا الشيء اللامرئي بداخلك قد مات، ولا يمكنك التحكم به، حتى لو ظن كل من حولك عكس ذلك.

وتوالت الأيام والليالي، وأنا في ضيق شديد، منتظرًا شيئًا لا أعرف ما هو، كنت أعرف ما لا أريد، لكنني لا أعرف ماذا أريد، فقط انتظار أجوف واستعجال لطوي الأيام دون أي رؤية لما أنتظره من الغد، وتأثرت عائلتي أيما تأثر بهذا الأمر، لكنني كنت في عمى تام عن ذلك، أفكر في حزني فقط دون أي سبيل للخروج، وكانت القاصمة عندما طالعت ورقة واجب مدرسي يختص بالأدب كانت تحله ابنتي، كانت المعلمة قد طلبت منها أن تكتب مقدمة لقصة رعب، وكانت المقدمة التي كتبتْها عن فتاة في الثانية عشرة من عمرها، تجلس في سريرها ليلًا فتسمع صوت الباب يُفتَح، وتسمع خطوات أبيها، فتبدأ بالارتعاش في سريرها وهي تفكر في أي نسخة سترى من أبيها، ومع أنني لم أكن بذلك السوء الذي كانه ذلك الأب المتخيَّل، إلا أن مجرد انزياح تفكيرها نحو فكرة كهذه أرعبني كثيرًا.

أمضيت تلك الليلة جالسًا على شرفة منزلي، أدخن وأفكر فيما يحدث، وحدث أن كنت أتصفح شيئًا ما، فشاهدت فيديو لطيفًا لرب أسرة يقوم بملاعبة أطفاله وزوجته وهم في غاية السعادة، فيديو عادي جدًّا، وشاهدت مثله الكثير من قبل، لكن لسبب ما أعدت الفيديو أكثر من مرة، وبدأت أسأل نفسي، ما الذي يمنعني فعليًا من أن أكون مثل هذا الأب؟ من سلبني أنا وأطفالي الحق في أن نعيش لحظات مرحة وممتعة كهذه؟ وهنا فقط تغير كل شيء، وبدأت الأجوبة تتدفق في داخل رأسي كنهر.

لأنني اكتشفت حينها أن الاكتئاب -في جوهره- ما هو إلا انتصار لقيم الشر على قيم الخير، بمعنى أنني حين أحلت حياتي وحياة من حولي إلى توتر وقلق، فأنا فعليًّا قد أقررت أو استسلمت لحقيقة أن أولئك الذين آذوني قد انتصروا، وتمكنوا فعليًّا ليس فقط من تكبيدي تلك الخسارة الكبيرة، بل سلبوني حقي الأساسي في أن أعيش حياة مليئة بالمتعة والفرح، وهو حق ما كان لي أن أفرِّط به أبدًا، لا في حق نفسي ولا في حق عائلتي، حتى لو خسرت كل شيء، هذا جنون مطبق.

لم تتغير قناعاتي بشأن أولئك الذين سمموا حياتي، ما زلت أمقتهم بنفس المقدار، لكنني اقتنعت أن الخسارات تحدث، وهذا مفهوم، ومن أجل ذلك خلق الله الحزن، والمكاسب تحدث ومن أجل ذلك خلق الفرح، هذه هي المشاعر التي نعبِّر بها عن أنفسنا في المكسب والخسارة؛ فرح وحزن، لكن مهما كانت الخسارة كبيرة ودائمة، فالحزن يجب أن يظل شعورًا مؤقتًا، أي محددًا بوقت، أما أن أمد خط الحزن على استقامته كأنه شيء أبدي لا نهائي، وأحوِّله إلى ملاءة أغطي حياتي بها بدعوى أنني تعرضت للأذى، فهذا انتصار لأعدائي عليَّ، وسلب لحقي المقدس في أن أكون سعيدًا، وحق من حولي بالطبع في أن يعيشوا أيامهم بسعادة، وهذه هي أهم حقيقة يجب أن يعيها الإنسان عن ذاته، السعادة ليست ترفًا، إنها حق، وحق مقدس، هذا هو باب الخروج.

الشيء الآخر الذي تداعى في رأسي في تلك الليلة، هو أنني اكتشفت أنني فعلًا مررت بتجارب سيئة، لكن العالم السيئ الذي كنت أتكئ عليه في أثناء اكتئابي، لم يكن شيئًا حقيقيًّا بقدر ما هو تصور شخصي، وهذا تأصيل مهم للغاية، بمعنى أنني اكتشفت أن العالم ليس كتلة واحدة جامدة، ليس حقيقة مجردة لا جدال فيها، كالشمس التي نراها جميعًا تشرق في الصباح وتغيب في المساء، لا، العالم هو تصورنا عن العالم، فالعالم الذي يراه الطبيب، ليس هو العالم الذي يراه عامل التنظيف، وإن كانا يعملان في ذات المستشفى، المدينة التي يراها الغني مختلفة عن المدينة التي

يراها الفقير، الله الذي رآه أحد الصالحين مختلف عن الله الذي رآه ابن الفارض، فالمفاهيم في النهاية حتى لأشياء مادية، ما هي إلا تصورات شخصية لا أكثر.

من هنا اتضح لي أن العالم السيئ الذي نراه ليس في الحقيقة إلا صنيع أيدينا، هو تضخيم جائر لتجاربنا، بمعنى أننا قد نمر فعلًا بتجربة سيئة، لكن عندما نملأ حوائطنا على مواقع التواصل (كانعكاس لعوالمنا) بقصص حزينة مشابهة، فنحن هنا -وبشكل غير واعٍ- نشكِّل العالم الذي نعيش فيه، نختار ما يغيظنا في هذا العالم ونضعه أمامنا كصورة وحيدة ونهائية للعالم، ونقدِّمه كحقيقة لا جدال فيها، وكأننا -بلا وعي أيضًا- نحاول أن نبرر اكتئابنا بإلقاء اللوم على العالم كمكان سيئ، نحاول أن نقول للآخرين «نحن لسنا مكتئبين لأننا نود ذلك، لكن لأن العالم من حولنا يدعو لذلك، انظروا كم هو كئيب وحقير هذا العالم»، ناسين أو غير واعين أننا نحن من اخترنا أن نرى العالم من هذه الزاوية.

وهنا قررت أن أغيِّر فعلًا العالم الذي أراه، لن يكون مليئًا بالورود والموسيقى والشوكولا وشعر الغزل، لكنه لن يكون أيضًا تجميعًا لكل قصص الإحباط والموت والقهر البشري في مكان واحد، قررت أن أخلق نظرة متوازنة نحو العالم، بل ومائلة قليلًا أو كثيرًا نحو الفرح.

أمرٌ آخر جاب ذهني في تلك الليلة هو أن السكون يضخِّم الأحزان، بمعنى أن الضربة التي يتلقاها الإنسان وهو جالس في مكانه تؤلمه أكثر بكثير مما لو تلقاها وهو يركض مثلًا، السعي في الحياة وراء هدف ما والركض من شأنه فعلًا أن يخفف وقع معوقاتنا علينا، لو كان لدينا هدف ما، فسنتقبل كل أذى في سبيله بمعنويات أعلى، لأننا كبشر مخلوقون من ماء، والماء إذا جرى طَهُر، وإذا ركد أسن، أي أصبح آسنًا وفاسدًا، فجريان أرواحنا من شأنه فعلًا أن يغسلها ويطهرها، وقررت العودة لممارسة

نشاطاتي بالاستيقاظ مبكرًا، تفادي النوم في وسط النهار، المشي، ممارسة الرياضة، أي شيء من شأنه أن يحرك الماء الراكد في داخلي.

من الأمور التي يمكن أيضًا الحديث عنها هنا، أن أهم عوارض الاكتئاب ومضاعفاته في آنٍ واحد، هي أن يفقد الإنسان قدرته ورغبته في الاستمتاع باللذات الحسية، كالطعام والجنس والموسيقى وإلخ، الاكتئاب ينزع منك القدرة على الاستمتاع بهذه الأشياء التي خُلِقَت أصلًا لمتعتك، ويعطيك شعورًا زائفًا بالتعالي عليها، وكأنها أمور صغيرة وتافهة مقارنة بما تمر به، من أجل ذلك، أفضل ما يمكن فعله لدى الخروج من الاكتئاب هو العودة لممارسة تلك اللذات والاستمتاع بها حتى لو كان بالإجبار والتمثيل في بداية الأمر، يجب إعادة تفعيل أزرار الإحساس باللذة داخل ذواتنا، دهشتنا لدى رؤية شيء جميل، فرحتنا باقتناء شجرة صغيرة، استمتاعنا بوجبة من شرائح لحم العجل، الاستماع لأغنية جميلة في أثناء القيادة ليلًا، التسوق بلا هدف محدد وشراء تلك البشاكير المنمنمة الملونة والتحف الخشبية الصغيرة، تلك «الأشياء» أهم بكثير من «المفاهيم» التي نعظِّمها زورًا وبهتانًا، لأننا ما لم نفرح كالأطفال فلن نتمكن أبدًا من إكمال مسيرتنا كبالغين.

بقي أن أقول إن أهم شيء في وصف الاكتئاب بأنه بئر، هو أنه من الصعب جدًّا الخروج منه بلا مساعدة، من الصعب على إنسان أن يخرج من بئر ما لم يمد له أحدٌ يدًا أو حبلًا صغيرًا على الأقل، لا بد أن يكون هنالك في حياتك شخص تفرِحه رؤية ابتسامتك مرة أخرى، وجود هذا الشخص هو شيء أساسي وضروري في مرحلة الشفاء، لأن الشفاء من الاكتئاب لا يكون أبدًا دفعة واحدة، إخراج كل هذا الغضب لا يكون دفعة واحدة، والشفاء ليس محطة يقطعها الإنسان وينتهي منها، وليست فكرة يضعها الإنسان في بنك عقله ثم يعيش على فوائدها، لا، الشفاء من الاكتئاب معركة يومية، على الأقل حتى يشفَى ذلك الجزء غير المرئي في دواخلنا، ونستطيع أن نكون أنفسنا مرة أخرى.

في النهاية، هذه تجرِبتي الشخصية، وهذه هي القناعات والأفكار التي انتشلتني مما كنت فيه، وأحيانًا أتساءل، بما أنني كنت أعرف بعض هذه الأفكار مسبقًا، فلماذا استغرقت كل هذا الوقت للإيمان بجدواها؟ فيرد صوت ما في داخلي، ويقول إننا في أحيان كثيرة لا نؤمن بالفكرة في ذات اللحظة التي نسمعها فيها، تكون موجودة وقابعة في أدمغتنا، لكن شيئًا ما يمنعنا من الإيمان بها على الرغم من وجاهتها، يكون الأمر أشبه بقطعة معدنية تحاول الاستقرار في مكانها، لكن شيئًا ما خفيًّا يمنعها من ذلك، وفي لحظة ما، يختفي ذلك المانع لتسقط الفكرة بكل ثقلها في المكان المخصص لها، من أجل ذلك، ولتسقط تلك الفكرة في رأس شخص ما، كتبت هذا المقال.

الرضا والسخط

بإمكانك أن تقرأ عشرة آلاف كتاب في العلاقات الإنسانية، لكن لن يفيدك منها شيء قدر بيت شعر صغير للإمام للشافعي.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكنَّ عين السخط تبدي المساويا

مَن تمكن منه حبُّك فلن يغيره شيء، ولن يتركك ولو صرت عظمًا باليًا، ومن تمكَّن منه كرهك فلن يغفر لك «وجودك» حتى.

رُفِعت الأقلام وجفَّت الصحف...

وليل كموج البحر...

لقد شاهدت وقرأت وسمعت عن الكثير من أعمال الخير في حياتي، لكنني شخصيًّا لم أرَ فعل خير أكبر من أن تأخذ بيد إنسان وتخرجه من ضيقه وحزنه.

ما يبدو لك مفهومًا وبَدَهيًّا ومعلومًا بالضرورة هو ملغِز ومحيِّر ومؤلم للبعض الآخر، وما يبدو لك تافهًا وبسيطًا ولا يستحق، هُو همٌّ كبير ومحزن للآخرين، والمحطَّات التي قطعتها أنت بسلاسة ويسر، قد يعلق البعض فيها سنين عديدة، وكلٌّ يرى الأمور بعين تجربته.

صدق نيَّة واستعداد للاستماع وبعض الكلمات الطيبة والواعية، هي كل ما تحتاج إليه لفعل الخير هذا، لكن المقابل يكون عظيمًا جدًّا، أن تشفي صدر إنسان مما يحيك فيه وأن ترفع همَّه عنه، هو شيء دائم ولا يقدَّر بثمن، وخصوصًا تجاه أولئك الذين ما زالوا في مقتبل حياتهم، ويتحسسون خطاهم في هذا العالم الوعر.

ولإدراك شرف هذا الفعل، يكفيك أن تعرف أن الله نفسه قام بهذا تجاه أنبيائه، وهم من هم، وهنالك آيات كثيرة، بل وسور حتى، نزلت في القرآن الكريم لسبب واحد فقط، وهو رفع الحزن عن قلب النبي -عليه الصلاة والسلام-.

حتى لو كنتَ غارقًا في أحزانك، حاول أن تنتشل الآخرين.

كلٌّ يرى الناس بعين طبعه (مقال)

واحدة من أغرب الحِكم التي نمر عليها مرور الكرام في حياتنا، دون أن نعي ماهيتها الحقيقية، هي الحكمة التي تقول «كلٌّ يرى الناس بعين طبعه».

للتوضيح، لنفترض أنك تعمل في شركة ما، وحدث هنالك نقص مالي في الخزينة، وبدأت تظهر أقاويل بأن المحاسب قد يكون اختلس هذه النقود الناقصة، لكن لم يثبت شيء كون التحقيق لا يزال جاريًا ولم يتحدد فيما إذا كان الرجل مذنبًا أم لا، هنا لو مالت نفسك إلى فكرة أن المحاسب قد اختلس فعلًا، فهذا لا يعني إلا أنك لو كنتَ في مكانه لاختلست، ولو مالت نفسك لتبرئته، فهذا يعني أنك لو كنتَ مكانه لما اختلست.

وأيضًا لو حدث أن رأيت شابًّا وفتاة في موقف توحي حيثياته بوجود علاقة آثمة بينهما، لكن دون تأكيد، أي أن الموقف يحتمل تفسيرين متضادين، فمرة أخرى، ما سيترجح في رأسك والظن الذي سيغلب هو بالضبط ما كنت أنت ستفعله لو كنت في ذات الموقف، فلو برَّأتهم فأنت بريء، ولو أدنتهم فأنت مدان.

من هنا كان التعبير القرآني في حادثة الإفك عبقريًّا فعلًا، قال تعالى وقتها: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [آية 12، سورة النور]، ولم يقل ظنوا بإخوانهم خيرًا، وكأن الله يؤكد لنا أن ما نظنه في الآخرين ليس في الحقيقة سوى ظننا بأنفسنا، وأن ما يحدث خارج ذواتنا ليس سوى انعكاس لما يحدث داخلها، وهذا بالضبط ما يثبته لنا

الأطفال حين يفسرون أسوأ المواقف بحسن نية وطيبة وبراءة، لأنه لا يوجد في داخلهم إلا ذلك.

من أجل ذلك، فالخير الذي تتوسمه في الآخرين ليس غباءً أو سذاجة، بقدر ما هو خير مزروع في داخلك، والشر الذي تقذف به الناس لتتمايز زورًا عنهم، قد لا يكون في الحقيقة إلا نتاجَ قبيحِ أفعالك أنت، وكلٌّ يرى الناس بعين طبعه.

من قصاصاتي (3)

- المشاعر تنتقل عبر الأسلاك، كل محاولات التسخيف من هذه الحقيقة لا تزيدها إلا رسوخًا.
- وفي ظل كل تلك الصوابية المقيتة، كان يضم معطفه ليحمي ذلك الجزء الوحشي الباقي في روحه، الجزء البدائي العنيف الذي لا يعبد إلا الرغبة.
- «أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه»، الواو هنا تبين أن الأمرين منفصلان تمامًا. رؤية الحق شيء، واتباعه شيء آخر، فوق هذه الواو، نجلس!
- لتفهم سر حضور شخصية معينة في رواية، يجب أن تكمل القراءة حتى النهاية، نفس الشيء في حياتك، لن تفهم سر حضور الأشخاص إلا في النهاية، لكنهم أتوا لسبب، وغادروا لسبب، كن واثقًا من ذلك.
- وفي ظل هذا التيه، نلجأ لله تارة، وللمحبوب تارة أخرى، باحثين عن الوجود والمعنى، عن صوت يهدئ روع قلوبنا، يقول لنا إننا سنكون بخير.
- العالم ليس مكانًا قبيحًا، وليس كل الناس أشرارًا بالطبع، لكن شخصًا واحدًا فقط، وفي ظروف طبيعية، وعبر تصرفاته اليومية، يستطيع أن يدمِّر مزاج أكثر من عشرين شخصًا في يوم واحد.

نسبة واحد إلى عشرين هذه، تكفي فعليًّا لجعل العالم مكانًا سيئًا جدًّا ولا يُطاق.

- الكل ينتقد المرأة العاملة والخادمات والأطفال المنسيين، لكن عندما تُفرَض الضرائب التي تجعل حتى راتب الزوجين لا يكفي للمعيشة، يبتلع الكل لسانه!
- وسبق علمه سبحانه بثقل هذا الزمان علينا، فقسَّمه إلى ليالٍ وأيام، وصحو ونوم، فصار أخف علينا أن نعيشه مجزَّءًا، وهذه هي معجزة توالي الليل والنهار.
- ومن علامات الحبيب، أنه ذلك الشخص الذي إذا ما انتهى لقاؤك به، تحس أنك كنت خارج العالم، ورجعت.
- يعشق الإنسان عمره عندما يكتشف اللوحة التي أرسله الله ليرسمها، فيدعو الله أن يهديه لألوانها وتفاصيلها، وأن يمد في عمره حتى يكملها.
- حقيقة أنه انتهى، لا تنفي أنه كان جميلًا.
- بنفس القدر الذي يمكن للحب فيه أن يجعلك سعيدًا، يمكنه أيضًا أن يجعلك هشًّا ونزقًا ومرتهنًا وبائسًا وقابلًا للكسر.

المواجع (قصة قصيرة)

يفتح باب المنزل الحديدي باتجاه ردهة صغيرة مبلطة تتوسطها شجرة تين صغيرة، يخرج الزوج الأربعيني مرتديًا «دشداشًا» مقلَّمًا ويضع على رأسه طاقية بيضاء، بينما تتبعه زوجته في رداء بيتي أسود تتناثر عليه بعض الورود الصفراء، ممسكة في يدها صينية نحاسية اللون، عليها إبريق شاي أصفر قديم وكأسان زجاجيتان.

يسحب الرجل كرسيًّا ذا أقدام معدنية ومقعدة مصنوعة من الخيوط المشدودة الملونة، يضعه لزوجته لتجلس عليه ويجلس هو على كرسي مشابه، تسكب الزوجة لزوجها كأسًا من الشاي الساخن، قبل أن تبادر زوجها بالسؤال:

- عبد، راجعت للبنت درس الزكاة قبل ما تنام؟

يحتسي الرجل رشفته الأولى من الشاي، ويرد بلا مبالاة، ودون حتى أن ينظر إليها:

- ولا راجعت لها ولا راجعت لي.

تسحب الزوجة ظهرها للخلف باستنكار.

- ليش يا زلمة؟ حرام عليك، البنت بكره عندها امتحان.

يكمل بذات اللامبالاة:

- ولا حرام ولا شي، بالله شو بدها تستفيد من درس الزكاة العظيم يعني؟ عن جد يعني عن جد، إحنا الفقرا ليش بدرسونا الشغلات

هاي؟ زكاة أموال وزكاة زرع وزكاة ذهب ومش عارف شو، شو دخلنا إحنا بالقصص هاي؟

- لا بالله؟

- آه والله، ملناش دخل، يعني بتعرفي، بتذكر حالي زمان أيام المدرسة، في الوكالة، كنا شحادين صغار، الواحد فينا يا دوب طوله متر، وعظامه طالعة من الجوع، وما باخد الشلن من أبوه إلا بألف يا ويلاه، ويجينا الأستاذ من كل عقله، بسأل فينا بكل جدية، إذا كان عندك يا ولد ألف غنمة وخمسين ألف دينار وقطعتين أرض، وحال الحول فكم مقدار مش عارف شو؟ هاذ سؤال تسأله لولاد المخيم ياللي ما تخاف من ربك؟ حول شو هذا اللي بده يحول الله يرحم والديك، وهاي صار عمري أربعين سنة، عمرك شفتيني يا غادة، حال علي الشهر حتى، مش الحول، وفي بجيبتي خمس ليرات؟ بلاش يا ستي، مرت علي سنة من هالسنين الأربعين العجاف هذول وما كنتش مديون فيها؟ وك أصلا أنا بقدرش أتخيل تخيل، إنه حدا يظلوا معه مصاري لمدة سنة وما يصرف منهم شي، والله بخيالي ما بتزبط حتى، لشو كانوا يعلمونا الشغلات هاي لكان؟ وبقول لك ذهب، وزكاة الذهب، أي أنتِ عارفة إني بحياتي ما لمست الذهب بإيدي؟ والله جد، بعرفش كيف ملمسه، شفته كثير على الفاترينات وفي التلفزيون، بس ما لمسته، أقرب مرة كنت فيها على وشك أمسكه، لما الكرنيبة هاي ستي عريفة ماتت، كانت الشريرة عندها ناب ذهب كبير، يظل يلمع هيك تحت الضو، يوم ما ماتت، قلت خلص، فرصة عمرك واجتك يا ولد، راح ألمسه، وليش ألمسه بس؟ لا، بدي آخذه أبيعه كمان، وظليت أربع ساعات أحوم حواليها زي الذيب، مستني الفرصة المناسبة للانقضاض، بس أبوي الله يرحمه ما قامش من عندها، ظل مرابط عند الجثة زي الأسد، وعامل حاله بعيط قال، والله شكله هو الثاني كان حاط عينه عليه، ويمكن فكه من ثمها قبل ما تموت، شو

بعرفني، ولا الحج، أحلى شي درس الحج، كنا نحط برميل كبير في الساحة، ونقعد كلنا نلف حواليه، قال يعني هذا البرميل هو الكعبة، ويجي الأستاذ عزمي يوقفنا كلنا عشان نسمِّع له الشعائر، ونصير نردد وراه بصوت عسكري، وقفة عرفة، ثم نبيت في مزدلفة، كان عامل لنا إياها أغنية. الله يرحمه كان حافظ شعائر الحج زي اسمه، تقولي مولود بمكة، وهو مسكين بحياته مش بس ما حج، ما طلع من المخيم أساسًا، كان ساكن جنب المدرسة، ويوم الجمعة يروح يزور بنته في الحارة التحتا، وهاي هي حياته كلها، أبعد مشوار راحه بحياته مقبرة سحاب، لما مات، وما كانش بوعيه، ما انبسطش بالمشوار المسخم، فلشو كل هالغلبة يا غادة؟ احنا معنا نحج ولا نتنيل يا بنت الحلال؟ ووين عرفة ووين مزدلفة؟ خيالات وصور في راسنا بس، تهيؤات بعيدة، أماني. ولا درس المواريث، يا حبيبي على المواريث، ما أنا كنت أدبي، أو بالأحرى رحت أدبي عشان أهرب من الرياضيات، كنت طبل أجوف في الرياضيات، وعقدة حياتي الكسور، فقلت يا ولد ما فيها، روح أدبي وخلص، شوية عربي ودين وتاريخ وبتمشي حالك، وفي أول حصة في الصف العاشر، كانت درس دين، دخل علينا الأستاذ وهوب دبل كيك، بدأ يقرأ آيات المواريث، ولكل واحد منهما السدس، وإن كان له عمة ولا جدة فله الثلث، أنا انصدمت وقتها، انعقد لساني، صرت أخلط مي وزيت، وعشان هيك عمري ما حليت سؤال المواريث هذا صح، كان دايمًا حلي يطلع فيه كارثة، يعني لو الزلمة الميت تارك مية ألف دينار، بس أحسب الحسبة يطلع للورثة مية وأربعين ألف، أطلع الميت مديون للورثة، لازم يشتغل كمان شوي عشان يسدهم، وكله بالآخر عشان شو؟ لما مات أبوي الله يرحمه وجينا نستخدم درس المواريث ما لقينا شي نقسمه، ما ترك غير ستين دينار، ومش إله كمان، كانوا دين عليه لأبو خليل الدكنجي، وإجا طلبهن ثاني يوم العزا، وعشان يرتاح المرحوم في

قبره أمي باعت الغسالة الأوتوماتيك اللي كان عزام جايب لنا إياها من بالة الخليج. فشو بتسولفي أنتِ يا غادة؟ وسمع للبنت، وما تسمع للبنت، هاي الشغلات يا حبيبتي مش إلنا، والله ما هي إلنا، دين الله وعلى راسي من فوق، بس مش إلنا، هاي لازم يروحوا يدرسوها بعبدون ودير غبار، هناك في ذهب وزروع وعقارات ويحول الحول ويمول المول، هون فش حول، في لا حول ولا قوة إلا بالله. إحنا لازم يدرسونا شي مختلف، أركان التقديم على قرض، آداب طلب سلفة من أخوك المسلم، كيف تصطاد زكاة الفطر من قرايبك أكثر من مرة؟ شعائر الفوز بأضحية جاية من السعودية، صلاة المحتاج، دعاء المنكوب، صيام المشطوب، هاي الشغلات اللي بتنفعنا بحياتنا، مش زكاة ومواريث وحج وشغلات غالية، إحنا بالدين ما إلنا غير الصلاة والصيام، عبادات الفقرا اللي ببلاش.

(فترة صمت)

- ظل شاي؟

- آه ظل.

- طيب ما تصبي لي. صبي عشان ننسى، ولا شاطرة بس تقلبي لي مواجعي؟

تمّت

السعة

الشخص الحاصل على 90 % في الامتحان لا يعَد راسبًا فيه، قاعدة بدَهيَّة جدًّا في النظام التعليمي، لكن في النظام الاجتماعي والعلاقات بين الناس، تبدو هذه القاعدة مهمَلة ومنسية وعديمة القيمة على الإطلاق.

وعلى الرغم من كل وصايا وقصص التسامح التي نحشو بها هواتف بعضنا بعضًا ليل نهار، فإننا في الحقيقة أبعد ما نكون عن وصف التسامح، ويكفينا من كل إنسان موقف واحد فقط لنضعه في خانة نمطية لا يخرج منها، رفع صوته على والدته؛ هذا عاق، خلعت حجابها؛ عاهرة، اختلفت مع زوجها أمام الناس؛ لا تصلح كزوجة، غيَّر وجهة نظره بعد لقاء مع أمه؛ هذا ليس رجلًا بل دلدولًا، سقط ابنها عن الأرجوحة؛ لا تصلح لأن تكون أمًّا، اضطر للغياب عن اجتماع مهم؛ هذا موظف مهمل، وهكذا دواليك، نستمر بهذه التقييمات المجحفة بحق الناس ليلًا ونهارًا، ونكررها حتى تبدو كحقائق لا يمكن الطعن فيها، في حين أنه كان من الممكن بكل بساطة أن ننظر إلى كل شيء رأيناه أنه أمر عارض لا يشكِّل شخصية الإنسان، وأنه من المقبول جدًّا لإنسان يأخذ أكثر من خمسين قرارًا يوميًّا أن يخطئ في واحد أو اثنين، والتسامح مع ما فعله وعدم إخراجه من سياقه هو أفضل بكثير من حكمنا السهل عليه وجلده بسياط أخلاقي نحن أنفسنا لا نطيقه.

الشخص الحاصل على 90 % في الامتحان لا يعَد راسبًا فيه، احمل هذه الجملة في قلبك وعلى طرف لسانك، واستعد لقولها دائمًا حين تلحظ حكمًا جائرًا على شخص ما، أنت لا تعرف تأثيرها فعلًا، قد تنقذ زواجًا ناشئًا تحيط به الكثير من العواصف، قد تحمي طفلًا يحاول بناء شخصيته، قد

تجمع شمل عائلة، قد تحمي موظفًا في أمسِّ الحاجة إلى العمل من فصل تعسفي، قد تعطي أحدهم فرصة أخرى تغير مسار حياته.

وبين الحين والآخر، قف أمام المرآة وقل هذه الجملة لنفسك، علَّك تتمكن من قتل الشعور الدائم بالذنب، ذلك الوحش الذي يأكل روحك.

النضج

النضج لا يعني أن تتعلم أشياء جديدة، هو فقط إعادة تقييم للأشياء التي تعلَّمتها، إعادة ترتيبها في حيز دماغك، اهتمام أقل هنا، أكثر هناك، فقدان الأمل هنا، تقويته هناك، وضع كل شيء في حجمه الذي يجب أن يكون عليه.

والأهم، فصل روحك عن كل ذلك، لستَ شيئًا بعينه لست مجموع أجزائك.

أين يقف النبي؟ (مقال)

مهما حاولنا ادِّعاء التواضع، فلا شكَّ أننا جميعًا نفرح عندما نحصل على سلطة ما، ولو كانت مجرد سلطة على عشرة أطفال في حضانة في قرية نائية، فكرة أن يأمر الإنسان فيُطاع وينهى فينزجر الآخرون، هي فكرة لذيذة، وإحساس رائع بالقوة والتفوق على الآخرين لا يمكننا إنكاره.

لكن المشكلة تكمن في أن السلطة لا تأتي منفردة، إنَّما تأتي وهي ممسكة بالمسؤولية يدًا بيد، وهذا ما يعكِّر نوعًا ما استمتاعنا بالسلطة، لأنه في حال فشل أولئك الذين تحت سلطتنا، أو أخطؤوا خطأً ما، فسنتحمَّل نحن المسؤولية عنهم، وهذا مزعج جدًّا، ومع ذلك، ومع إدراكنا لجزئية المسؤولية هذه، فإننا دائمًا ما نسعى للسلطة بأيدينا وأرجلنا.

حالة أخرى من العلاقات بين البشر، تكون فيها السلطة مخففة قليلًا، وبالطبع مقابل مسؤولية أخف، وهي حالة الرقابة، مثل عريف الصف الدراسي (الطالب المسؤول عن النظام في غياب الأستاذ)، في هذه الحالة، تكون مسؤولية العريف في أن يطلب من الطلاب التزام الهدوء، وإن لم يلتزموا فله سلطة تسجيل أسمائهم على السبُّورة، الآن سواء التزم الطلاب أم لم يلتزموا، فالعريف فعل ما عليه، ولا يُلام كثيرًا، قد يوبِّخه الأستاذ قليلًا لكن هذا كل شيء، المسؤول في الأول والآخر هم الطلاب، ومع ذلك، نحبُّ هذه السلطة المخففة أيضًا ونتسابق عليها.

الحالة الأخف من هاتين، والتي هي فحوى هذا المقال، هي حالة الرسالة، وهي أن يتم تكليفك بنقل رسالة معينة إلى أناس معينين ولا

شيء غير ذلك، مسؤوليتك فقط هي نقل الرسالة، ولا يضيرك، عمل الناس بفحوى الرسالة أم لم يعملوا، وليس عليك حتى تسجيل أسمائهم كما في حالة العريف، فقط قل كلمتك وامشِ على رأي خاشقجي، وعلى الرغم من خلوِّ هذه الحالة من أي سلطة حقيقية، فإننا نحبُّها كبشر، لأنها تعفونا من أي أثر من المسؤولية وتعطينا نوعًا من التفوق الأخلاقي والمعرفي على الناس.

إذا ما أخذنا الحالة الأخيرة في الحسبان، وقررنا ملاحظة سيرة محمد -عليه السلام- كرسول، نجد الأمر مختلفًا قليلًا، فعلى الرغم من إزاحة المسؤولية كافة عن كاهله، وحقيقة أن القرآن الكريم يمتلئ بآيات من قبيل «ليس عليك هداهم»، «لست عليهم بمسيطر»، «ما على الرسول إلا البلاغ»، نجد أن الرجل كان يحمِّل نفسه المسؤولية كافة عن هداية الناس، ولم يكن يغمض له جفن ليلًا أو نهارًا في سبيل هداية الناس، وإنقاذهم من الضلال الذي هم فيه، لدرجة أن الله -عزَّ وجل- في آيات عديدة يشفق على هذا النبي مما يفعله بنفسه، ويطلب منه ألا يحمِّل نفسه ما لا يطيق: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [آية 6، سورة الكهف]، ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [سورة طه].

إلَّا أن المشهد الأبرز في مخيلتي، الذي يُبين العظمة الحقيقية لهذا النبي ويكمل رسم شخصيته، هو ما تسرده آية 41 من سورة النساء: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾، تخيل معي، أنا وأنت ومن نعرفهم ومن لا نعرفهم والبشر الموجودون الآن ومن ماتوا، ومن سيأتون لاحقًا، كل هؤلاء المليارات في كفة، والنبي -عليه السلام- في كفَّة، وليس هذا فحسب، بل شهيدًا عليهم، والخطاب الرباني غير موجَّه للبشر، بل موجَّه له هو، ومقدَّم عليهم في الخطاب، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

هل تخيَّلت مكانة هذا النبي عند رَبِّهِ؟ هل تخيلت الفخر الذي قد يصيب إنسانًا يوضَع في هذا الموضع؟ فماذا كانت ردَّة فعله عندما سمع هذه الآية يقرؤها صحابي؟ يقول الصحابي: «فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان».

في المرة القادمة التي يفكِّر فيها شخص بالتقليل من مكانة النبي -عليه السلام- أو السخرية منه -كما نرى الآن- فعليه ربَّما أن يستحضر هذا الموقف، ليرى أين يقف هو ومن في الأرض جميعًا، وأين يقف النبي.

أقل من الآخرين

أكثر الناس الذين عانوا في تجاربهم العاطفية، هم أولئك الذين تسمموا بفكرة أنهم أقل من الآخرين، وبالتالي فهم لا يستحقون أن يحصلوا على ما يحصل عليه الآخرون.

لذلك عندما وقع أولئك الناس في الحب، كان لزامًا عليهم دائمًا أن يكونوا ألطف من الباقين، وأن يضحُّوا أكثر من الباقين، وأن يمشوا أميالًا إضافية زيادة عن الباقين، وأن يتحملوا ما لم يمكن للآخرين أن يتحملوه، معلِّلين كل هذا بالحب، بينما هو في الحقيقة لحماية شعورهم الدائم بالتهديد بخسارة كل شيء، وحتى عندما خسروا كل شيء، لم يكن لديهم الشجاعة قط للوم الطرف الآخر، بل حمَّلوا أنفسهم الخطأ كله.

ربما ليس هنالك خطيئة أكبر من أن تقلل ثقة طفل في نفسه، لأنه وبشكل تلقائي سيميل إلى الاعتقاد بأن ما يحصل عليه الآخرون كحق، لن يحصل عليه إلا كهبة، وهذه معاناة يعلم الله وحده كم تطول، وماذا تطول.

يوم تُبلى السرائر

آية صغيرة من ثلاث كلمات نمر عليها مرور الكرام حين نحفِّظ أولادنا سورة الطارق، لكننا لا نسأل أنفسنا أبدًا لماذا تبلى السرائر؟ ولماذا يحصَّل ما في الصدور؟ وإذا كانت أعمالنا أمامك كلها يا رب، فلماذا تضع نياتنا أيضًا على طاولة الاختبار؟ ما الداعي لذلك؟

ثم ندرك معنى أن تكون الأعمال بالنيات، تدرك معنى أن يتشابه عملان ظاهريًّا، لكن دوافعهما مختلفة تمام الاختلاف، ألا يُحتمَل أنكِ حين أرسلتِ بطاقة دعوة زفافكِ إلى صديقتكِ، لم يكن قط هدفكِ أن تشاركِ الفرحة بل أن تغيظيها؟ عندما ساعدت ابن تلك الأرملة، ألم يكن قط في حسابك أن هذا سيساعدك في التقرب منها؟ التبرع السخي الذي قدمته، كان فعلًا من أجل مستحقيه أم لتكسر شعورك الداخلي بأن نقودك جاءت من حرام؟ وهذا التقرير الذي قدمته للمدير، أكان لمصلحة الشركة فعلًا أم طعنًا في زميلك؟

جدتي لأبي كانت امرأة قوية ومؤمنة، وابتلاها الله -عز وجلَّ- بأن مات سبعة من أبنائها صبيانًا لم يبلغوا الحلم، لم يأخذ ذلك من عزيمتها شيئًا، لكن جارة لها وكان بينهما عداوة، كانت تتعمد كلما مات لجدتي طفل أن تسمي ابنها على اسم الطفل الذي مات، فَلَمَّا مات لجدتي يوسف، سمَّت يوسف، ولمَّا مات أحمد، سمَّت أحمد، وهكذا، حتى سمت أربعة من أبنائها بأسماء من قضوا من أعمامي، وصارت كلَّما رأت جدتي مقبلة على بيتها نادت بعلو صوتها ابنها الرضيع باسمه، لتسمِع جدتي هذا الاسم وتحرق

قلبها على من مات من أطفالها، وطبعًا جدتي لم تستطع فعل شيء، لأن من الطبيعي أن تنادي أمٌّ طفلها، فظاهر العمل كان عاديًّا، لكنها السرائر.

في المرة القادمة التي تحفِّظ فيها ابنك سورة الطارق، تأكد من سرائرك.

الموازين

من الأفكار التي طالما آمنتُ بها، هي أن القرآن لا يتكرر مهما أعدنا قراءته، الألفاظ ثابتة وسرمدية نعم، لكن المعاني تتغير بمقدار وعينا نحن، أي أنه يضيق ويتّسع بحسب ذهن المتلقي، وخذ مثالًا على ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [آية 47، سورة الأنبياء].

آية في منتهى البساطة، وممكن لها أن تضيق بحيث يستطيع طفل في العاشرة أن يفهمها ويفسرها، ويقول إنها تتعلق بدقة الحساب يوم القيامة، وأنَّ الله عنده ميزان دقيق يحسب حتى حبة الخردل المتناهية في الصغر، وهذا تفسير مقبول، لكن تعالَ الآن فكِّر فيها قليلًا كشخص ناضج، لترى كيف ستتسع الآية بحسب فهمك دون أن تتغير الألفاظ.

بدايةً، الحساب يوم القيامة يكون على أعمال الناس وأقوالهم، ماذا فعلت للناس؟ وماذا فعلوا لك؟ وماذا قلت لهم وماذا قالوا لك؟ وهذه الأشياء تأثيرها على حياتنا متشعب ومتعدد جدًّا، ولنفرض مثلًا أن الذنب المراد قياسه هو أن شخصًا قتل والدك، فكيف يمكن قياس تأثير هذا الأمر عليك وعلى عائلتك؟ تحتاج إلى ميزان يقيس الحزن، وآخر يقيس لوعة الفقد، وآخر يقيس غياب الدعم، وميزان لقياس انقطاع الرزق، ووحشة أمك، وانكسار أختك، والمسؤولية التي تحمَّلتَها، كل هذه أمور تحتاج إلى أكثر

من ميزان واحد، فتعود للآية لتجد أن الكلمة المناسبة فعلًا قد استُعملَت؛ (موازين).

ثم إن هذه الموازين، تحتاج إلى أن تكون دقيقة جدًّا، لتحيط بالأمر من جوانبه كافة، لأنه حتى الحزن متغير بين شخص وآخر، ما حزنته أنت مختلف عما حزنته أمُّك، ومختلف عن حزن أختك، فكيف يمكن حساب هذا الحزن فعلًا ليتم التعويض عنه؟ فتجد الآية تردُّ عليك، وإن كان مثقال حبَّة من خردل أتينا بها، سنقيس حزنك بوحدات لا تفهمها، لكننا نقربها لك بما تعرف، وزن حبَّة الخردل، فتراك تقول: لكن الأمر يا الله لا يوزَن بالخردل! فيردُّ عليك: «وكفى بِنَا حاسبين». نقطة أخرى مهمة هي جزئية «أتينا بها»، نحن نأتي بها ولست أنت، أي لو شككت للحظة أن هنالك ما قد يفيدك ونسيته، فسنأتي به نحن، ولست أنت.

هذه مجرد آية من سطر واحد، واحتاجت إلى أكثر من صفحة لتفسيرها دون الدخول في تفاصيل أخرى، لكن هذا هو المنهج، في القرآن وفِي كل ما خلق الله في هذا الكون البديع من النبتة الصغيرة حتى الجلمود الأصم، ترى الشيء فتحسبه سهلًا ممكنًا، لكنَّه يحوي من التعقيد ما لا يمكن تخيُّله.

إدراك حقيقة كهذه لا يجب لها فقط أن تجعلنا مستمرين في التعلُّم وتوسيع المدارك، بل عليها أيضًا أن تذكِّرنا بتواضعنا، وأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلًا.

من قصاصاتي (4)

- علامة حبِّي أن أحاول أن أضحِكَك.
- الفضفضة -في وقتها- مريحة، لكن بشكل أو بآخر يندم الإنسان عليها لاحقًا، يندم على كشف ضعفه وهشاشته أمام الآخرين، وللهروب من لومه القاتل لنفسه على هذا الفعل، يبدأ وبشكل خفي بكراهية الشخص الذي فضفض له وتحاشيه، بل وربما إنهاء العلاقة معه، بلا أي ذنب سوى أنه كان شاهدًا على الضعف.
- أكثر ما يحزِن الإنسان فكرة أن شيئًا ما قد فاته، كان سيناله لكنه حُرِمَ منه، ففاتته السعادة المتخيَّلة.

أرِح نفسك يا أخي، لم يَفُتكَ شيء، ما أخطأك لم يكن ليصيبك، إنما هي سيناريوهات رسمتَها أنت، لا أكثر.

- كيف لجملة بسيطة يقرؤها الإنسان في رواية أو يسمعها في مسلسل أن تخترق روحه بهذا الشكل؟ ما الذي يجعله يكررها في داخله ألف مرة؟ كيف تمنحنا المعنى المفقود؟ ومن أين تأتي الكلمات بكل تلك القوة؟
- أعتقد أنه لا شيء يعرِّف الإنسان كإنسان أكثر من فكرة أن يكون لديه هواية، أن يستهلك من وقته وجهده وماله ليمارس ويصنع شيئًا يحبه.

متعة خالصة، بعيدة عن حسابات الربح والخسارة والجوع والشبع والتنافس مع الآخرين.

تأكد لي أن المرأة حين تحبُّ رجلًا فإنها تحبُّه إلى الأبد، مهما تغير وتبدَّل وساء، وحتى لو قررت لاحقًا أن تهجره، فإنها تفعل ذلك وهي لا تزال تحبُّه.

لا تشفى النساء من الحبِّ أبدًا، قدرًا مقدورًا.

- لا أستطيع العودة إلى الشخص الذي كنته، أرغب في ذلك فعلًا كما ترغبين، وأشتاق إلى ذاتي القديمة، لكنني فعلًا لا أستطيع العودة إليها، ولا أعرف حتى كيف يمكنني أن أفعل ذلك.

صرتُ عنِّي غريبًا، ولَم يتبقَ من السنوات الغريبة إلا صدى اسمي.

- ما لا يقتلك، يشوِّهك، التجارب ندوب.

الجسر...

عارف شو مشكلتك يا أحمد؟

إنك بدك كل شي في حياتك يكون واضح ومستقر وثابت ومحدد المعالم، بدك دراسة منيحة بتخصص منيح، وأصدقاء رائعين ومرحين، بحبُّوا السفر والأغاني والكتب وفيروز وكأس العالم، وبدك شغل ممتاز، في صلب تخصصك، شغل بستغل علمك وببرزه، شغل تتدرج فيه بانتظام وهدوء من منصب لمنصب ومن نجاح إلى نجاح، وبدك زوجة جميلة ومثقفة وبتحبك، وأهلك بيحبوها وأهلها بيحبوك، تعيش معها الحب بمراحله، والخطوبة بأفلامها ومقالبها، والزواج بمراحله وذكرياته وحميميته، وتجيب منها أولاد شاطرين وحلوين وأذكياء، عصافير صغار، بشبهوها وبشبهوك، وبيت واسع في منطقة جميلة وهواها حلو، وإجازات صيفية سنوية، لبلاد خضرا بعيدة، تغسل فيها تعبك وترجع بكومة من الصور والذكريات.

بدك حياة ما بنغصها إلا نزلة برد، أو عطل بسيط في أضوية سيارتك، أو تسريب في الغسالة الأوتوماتيك، بدك حياة يكون أكبر همومك فيها إنه بنتك سنَّها بوجعها، أو إنه وزنك زاد شوي ولازم ترجع تسجل في الجيم، أو إنه والدتك بدها تروح عالعمرة، ومش لاقية مكتب مناسب.

بدك حياة مستقيمة وممهدة كأنها طريق ريفي بتحفه المزارع، طريق قادر تشوف أوله وآخره وتستمتع بكل لحظة فيه، وما بفصل بينك وبين سنينك الجاية وتقاعدك المريح في مزرعتك المذهلة... إلا عقارب الساعة الكسلانة اللي اشترتها زوجتك من إسطنبول.

بس الحياة عمرها ما كانت ولا راح تكون هيك يا أحمد، على الأقل مش في الزمان والمكان اللي احنا عايشينهم، وهذا مش غلطك، ولا غلطنا، لكن هي الأمور هيك.

الحياة هون عبارة عن جسر مهلهل من الألواح الخشبية القديمة والأحبال المهترئة، جسر بغطيه ضباب كثيف بارد، وتحته وادي سحيق ماله آخر، وما في شي مثبتك على الجسر إلا اللوح الضعيف اللي تحت رجليك، اللوح اللي وراك وقع، واللي قدامك لسه ما ركب، ولا بتعرف إيمتا راح يركب، والهوا عم بلعب فيك وفِي الجسر وفي قلبك، وفِي كل شي ثاني.

من الداخل

أغلب شكوى الإنسان تأتي من داخل مكتسباته لا من خارجها؛ يحصل على تعليم جامعي فيشكو من صعوبة الدراسة، يتزوج فيشكو من زوجته وأطفاله، يحصل على عمل فيتذمر من مديره، وهو هنا كالذي يأكل السمكة ويشكو من حسكها.

وفقط عندما تلوح بوادر خسارة هذا المكتسَب برمَّته، يبدأ الإنسان بإدراك النعمة التي كان يتقلب فيها، ويصيبه الهلع من احتمال فقدانها، عندها فقط، يشكر ما لديه.

سرُّ الحب

كل ما في الدنيا يميل لخذلان الإنسان ومحاصرته، لتأكيد وحدته وتكريس ضعفه، من هنا امتلك الحبُّ عرشه، لأنه يعاكس تأثير الدنيا علينا، يمنحك الشعور الدافئ بالاطمئنان، بأنَّ شخصًا ما معك، يجبر ضعفك، يقويك، والأهمُّ أنه لا يخذلك، جزئية عدم الخذلان هذه هي روح الحبِّ وسره وعماده.

لذلك فإن توقُّع حياة خالية من المنغصات هو ضرب من الخيال، لكن الرجاء أن يعثر الإنسان على حبٍّ يعينه على مواجهتها، الحبُّ هو أن تجد شخصًا يحمل الدنيا معك، ما عدا ذلك، تفاصيل ورتوش.

وهذا هو بالضبط ما قاله عليه السلام عن خديجة -عليها السلام-: «آوتني حين طردني الناس، ونصرتني حين خذلني الناس».



ثلاث مقدمات وفكرة بسيطة (مقال)

المقدمة الأولى: الصفة تأخذ معناها من الواصف وليس من الموصوف، بمعنى أنه إذا قال طفل في الخامسة من عمره عن زجاجة «الكاتشاب» إنها صعبة الفتح، فذلك يعود غالبًا لضعف يديه، لكن إذا قال رجل مفتول العضلات إنها صعبة الفتح، فهنا قد تكون صعبة فعلًا.

المقدمة الثانية: التحكم درجات، أعلاها الإحاطة، بمعنى أن تتحكم بالشيء بحيث تحيط بكل جزئياته، ولذلك يقول العرب: «أحاط به إحاطة السوار بالمعصم»، وسُمي المحيط محيطًا لإحاطته باليابسة.

المقدمة الثالثة: أصعب أنواع الابتلاء الجسدي في هذه الدنيا هو أن يُحرق المرء حيًّا، هذا أسوأ ما يمكن أن يتعرض له الإنسان، لا يوجد ما هو أسوأ من ذلك، لكن يُضاعَف هذا الابتلاء إذا كان حادث الحرق على يد أعدائه، لأن هنا يُضاف العامل النفسي وهو القهر والضعف، ويُضاعف أكثر إذا حُرِق الإنسان مع عائلته، مع أولئك الذين يجب أن يحميهم، هذه أكبر مآسي الأرض، والتي ربما قد شاهدناها قريبًا في الحرب في سوريا أو في مجازر المستوطنين.

الآن نصل إلى الفكرة...

عَلِمَ الله بحكمته أن سيأتي زمان علينا نشكك في عدله، ونلومه على عدم تدخُّله لمنع كل تلك المآسي التي تحدث أمامه وأمامنا، متسائلين عن ذلك الإله قاسي القلب الذي يشاهد كل هذا الألم ويملك القدرة على إيقافه لكنه لا يوقفه، فأنزل لنا سورة البروج، السورة تروي لنا مأساة كبرى حدثت في نجران في اليمن في القرن السادس الميلادي، وكان ضحيتها مسيحيو

نجران، حُفِر أخدود ضخم في الأرض وعندما رفض أولئك المؤمنون التحول إلى اليهودية، أُلقوا مع عائلاتهم في النار، بأمر من ملك حمير.

تبدأ السورة بالتذكير بيوم القيامة: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ ليذكرك قبل أي شيء أن هنالك يومًا موعودًا يجتمع فيه الشاهد والمشهود، ثم يبدأ بسرد مشهد الأخدود، ويختمه بجملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [آية 9]، أيْ إنني كإله كنت شاهدًا على تلك المجزرة، لحظة بلحظة، لكنني لم أتدخل، لأن الأمر لن يدوم سوى دقائق، والمجرمون سينالون «عذاب الحريق»، وهذا حريق غير الذي تعرفه، لأن الصفة تأخذ معناها من الواصف، والضحايا لهم جَنَّات تجري من تحتها الأنهار، وهذه جَنَّات أيضًا لا تدركها أنت، لأن الصفة مرة أخرى تأخذ معناها من الواصف.

فإن وصل الإنسان لهذا القدر في السورة ولَم يقتنع بعد، يقول الله آيته الأعظم وتهديده الأكبر، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [آية 12]، وهو بطش لا تدرك أبعاده ولا يمكنك تخيل ما معنى أن يكون شديدًا، لكنه هنالك ليذكرك أنه لم ينسَ ولن ينسى، لأنه هو يبدئ ويعيد، وفعال لما يريد، لا لما تريده أنت، وأنه حين أراد أن يتدخل قد تدخل، هل أتاك حديث الجنود؟ فرعون وثمود؟ ثم يذكرك الله بأنه محيط بكل شيء، فلا تخَف، لن يضيع شيء، لن يفلت أحد، بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ، لن يضيع شيء.

في المرة القادمة التي ترى فيها مأساة إنسانية، تصل أو لا تصل لمأساة الأخدود، لا تدع الشيطان يشككك في عدل الله، ولا في غيابه، ولا تظن أن الله لا يرى ذلك، لكن قل بقلب ثابت: إن بطش رَبِّك لشديد.

إن بطش رَبِّك لشديد.

إن بطش رَبِّك لشديد.

وفِي انتظار اليوم الموعود، والشاهد والمشهود.

ابتسم أيها الغريب...

ابتسم أيها الغريب، لقد مررت بأسوأ من هذا وعبرت، وخفت مما هو أكبر من هذا ونجوت، أنت بخير، أنت بخير، حزنك مقاومة، وألمك مقاومة، وما دمت تقاوم فأنت بخير، وما دام القلب لم يمت بعد، فسيزهر، أنت بخير...

لن تحصل على كل ما تريده، هذا مؤكد، لم يحصل هذا لأحد منا، لكن تذكر أنك لست هنا لتجمع الألعاب كطفل، أنت هنا لتفعل شيئًا ما، لتحرك شيئًا ما، لتبني شيئًا ما، لتحطم شيئًا ما.

سيأتي ذلك اليوم الذي سنجلس فيه جميعًا حول النار لنشرب قهوتنا ونغني ونضحك، لكن ليس الآن، الآن يجب علينا أن نملأ الحيز الذي ينتظرنا، أن نقول الكلمات التي تنتظرنا، أن ننهض أن نمشي، أن نعرق، أن نصرخ، أن نتعب، أن نقاتل، أن نكون...

انهض أيها الغريب وقاتل، لا تزال الكثير من الخطى بانتظارك، والكثير من الدروب، والكثير مما لا تعرفه في داخلك، من حزن وفرح وماء وورد ونار وأغانٍ...

انهض؛ أنت بخير.

لا أخاف

لو حدث واحتجت إلى عملية جراحية، فإن الأمور تسير كالآتي: تدخل إلى المستشفى قبلها بيوم، تتوقف عن الأكل والشرب في تمام الثانية عشرة ليلًا، وفِي الصباح تستيقظ لتجد مجموعة من الممرضين والممرضات محيطين بسريرك، تنزع ملابسك كاملة وترتدي رداءً خفيفًا، ثم تُجرُّ بهدوء على سرير متحرِّك نحو جناح العمليات.

هناك يستقبلك طاقم التخدير، وبعد بعض الفحوصات، تُنقَل إلى طاولة حديدية باردة بالكاد تكفي مساحة جسدك، وبينما يبدأ طاقم التخدير بزرع بعض الإبر في يديك، يقف طاقم الجراحة بعيدًا، ممسكين مشارطهم الحادة ومنتظرين إغفاءك بصبر، يبدأ سريان المخدر في دمك، وخلال لحظات تفقد الوعي تمامًا وتبدأ الجراحة.

خلال هذه الرحلة كانت قوتك وقدرتك في التحكم بنفسك تُسحبَان منك خطوة بخطوة، لينتهي بك الأمر عاريًا عاجزًا غائبًا عن الوعي ممددًا على طاولة حديدية ويحيط بك مجموعة من الرجال والنساء الذين لم ترهم من قبل ولا تعرفهم.

فما الذي يجعلنا لا نهلع ونرتبك ونبكي خوفًا من هذه التجربة المرعبة التي نفقد فيها أي سيطرة على مصيرنا ونضعه بالكامل بين أيدي الغرباء؟ إنها الثقة، الثقة التي نمنحها للفريق الطبي.

ولهذا السبب نفسه لا أخاف من الموت، لأنني أثق بربِّي أكثر من أي طبيب في هذا العالم، وأعلم أنني وفِي اللحظة التي أفقد وعيي فيها للمرة الأخيرة، فإنني سأكون في أيدٍ أكثر أمانًا من أيدي الأطباء، ولن يحدث لي ما يسوؤني أبدًا أو يرعبني أو يتخطى قدراتي كبشر، ولا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون.

كيف يرانا اللّه؟ (مقال)

لنفترض أنك تعمل معلِّمًا (أو معلِّمةً) في مدرسة ابتدائية، جاءت نهاية العام ووجب عليك أن تقدم كشوفات علامات الطلاب النهائية، لا شك أنك ستقوم بكل بساطة بجمع نتائج امتحاناتهم للحصول على المجموع النهائي، لكن ماذا إن أخبرك المدير بأن النظام قد تغير، وأن نتائج الطلاب تشكل 80 % فقط من المجموع النهائي، وهناك 20 % متروكة لتقديرك أنت؟ السؤال هنا، هل ستضع تلك العلامة كنسبة من مجموع الطالب أم ستضعها بحسب رؤيتك الخاصة لكل طالب بعيدًا عن أدائه في الامتحانات؟

بنفس المنطق، هل لنا أن نتساءل عن كيف يرانا الله؟ بعيدًا عن النواهي والأوامر ونتائج الأداء، كيف يرانا؟ ما الذي يشكِّل رؤيته لنا كبشر عاديين؟ كمحاسبين وممرضين ومعلمات وسكرتيرات وربات بيوت؟ سؤال مهم، لي على الأقل، لكن قبل محاولة الإجابة عنه، لنقرأ معًا هذه الأسطورة اليونانية اللطيفة.

تقول الأسطورة: إن زيوس كبير الآلهة، أوكل إلى مستشاريه بروميثيوس وأخيه أبيمثيوس مهمة خلق البشر والحيوانات، نحن البشر كنا من نصيب بروميثيوس، وصاحبنا هذا كان صانعًا ماهرًا، لكنه كان بطيئًا في عمله مقارنة بأخيه، فلما انتهى أخيرًا من صنع جسد الإنسان وأراد أن يمنحه بعض المميزات، اكتشف أن أخاه كان قد أنهى خلق الحيوانات مبكرًا، وأعطاها كل المميزات الممكنة من سرعة وقوة وحواس خارقة وقدرة على السباحة والطيران، إلخ، ولم يجد المسكين بروميثيوس أي ميزة باقية يمكن أن يعطيها لمخلوقاته سوى المعرفة، فمنحهم المعرفة، وفي مرحلة

لاحقة سرق لهم قبسًا من نار، واكتشف زيوس السرقة وعاقبه... إلخ. قصة جميلة لمن أراد أن يستزيد لكن نكتفي بهذا القدر هنا.

من قصة بروميثيوس هذا، ننتقل إلى القرآن وأول مشاهد خلق الإنسان، مشهد الملأ الأعلى إذ يختصمون، يخلق الله بشرًا من طين، تعبِّر الملائكة عن قلقها بأنه سيسفك الدماء، فلا يردُّ الله عليهم بأن هذا المخلوق سيكون مسالمًا، بل يحدد لهم بالتجربة العملية، صفة هذا المخلوق الأولى والأساسية، مخلوق عاقل، «وعلّم آدم الأسماء كلها» إلى آخر الآية.

هذه إذن باختصار رؤية الله لنا، كائنات عاقلة، تفكر وتستخدم عقلها، وهو ما حاولَت الأسطورة اليونانية اللطيفة مقاربته، لكن الأمر لا يتوقف هنا، بل يشرح الله لنا في القرآن الكريم تجليات مختلفة لهذه الرؤية، وكيف تختلف رؤية الله للإنسان بحسب تعامل هذا الإنسان مع عقله، ضعوا أحزمتكم لنبدأ الرحلة...

أول تجلٍّ لرؤية الله لنا يحدث عندما يميل الإنسان لاتجاه معين أو يفعل شيئًا ما يناسب هواه، وإذا ما حاول أحد نقاشه فيه رفض حتى فكرة النقاش، لا يريد حتى أن يستمع إليك، أو يستمع وكأنه لا يستمع، فلا يفكر أبدًا بما قيل، بل أن قراره بالرفض محسوم سلفًا، ما يفعله يروقه وهذا يكفي، وهنا كان الوصف الإلهي لهؤلاء قاسيًا فعلًا: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [آية 43/44، سورة الفرقان].

أول أمر تشرحه لنا هذه الآيات هو مركزية السمع في الخطاب الإلهي، لأن السمع هو مفتاح العقل، أول خطوة ليعقل الإنسان شيئًا هي أن يسمعه، ولذلك عندما وصف النبي نوح كُفرَ قومه قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ [آية 7، سورة نوح]، لا

يريدون أن يسمعوا، لكن لماذا؟ لأن العقل وإن كان أداة منطقية يمتلكها الإنسان، لكن النتائج التي يخرج بها خارجة عن إرادة الإنسان، بمعنى، قد يصل عقلك إلى نتيجة تخالف هواك ولن تستطيع تغيير ذلك، مثال بسيط: لنفرض أنك تشجِّع ناديًا رياضيًّا لكرة القدم، وفي أثناء المباراة قاموا بإحراز هدف من تسلل واحتسبه الحكم، هنا مهما كان حبُّك للنادي، فلن تستطيع إقناع نفسك أن هذا الهدف صحيح، لأن عقلك قال إنَّه تسلل، قد تقول بدافع المكابرة للناس إنه هدف صحيح، وتحاول إقناع العالم كله بذلك، لكنك أبدًا لن تقنع عقلك بذلك! النتائج التي يصل إليها عقلك لا تخضع لأهوائك.

لهذا السبب كان قوم نوح يرفضون السمع حتى، لكيلا تقتنع عقولهم، ولهذا السبب نزع الله عن هؤلاء الذين يرفضون استخدام عقولهم، صفة العقل نفسها. أي كأنه يقول: أنت يا محمد تظن أن هؤلاء بشر، لكنَّهم ليسوا بشرًا؛ لا يسمعون ولا يعقلون، هؤلاء دواب، حتى من يستمع عضويًّا وهو فعليًّا لا يستمع، حاز الوصف نفسه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأنفال].

هذه أول تجليات رؤية الله لعقل الإنسان، عندما ترفض استخدامه، ينظر الله لك بنظرة دونية تجعلك أنت والدابة سواء، بل هي أفضل منك، لأنها وإن لم تكن تسمع وتعقل، لكنها قد تتعلم بالممارسة فتعي وتفهم، أما أنت فلا، أنت والميت سواء، ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة النمل].

التجلي الثاني لرؤية الله لنا ككائنات عاقلة، يتضح في قصة الوليد بن المغيرة، والوليد بن المغيرة لمن لا يعرفه هو والد الصحابي خالد بن الوليد، المغيرة هذا كان من أغنى وأعظم رجال قريش، إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق، وكان يُسمى الوحيد، لأن قبائل قريش كانت تكسو الكعبة

عامًا، وهو وحده يكسوها عامًا، وعندما اعترض القرشيون أن الرسالة أُنزلت على محمد -عليه السلام- المنتمي إلى عائلة متواضعة، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [سورة الزخرف]، كان العظيم المقصود في مكة هو الوليد بن المغيرة، والآخر في الطائف هو عروة بن مسعود الثقفي.

الحاصل أن هذا الرجل ذا العقل الراجح، لما استمع للقرآن في أول مرة، (ليس من الذين لا يستمعون طبعًا)، أيقن تمامًا أن هذا الكلام ليس بكلام بشر، عقله أكَّد له ذلك بكل بساطة، فقال لقريش إن ما يقوله محمد ليس بكهانة ولا شعر، ولا بكلام جان، بل وَصَفَ القرآن وصفًا جميلًا فقال: «إن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه»، لكن لما أحسَّ الرجل أن موقفه هذا وموافقته على ما يقوله محمد قد يكلفه زعامة قريش، جلس يفكر في الأمر، ووُصِف صراعه النفسي خطوة بخطوة في القرآن في سورة المدثر، وكأن الله -عز وجل- يراقب ماذا سيفعل هذا الرجل عندما حكم عقله بشيء، وهواه بشيء آخر.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤﴾ [سورة المدثر]، هذا ما قاله الوليد في نهاية الأمر، هكذا خان عقله، فقال إنَّ هذا القرآن سحر، ومحمد ما هو إلا ساحر، فماذا كان رد الله السريع والحاسم على خيانة الوليد لعقله؟ ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾ [سورة المدثر]. تخيل غضب الله، الهاء تعود على الوليد، تعهد شخصي من الله ضد شخص! سأضع الوليد في قسم خاص في جهنم، مخصص لأولئك الذين منحتُهم عقولًا راجحة لكنهم خانوها!

التجلي الأخير لرؤية الله لنا يمكن شرحه كالتالي: في أثناء قراءتي لتاريخ ابن كثير، قرأت عن أحد القادة المسلمين (لا يحضرني اسمه الآن)،

المهم أن هذا الرجل أوغل في دماء المسلمين طولًا وعرضًا، وعندما أحس بالندم واقتراب الأجل، ترك كل شيء وراءه وذهب ليعيش آخر أيامه في المسجد النبوي في المدينة المنورة، يستغفر الله هناك، طبعًا هذا التصرف كان شائعًا عند السلف (وإن كان البعض يعده بدعة) لكنه يستند إلى الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النساء]. آية لها وزنها وتعاضدها آيات أخرى تفيد بجاه الرسول -عليه السلام- عند الله -عز وجل-، لكن العجيب أن القرآن الكريم في مواضع أخرى ينسف هذا المنطق تمامًا، ويجعل استغفار الرسول كعدمه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [آية 80، سورة التوبة] على من كل هذا الغضب؟

على أولئك الذين فعلوا تمامًا كما فعل الوليد، لكنهم زادوا عليه، وصلت عقولهم لنتيجة معينة، لكنهم لم يكتفوا بخيانة تلك العقول، لكنهم قرروا أيضًا أن يزوِّروا عقول الناس ويخادعوهم، يرون الحق رأي العين، لكنهم يقولون الباطل ويزينونه بصورة الحق، وليس لديهم جرأة الوليد ليجاهروا بعدائهم، فتراهم يتظاهرون بالصلاح أمام الناس، ويقولون إنَّ ما نقوله لكم هو الحق، بينما يعلمون تمام العلم أنه الباطل، عاشوا في زمن الرسول ويعيشون الآن بيننا، تراهم وتسمعهم كل يوم، في التلفاز والإذاعة ووسائل التواصل، المنافقون، أصحاب الدرك الأسفل من النار.

فاصل تنهد

ألا يوجد نوع رابع نطمْئن أنفسنا به؟ يوجد...

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [سور الزمر، الآية: 18].

من قصاصاتي (5)

- كم يجب أن يبلغ عمر الإنسان حتى يتوقف عن مزاحمة الأطفال في قسم أدوات القرطاسية؟ كم سنة يجب أن يعيش ليكبر على هذا الولع اللذيذ بأقلام الرصاص والمحايات والبرَّايات والمشابك الملوَّنة؟

متى يكبر الطفل في داخله؟

- أعتقد أن الله منحنا آباء وأمَّهات، لا لكي يقوموا برعايتنا فقط، لكن ليمنحونا القدر الضروري واللازم للحياة من الحب.

كان من اللازم أن يحبَّنا أحد، بلا شروط ولا توقعات ولا خيبات ولا هجران، حبٌّ للحبِّ ذاته، كان يجب أن ننام على وسائدنا موقنين أن قلبًا ما في مكان ما لن يتركنا أبدًا.

- **«الْيَوْمَ عندكَ سرُّها وحديثُها وغدًا لِغيركَ كفُّها والمِعصَمُ».**

بعض أبيات الشعر لا تُشرح ولا يعلَّق عليها، تُقرَأ فقط، ثم تُترَك لتموج في ثنايا الذات، وتفعل ما تفعله هناك.

- لا شيء يستعبد الإنسان أكثر من رغبته في أن يحبُّه أحد، في أن يعجب به أحد، فكرة أن سعادتنا موجودة في أعين الآخرين هي عين العبودية، وأنا لا أريد أن أكون عبدًا لأحد!

أريد أن أطير!

- لو عادت بي الدنيا سنين إلى الوراء، سأكون نجارًا، سأبني تلك الغرفة الصغيرة وأضع فيها أدواتي وعددي وسريري حتى.

أصنع فيها ما يكفي ثمنه لطعامي فقط، وأعيش مع أخشابي، كفافًا، لا عليَّ ولا لي.

- كلَّما اقترب الإنسان من مطلوبه، ينخفض مقدار اللذة المرتبطة بالحصول على هذا المطلوب، لتصل في لحظة الالتحام والنوال إلى الصفر.

فيصل إلى قناعة أن ما كان يحرِّكه هي لذة الصيد، لا الصيد نفسه.

البصمة (قصة قصيرة)

عارف يا محمد؟ أنا بالآخر يعني، وبعد طول تفكير، وصلت لقناعة إنه كل إنسان فينا عنده شي، بنقدر نسميه البصمة الروحية، في ناس بسموها شخصية، بس أنا برفض هاي التسمية، لأنه الشخصية ممكن تدل على توجهات وأفكار وآراء، بس لأ، البصمة هاي إشي أعمق من هيك.

هاي البصمة بتحكم كل شي في الإنسان؛ الطريقة اللي بلبس فيها، اللي بحكي فيها، اللي باكل فيها، حتى اللي بنام فيها، بصمتك بتحدد، كيف بتفتح الباب، كيف بتنزل الدرج، كيف بتركب في السيارة، كيف بتحكي، وين بتوقف وأنت بتحكي، ما بدي أفصل كثير، بس بصمتك بترسم كل شي بتعمله، هي إشي غير مرئي أبدًا ولا يمكن تحديده أو وصفه، بس أنت قادر تميزه في كل إنسان، بصمته الروحية قصدي، وهاي البصمة صعب أو خلينا نقول، مستحيل تتغير، شو ما الإنسان حاول، بتظلها هي نفسها، هي التردد الخفي المتفرد اللي بتلقطه الروح الثانية، هذا التعريف أحسن.

المهم من كل هالحكي، إنه ليلى، ما حبَّت بصمتي، ما حبَّت التردد المتفرد الخفي اللي أنا ببثه، ما إجا على هواها، هيك بكل بساطة.

(نفس عميق وفترة صمت).

هذا الشي مؤذي جدًّا على فكرة، يعني أنا في ناس كثير بكرهوني، أكثر مما بتتخيل، قرايب وزملاء وغيره، لكن أقسم لك إنه عمره الكره ما أثر علي، بعتبر الكره شي زي ناموس الصيف مثلًا، أو الرطوبة، الحر، شي مؤذي، بس منفصل عن ذاتك، ما بستفزك، ما بجرحك، ما بثير انفعالاتك ولا بطرح أسئلة جواك، فيك تبعد عنه وترتاح، لكن اللي بدمِّر الإنسان فعلًا

مش الكره، لأ، اللي بدمِّر هو عدم الحب، فكرة إنه شخص أنت مستعد تقدم حياتك عشانه، ما بحبك، مش قادر يحبك، هاي الفكرة مريعة والله، وأثرها أكبر بكثير من الكره.

(تنهيدة، وفترة صمت أخرى).

ومن الأشياء اللي بتحز في بالي، بعد ما خلص الموضوع كله يعني، إنه أنا أخذت فرصتي معها كاملة، يعني لو كانت مخطوبة، أو متزوجة، أو من ديانة ثانية حتى، كان ممكن يكون عندي عذر، كان ممكن أتعذر وأقول، والله الظروف ضدي، إنما لو أتيحت لي الفرصة.. وكنت عنترة بن شداد أو جميل بثينة أو امرؤ القيس، كان ممكن أتكئ على الغامض وأتخبى ورا الاحتمال، عشان أبرر فشلي، بس ما بقدر أعمل هيك، لأنه أتيحت لي الفرصة كاملة، خمس سنين كاملين وإحنا سوا في الكلية، خمس سنين وأنا أطوي الأيام يوم ورا يوم، وأصبر بحالي أو أضحك على حالي مش فرق، وأحكي بكره وبعده، لغاية ما خلصوا السنين وأنا بالنسبة إلها ولا شي، مجرد زميل، صديق يمكن؟ بتفرقش، المهم شخص راح تحطه في مستودعات الذاكرة.

وهذا شي مؤسف وبائس الحقيقة، لأنه لو فكرت فيها، محمد الفاتح قعد ثلاث سنين وفتح القسطنطينية، بينما أنا خمس سنين ما قدرت أخلي بنت تحبني، مع إني اشتغلت كثير والله، واجتهدت، بس بقول لك، البصمة نفسها ما تغيرت.

(يحتسي جرعة من شاي بارد).

يعني مثلًا، من الأفكار اللي كانت عندي، إني أحاول يكون عنا اهتمامات مشتركة، فحاولت أعرف شو الكتب اللي بتحبها وقرأتها، مع إني مش مقتنع فيها، ثلاثية غرناطة، القوقعة، كتب لسارماغو، وكتب للفرنسي المجنون هذا غيوم، وكثير أشياء، كلهم قرأتهم، بس عالفاضي، لأنه حتى لما جيت أحكي لها عنهم، بصمتي في الحكي عنهم ما بتعجبها، الأشياء اللي لفتتني

في الكتب غير اللي لفتتها، شايف! يعني حتى لما أسوي الأشياء اللي هي بتحبها، بسويها بطريقة هي ما بتحبها! وعليه فِقس، حلوة فقِس هاي.

(يضع يديه على رأسه، ويبتسم).

ضحكتك؟ أنا دمي خفيف على فكرة، والله عن جد، وبداهتي حاضرة، يعني شوف هاي، (يفتح تلفونه)، هاي جروب العيلة، وهذا سيلفي هيك بعتته قبل يومين، شوف إمي شو معلقة «شو يما وين ذانك الثانية» بتمزح يعني إمي، لأنه الصورة على جنب، شوف شو رديت أنا، «وقعت مني يما في السوق وما لقيتها، قلت بشتري واحدة ثانية بكره، وأصلًا هي خربانة وما بسمع فيها منيح»، حلوة النكتة؟ صح؟ إمي وخواتي كثير ضحكوا عليها، وهاي النكتة من عندي على فكرة، مش سارقها من حدا يعني، بقول لك دمي خفيف، مع هيك ما كانت نكتي تضحكها، ما بعرف ليه، عشان هيك بطلت أعتبر خفة دمي ميزة، مهو لما اللي نحبه ما يحبنا، شو بكون نفع الميزات؟ يعني لو بنت حلوة بتحب حدا وما حبها، فكرك جسمها بعني لها شي؟ بعني للناس يمكن، بس إلها ما أتوقع.

(رشفة أخرى من الشاي).

بتعرف؟ أنا بقدر أكذب عليك وأحكي لك إنها تافهة، وما بتستاهلني ومن الكلام هذا عشان أرضي غروري، صح؟ بس لا والله ما هي تافهة، يعني بريحني أكذب على حالي وأقول إنها تافهة، بس لأ، هي مش تافهة، بس ما حبتني، شغلتين ما بتعارضوا أبدًا، ولا بحب حتى فكرة إنه هي الخسرانة، لا هي أكيد مش خسرانة، حتى لو أنا مقتنع إنه عامر هذا اللي حبته أقل مني، هو بالنسبة إلها أعلى مني، هذا المهم، فكرة هي الخسرانة هاي فكرة مبتذلة، فكرة بحكي لك إياها صحن العدس لما يشوفك تركته وطلعت تتعشى مشاوي، وأنا مش صحن عدس، بس أنا خسرت، وأنا مش مكيود، ولا أقول لك، أنا صحن عدس خسران ومكيود.

(يضم يديه الاثنتين ويثبت رأسه عليهما وهو ينظر أمامه).

عمري حكيت لك إني اشتريت الشقة هاي عشانها؟ آه والله، هاي الشقة هي حلمها، مش هاي هاي يعني، بس نفس المواصفات، شقة عند الخامس مع بلكونة كبيرة وكاشفة غرب عمَّان، هاي هي الإطلالة اللي بتحبها، طول عمرها بتحلم ببلكونة تقعد فيها في الليل تشوف كل عمَّان، بتعرف كم كلفتني؟ مش مهم، مش وقت تباهي، بس عارف وين السخرية؟ إني اشتريتها بنفس الطريقة اللي هي بتحبها برضه، من بنك إله لحية، قال يعني عشان الحلال والحرام، مع إنه الفائدة في البنك تبعي أقل، بس برضه اشتريتها زي ما هي بدها، وفرشتها الفرش اللي هي بتحلم فيه.

(تبدأ نبرة صوته في الارتفاع).

الكنبايات الحمر والرمادي، السجادة العجمي، الفيل الفضي، شمعدانات الفضة، الطاولات السود، شعار آل ستارك المعلق على الحيط، التمثال الغبي لجون سنو، الأرضية الخشب، ماكينة القهوة، المكتبة، وحتى طقم التواليت! كل شي في الشقة هاي منحوت تمامًا من أمنياتها، فش شي أبدًا في هاي الشقة بشبهني، كله بشبهها هي، بس هي نفسها، مش موجودة.

(يهدأ ويأخذ نفسًا عميقًا ويرتشف آخر رشفة في كأس الشاي).

تقولش شي، بديش تقول شي، ولا أنا بدي أقول شي، خلص شو نفع الكلام؟ المهم أنا بدي أقوم أنام، شكرًا إنك سمعتني، وهو أنا مش من طبعي الفضفضة، بس مرات الواحد بكون صدره بغلي زي المرجل، وبحاجة يفضفض شوي، وإلا بنفجر، فشكرًا يا محمد إنك سمعتني.

نام هون لو بدك، الشمس بتتأخر لتوصل البلكون، بس تغطى منيح، عالفجر بكون الجو كثير بارد.

(يسحب منديلًا من علبة المناديل، ويضعه على دب أبيض صغير محشو يجلس على الكرسي بجانبه).

يلا تصبح على خير يا محمد.

تمَّت

لا تكوني ساذجة...

لستُ شخصًا لطيفًا كما تظنين، إنما يمكنني القول إنني تعلَّمت عبر فعل الكثير من الأذى، كيف لا أكون مؤذيًا، ولست ذكيًّا أيضًا، إنما أفضِّل أن أقول إنني ارتكبت نصيبي من الحماقات، بحيث صرت قادرًا على تجنبها، كما أنني لست قديسًا كما يحلو لك أن تصفيني، فلكَيْ أبدو أمامك بكل هذا النقاء، كان علي أن أخوض في كل بركة وحل ممكنة.

أنا نتاج تجاربي، وإن كنت سعيدة ومبهورة بما ترينه مني الآن، فهذا كان ممكنًا فقط، لأنني أحزنت وخيَّبت الكثيرات من قبلك، بما فيه الكفاية، في مقابل ضحكاتك هذه، دُفِعت الكثير من الدموع.

لا تفعل

من خدع الحياة اللطيفة إن الإنسان دائمًا مشغول بالسؤال حول ما الذي يمكنه فعله لجعل حياته أفضل، لا بدَّ أن هنالك شيئًا ما، لكن الحقيقة أن الإجابة هي «لا شيء»، لقد فعلت كل ما يمكنك فعله.

لكن السؤال الذي يجب طرحه هو: ما الذي يمكنك التوقف عن فعله لتصبح حياتك أفضل؟ هنا يكمن المنجم الحقيقي، وهنا يمكنك البحث بلا كلل ولا ملل.

معظم التقدم في الحياة مرهون بالتوقف عن الأشياء السيئة التي تمارسها بالفعل، لا باجتراح أشياء جديدة، بما يجب التوقف عنه، لا البدء به.

خيركم خيركم لأهله (مقال)

حديث مقتضب لكن مرعب في دلالاته، لأنه يقول لك بكل بساطة، إن قيمة العمل لا تتحدد بعدد المستفيدين منه، بل بمقدار قربك من الشخص الذي يوجَّه العمل إليه، فأن تواسي أمَّك بكلمات بسيطة، خير لها من أن يواسيها آلاف الغرباء وخير لك من أن تواسي آلاف الغرباء، ما تقوله سيمكث في قلبها، وما يقوله الآخرون وتقوله للآخرين لا يلبث أن يزول، والدرهم الذي تضعه في يد والدك، خير من آلاف تنفقها على غيره أو يأتي بها غيرك، وكذلك اللعبة التي تلعبها مع ابنك، والساعة التي تقضيها مع زوجتك، إلخ.

هذا الحديث يعرِّينا أمام أنفسنا، يجعلنا نراجع كل ما نفعله، ويُسائل دوافعنا الحقيقية لعمل الأشياء، تريد الخير؟ إن أفضل أفعالك يا إنسان تحدث في غرف مغلقة، لأناس محدودين، حيث لا يراك أحد، لا يشكرك أحد، ولا يصفق لك أحد، حيث لا ميداليات ولا تكريم ولا كاميرات ولا ابتسامات من غرباء.

لكن بعيدًا عن فكرة التعرية هذه، فالحديث ليس ترفًا فكريًا، بقدر ما يوجِّهنا فعلًا أن ما ينتج عن «خيركم خيركم لأهله» هو الأصل وهو الباقي وهو ما يمكث في الأرض، وكل ما سواه رتوش، ويتضح ذلك عندما لا تنفذ الوصية التي يحملها هذا الحديث، فكل رجال العالم مثلًا، لا يمكنهم منح الثقة لفتاة، إذا لم يعطِها إياها والدها، كل منظمات المجتمع المدني لا يمكنها احتضان روح طفل غابت عنه أمُّه، وكل مسليَّات الدنيا ومباهجها -بما في ذلك الرجال الآخرون- لا تعوِّض زوجة عن هجران زوجها، ولذلك

أغلق النبي -صلى الله عليه وسلم- بنفسه الدائرة حين قال: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع من يعول»، أضع من تعول، ولن يستطيع المجتمع كاملًا لملمة ما أضعت! هذا سرُّ الأمر كلُّه.

للمرة المائة ربَّما، أكرر أن هذا النبي الفيلسوف لم يُدرَّس بعد، لم نقرأه بعد، أخذنا تمراته وسواكه ولحيته وكأن هذه الأشياء هي ميراثه الوحيد، أما حكمته التي تصلح لإنقاذ إنسانية بأكملها، فلا تزال مدفونة في بُطُون الكتب.

الجذع المائل

أعظم آلام الإنسان تلك التي تحدث له في طفولته ومراهقته، لا لضعفه النسبي وقتها، بل لأن المفاهيم التي تعينه على تقبل تلك الآلام وتحييدها وتجاوزها لا تكون قد تشكلت ورسخت بعد، فتأتي الآلام وتشكِّل تلك المفاهيم وتشوهها كما تشاء...

شبه هذا تمامًا أن يتسبب ثقل بسيط بانحناء ساق النبتة الصغيرة، مجبِرًا إياها أن تنمو وتعيش حياتها كشجرة مائلة الجذع، ومع قوتها اللاحقة وقدرتها على تحمُّل أثقال أكبر بكثير من ذلك الثقل الأول دون عناء، إلا أنها لا تستطيع أن تفعل شيئًا حيال ما خلَّفه ذلك الميلان القديم.

طبعًا، قد يجادل البعض في أن النضج ما هو إلا القدرة على تجاوز آلام الطفولة وخيباتها، وهذا ما كنت أظنه، غير أني قد أدركت لاحقًا أن النضج هو إدراك ما فعلته آلام الطفولة دون القدرة الحقيقية على تحييد آثارها، النضج هو التعايش مع حقيقة الجذع المائل، هو أن نستوعب أنه لا يمكننا تعديل جذع الشجرة المائل بمجرد الحديث معها.

من هنا تأتي الدعوات الدائمة لحماية الأطفال، ومن هنا يبذل الآباء والأمهات كل جهد ممكن ليجنِّبوا أطفالهم أي معاناة مَرُّوا هُم بها، على الأقل حتى يشتد عودهم قليلًا وترسخ مفاهيمهم التي تحميهم، لأن الأذى في الصغر ليس نقشًا في الحجر وحسب، بل شرخًا وتشويهًا دائمًا به.

عندما يموت والدك...

فقط عندما يموت والدك، تتوقف عن عتابه، تسامحه، تدرك أنه لم يكن بإمكانه في الحقيقة أن يفعل أكثر مما فعل.

فقط عندما يموت الأب، تدرك أنه كان بشرًا عاديًّا، بقدرات وإمكانات وأخطاء البشر حتى، تدرك أن هذا الرجل الذي طالبته بأكثر بكثير مما يطيق، ليس سوى إنسان بسيط، يمكن هزيمته، وها قد هزمه الموت.

فقط عندما يموت، تتمنى لو تصالحتَ مع هذه الحقيقة قبل ذلك، وأعطيته بدل الكثير من العتب الغاضب، القليل من الحبِّ والتفهُّم، وهنا يبدأ الحزن...

الموت بحثًا عن معنى...

عائدًا من عملك مساءً إثر يوم طويل مرهق، تلمح إلى اليمين منك ملعبًا بسيطًا لكرة القدم، ساحة ترابية لا يضيئها سوى نور خافت آتٍ من الشارع، ومرمى من عوارض خشبية باهتة تحيط بِه شبكة متهالكة، لدهشتك تجد أن على مكان نقطة الجزاء، تستقر كرة قدم بيضاء، ومع أنك ترتدي بذلة رسمية وتنتعل حذاءً مزعجًا، فإن المشهد يغريك، تخطو داخل الملعب، تقف بقرب الكرة مواجهًا المرمى الفارغ، تتراجع للخلف منحنيًا قليلًا، كما يفعل اللاعبون الكبار، ثم تندفع وتسدد بكل قوتك، فتستقر الكرة في أعلى الزاوية اليسرى للشبكة، تدور قليلًا حول نفسها على الأرض قبل أن تسكن تمامًا، معلِنة عن هدف لم يشاهده أحد، يرتسم على شفتيك شبح ابتسامة فخورة، وتهم بمغادرة الملعب غير أنك تسمع تصفيقًا ما، رجل عجوز على مقعد خشبي أخفاه ظلام الليل في جانب الملعب، تبتسم للعجوز الذي يقول بثقة:

- حاول مرة أخرى.

يُضاء الملعب وتتحول أرضيته إلى عشب أخضر ندي لامع، تتبدل العوارض الخشبية المهترئة بأخرى مطلية بأبيض براق، وأمام الشبكة الجديدة المشدودة يقف حارس مرمى مرتديًا بذلته الرياضية كاملة ومتأهبًا كأسد، على نقطة الجزاء تستقر كرة قدم بيضاء لامعة تغطيها خطوط ملونة، تتراجع خطوتين للوراء وعيناك تضيقان، وبتركيز كبير تضرب الكرة بحذائك الرياضي الفخم، يقفز الحارس في اتجاه الكرة، لكنها تسبقه، وتستقر في مكانها السابق، أعلى الزاوية اليسرى للشبكة!

تساعدك ملابسك الحمراء الرياضية هذه المرة على القفز فرحًا وتلكم الهواء بقبضة يدك! يصفق العجوز مرة أخرى ويكرر:

- الآن، حاول مرة أخرى.

يتضخم الملعب كثيرًا، وتمتلئ مدرجاته بعشرات آلاف الناس، وعشرات آلاف الأعلام، وتنير كشافات عملاقة جوانبه الأربعة فيبدو أن النهار قد طلع، تلمح مقصورة ملكية، يجلس فيها عدة رؤساء، وأمامهم كأس عالم ذهبي لامع، على شاشة ضخمة تظهر معطيات المباراة، نهائي كأس العالم، بين بلدك وبلد آخر، النتيجة هي التعادل أربعة لأربعة، وأنت ستسدد ركلة الجزاء الأخيرة!

تثبِّت الكرة في مكانها بيدين مرتعشتين، وبينما تتراجع إلى الخلف تحضيرًا للتسديد، تخفت أصوات الجماهير وتنحبس أنفاسهم وأنفاسك، تتلمظ شفتاك بحثًا عن الريق الذي هرب، تلقي نظرة أخيرة خلفك لتجد لاعبي منتخبك الوطني جاثين متضرعين على ركبهم، وبينما تحيط بك آلاف الكاميرات التي تلمع كنجوم، تحسُّ بثقل العالم كله على رأسك، تغمض عينيك قليلًا ثم تندفع باتجاه الكرة وتسددها بقوة واضعًا روحك كلها في قدمك، وبعد أجزاء من الثانية تبدو كدهر، تستقر الكرة في أعلى الزاوية اليسرى للشبكة، فيجنُّ جنون العالم، وجنونك معه!

في الحالات الثلاثة، كان الفعل الفيزيائي نفسه، لكن الشعور في داخل صدرك تغير بتغيُّر التأثير الذي أحدثه الفعل الذي قمت به، وهذا ما يُعرَف اختصارًا بالمعنى، والمعنى شيء حصري للإنسان، لا تملكه المخلوقات الأخرى، إنَّما نشترك مع الحيوانات في شعور آخر مشابه، ألا وهو شهوة الاحتياجات الأساسية والرضا بعد إشباعها، شهوة الطعام والجنس والدفء، إلخ، فما الفرق بين الشهوة والمعنى؟ وأيُّهما أهم؟

الفرق الأول هو أنَّ الشهوة عمل ذو طابع فردي، أي أنَّه لا يهدف إلى إشباع الآخرين، بل إشباع ذاتك أنت فقط، بينما المعنى، يمتد إلى خارج

ذاتك، الفرق الثاني والأهمُّ، هو أن الشهوة لها حد معين للإشباع لا يمكن تجاوزه، أي أنك تتحرك في مجال الشهوة بشكل أفقي، قد تأكل اليوم ضلع خروف مشويًا، غدًا سمكًا مقليًا، بعد أسبوع شرائح عجل متبلة ومطبوخة، ثم ماذا؟ لا شيء أكثر، مستوى الرضا نفسه وإن تعددت مسبباته، وما يحدث في الطعام يحدث في الجنس أيضًا، امرأة شقراء اليوم، سمراء غدًا، قصيرة، طويلة، شابة، ناضجة، عجوز، شعر أسود، أحمر، أصفر، بدِّل كما شئت، مستوى الإشباع نفسه، لا يمكنك تجاوزه، إنما يمكنك فقط التنويع والحركة بشكل أفقي، المعنى على الجهة المقابلة يتحرك بشكل عمودي كما شاهدت في مثال كرة القدم، في كل مرة مردود الفعل يكبر، يرتفع مستوى الرضا.

في بيانه، الذي عنونه «الاستبدال العظيم» قال منفذ هجوم نيوزلندا الإرهابي إن أهم أسباب انحطاط أوروبا هو أنه هناك ثلاث فلسفات مسمومة سادتها: العدمية (غياب الغاية من الحياة)، الفردانية (الاهتمام بالذات فقط)، والشهوانية (التركيز على إشباع الشهوات)، لو ركزت قليلًا في هذه الفلسفات، ستجد أنها جميعًا تحث الإنسان على عبادة شهواته للحصول على السعادة، لكن لأن الرضا الذي تمنحه الشهوات (بعكس المعنى) يتحرك بشكل أفقي فقط، فقد خسر الإنسان الأوروبي معنى حياته، وأصبح يتنقل حائرًا من شهوة إلى أخرى في بحث محموم ويائس عن السعادة، لكنه لم يجدها، والسبب الأساسي لذلك هو غياب المعنى، ولذلك تُصدَم أنت عندما تجد شخصًا مشهورًا يملك كل شيء تقريبًا يقوم فجأة بالانتحار، يبدو لك من بعيد أنه لا سبب يدفع ذلك الشخص للانتحار، لكن الحقيقة أن ليس هنالك شيء يدفعه للحياة، مجرد أيام تتوالى بلا معنى، وشهوات أُشبعَت حتى لم تعد تعني شيئًا، فلماذا فعلت أوروبا ذلك؟ لماذا اختارت قتل المعنى؟

فعل الأوروبيون ذلك ببساطة لأنهم هدموا أهم مؤسستين يمكن لهما منح الإنسان المعنى؛ الدين والأسرة، لكن لماذا فعلوا ذلك؟ فعلوا ذلك لأن

المعنى بقدر ما يمكن له أن يحمل من السعادة، يمكن له أن يحمل الألم، أطفالك سيمنحونك سعادة لا مثيل لها، لكن في حال موت أحدهم، فإن كل الدنيا لن تستطيع مواساتك، فَهِمَ العَدَميُّون هذا الأمر تمامًا، وليبتعدوا عن احتمال الحزن هذا قاموا بإلغاء المعنى تمامًا، بحزنه وفرحه، واستبدلوا به الشهوة التي لا يمكن لغيابها أن يمنحك الحزن، إنما مجرد حرمان فقط، ما يلبث أن يزول بعد الإشباع.

مؤخرًا بدأت هذه النظريات السامة تنتشر بكثرة في مجتمعاتنا، ويدل على ذلك جُمل مثل: «لا تتزوج؛ سافر»، «الشاورما أفضل من الحب»، «القطط أفضل من الأطفال» هذه الجمل تحاول بغير وعي نزع فكرة المعنى من حياة الإنسان عبر التحجج بالألم الذي قد تحمله، واستبدال بذلك شهواته وإشباع شهواته، ويُضاف لهذا المزيج طبعًا رضوى الشربيني ورفيقاتها اللواتي يؤكدن دومًا أن الخيار الأول عندما يتعرض الإنسان لألم ما في علاقة، هو تركها والعيش منفردًا.

قد يبدو من الرائع فعلًا أن يعيش الإنسان من أجل لذاته فقط، متنقلًا من بلد لآخر ومن مطعم لمطعم ومن امرأة إلى أخرى، دون الدخول في أي علاقة شائكة ومعقدة قد تحمل الحزن والهم والمسؤولية، لكن عليه أيضًا أن يتذكر أن هذه العلاقات المعقدة والكثيفة -مع ما تحمله من قلق وألم ومسؤوليات تضني نهارًا وتقلق ليلًا- هي المصدر الوحيد الذي قد يمنح المعنى لحياته.

ربَّما على الإنسان أن يدرك أن المعنى الحقيقي لحياته يكمن خارج حيِّز جسده، ولا يمكن لهذا المعنى أن يتحقق دون الاشتباك مع حيوات الآخرين، وإنه إن لم يخاطر بتحمُّل الألم الناتج عن هذا الاشتباك، فمن الممكن جدًّا أن ينتهي به العمر في ملعب ترابي لكرة القدم، يسدد الكرة في المرمى الخالي، فيحرز هدفًا لا يحتفل به أحد.

من قصاصاتي (6)

- أجمل القُبَل تلك التي لا تستأذن، التي لا تعرف المراسيم ولا البروتوكولات ولا السجاد الأحمر ولا الوقوف دقيقة ريثما تعزف الموسيقى، تهطل فجأة عليك من اللامكان، وتخترق لحمك كسكِّين وحشي، بلا تمهيد ولا جسِّ نبض ولا مواربة، أجمل القُبَل تلك التي تحدث أولًا، ثم تستوعب أنها حدثت.
- الحالة الوحيدة التي يمكن للإنسان فيها أن ينجو من وجود أعداء له، هي ألا يكون له رأي في أي شيء، أن يكون مجرَّد شجرة مثلًا، أو صخرة، أو كرسي خشبي في حديقة.

  في اللحظة التي تخلق فيها رأيك الأول، تبدأ بتخليق أعدائك.
- يلاحظ الإنسان التغيُّر في كلِّ شيء من حوله، في الأمكنة والنَّاس والأشياء، ويشكو أيُّما شكوى من ذلك، باثًّا حنينه إلى ما مضى، لكنَّه في الوقت نفسه، يعجز عن رؤية ذلك التغيير في ذاته هو، وكأنَّما هو نقطة مرجعية ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، يرفض الإنسان أن يكبر، يرفض أن يمرَّ.
- أعتقد أن أهمَّ سؤال على المرء أن يجد إجابة عنه هو: «عن ماذا أبحث بالتحديد؟».
- يجلس أعرابي في حضرة النبي –صلى الله عليه وسلم– مرتعدًا من هيبته، فيطمئنه النبي قائلًا: «هوِّن عليك فما أنا بملِك، إنَّما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بِمَكَّة». والقديد هو اللحم

المجفف، ويدل تناوله على بساطة الحال. من يتبع رجلًا بهذا الفكر، كيف تنحني رقبته لملوكٍ وسلاطين؟!

- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة طه]. لم يزد الله في تطمينه لأنبيائه على ذلك، لم يقل سأفعل كذا وكذا، فقط أسمع وأرى، وكأنه يقول: أنا موجود، وهذا يكفي. فاللهم إنك تسمع وترى، ولا نزيد في دعائنا على ذلك.
- أستغرب من أولئك الذين لا يؤمنون بالله! من يحميكم من عبثية العدم؟ من ترجون أن يكافئكم على الخير الذي فعلتموه وضاع؟ من سيعقد المحاكمات لأولئك الذين آذوكم؟ من هذا الذي تلجؤون إليه عندما تنطبق السماء على الأرض؟ من يمسح الألم عن قلوبكم قبل أن تناموا؟ في حضرة من تبكون؟

الفرح... (قصة قصيرة)

تفتح الكاميرا فيما يبدو أنه تسجيل منزلي من كاميرا محمولة، يظهر الوقت في شاشة الكاميرا عائدًا لسنة 2015، وبينما تظهر وتختفي دائرة حمراء في طرف الشاشة المهتزة، يظهر في الكادر رجل في أواخر الأربعين، حليق الوجه وبشعر مفلفل وقميص أخضر مزركش من موضة الثمانينيات، يجلس على أريكة صفراء قديمة، ويمسك بيده اليسرى سيجارة مشتعلة، ينظر الرجل مباشرة نحو الكاميرا ويقول:

- شو بتصوري يا هبلة أنتِ؟

يسمع صوت الفتاة وهي تضحك، بينما تستمر الكاميرا بالتسجيل.

- مشروعي يا خالو، مش قلت لك عنه؟

- راح تطلعيني على التلفزيون يعني؟

ترد الفتاة المصوِّرة بجدية مصطنعة:

- آه خالو أكيد، في أخبار التمانية، بعد ما يحكوا عن الملك على طول، بتطلع أنت.

- شوف! لا لا، اعرضيه الصبح، خليني بعيد عن الملك، بعمل لي حموضة!

يسمع صوت ضحكة عالية من حوله، فتلتف الكاميرا نحو اليمين، ليظهر صاحبها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره مسترخيًا على الأريكة الموجودة إلى يسار الرجل، وممسكًا بهاتفه الخلوي، وبقربه تجلس

أمه الأربعينية التي تقوم بتنقية بعض العدس، وتقول الأم موجِّهة كلامها للرجل الأربعيني:

- بدكاش يا تيسير تروح معنا نبارك لخالي بتخريج ابنه؟ أنا وإمي رايحين اليوم المغرب.

- لا ياختي شو موديني؟! هذا زلمة لقلوق، واليوم فرصته يحكي، والله لو بلش قصة من قصصه ما نروِّح من عنده للفجر، خليني في الدار أحسن لي.

يُسمَع صوت عجوز، وتنتقل الكاميرا إليها، لنجدها على يمين تيسير، تتربع على سرير قديم بملاءة زرقاء، وتقول بعتب وهي تمط شفتيها المتجعدتين:

- هيك بتحكي عن خالك الكبير يا تيسير؟

- هيك وأكثر، هو يعني بتفكري عشانه أخوك بدي أجاملك؟ لا والله ما بجاملك، أخوك لقلوق وأنتِ عارفة، لازم لما بده يحكي قصة يرجعنا لأصلها وفصلها، واليوم أكيد راح يسولف لنا عن بطولات ابنه، بس ما راح يبدا من لما انولد النضوة، لأ، راح يبدأ لنا من هجرة الرسول للمدينة، من عند طلع البدر علينا، ويسحب.

تُسمَع ضحكات الجميع باستثناء الجدة المتجهمة وتهتز الكاميرا على وقع ضحك الفتاة التي تمسكها، فيكمل تيسير بنفس النسق:

- شو الهجرة؟ الهجرة بكير والله، صدِّقي ليرجع لنا من عند «إني جاعل في الأرض خليفة».

يغرق الجميع في ضحك متواصل باستثناء الجدة وتيسير الذي يكمل:

- ولك ليش لسه بتصوري فيِّ أنتِ يا هبلة؟ روحي صوري أبوك، اللي قاعد بصلي وبضحك، تقول بحضر لعادل إمام.

تدور الكاميرا دورة كاملة، ليظهر رجل في بداية الخمسين، يرتدي جلابية بيضاء، ويجلس للتشهد على سجادة صلاة خضراء قديمة في زاوية الغرفة، ويحاول جاهدًا كتمان ضحكته، لكن اهتزاز كتفيه يفضحه، ويُسمَع صوت تيسير مرة أخرى:

- بتصلي وبتضحك يا عوني؟ والله غير ربنا يشلع ذينيك.

هنا ينهار الرجل من الضحك، ويستلقي على قفاه، وهو يضحك دامعًا ويردد:

- الله لا يوطرز لك يا تيسير، الله لا يوطرز لك.

* * * *

مشهد ليلي، يظهر فيه تيسير، وهو يجلس فوق سطح منزله على كرسي حديدي، مستندًا بظهره إلى جدار رمادي غير مدهون، ويستند بيده اليمنى على حافة السور، مادًّا بصره نحو أضواء المدينة، فجأة يخرج من عتمة الليل الصامت، ذكر حمام أسود كبير الحجم، تطوق رقبته غلالة خضراء تزيده جمالًا، يرفرف الطائر بجناحيه قبل أن يستقر بقرب تيسير تمامًا، ثم يقفز بقدميه الحمراوين الصغيرتين إلى حضن تيسير، الذي يحتضن الطير بين يديه، ويبدأ بالتربيت عليه بحب وحنان، بينما يمسح الطير رأسه بصدر تيسير.

* * * *

تفتح الكاميرا على مشهد علوي وكأنها معلقة في سقف غرفة، بهدوء، تجول الكاميرا في الغرفة لتظهِر محتوياتها، بينما يُسمع صوت فيروز في الخلفية وهي تشدو (حبَّيتك تا نسيت النوم، يا خوفي تنساني).

في أقصى اليمين، يظهر سرير فردي يزينه غطاء أبيض تتناثر عليه رسومات لحمائم سوداء اللون، في وسط الغرفة، سجادة حمراء قديمة تنعكس عليها أشعة الصباح، وبينما تمشي الكاميرا بمحاذاة خزانة خشبية قديمة، تظهر بعض الصور المعلَّقة على الحائط، صور لميسي، وفرانك

ريكارد، وكاظم الساهر، وفيروز، وآخرون، تستقر الكاميرا أخيرًا أمام المرآة، حيث تقف فتاة عشرينية تعدل حجابها أمام المرآة، وتضع اللمسات الأخيرة على هندامها، بينما تردد مقاطع الأغنية مع فيروز.

«وأتهرب من نسيانك، ما اطلع بمراية».

يُسمع في الخلفية صوت الأم وهي تقول:

- يلا يا عوني، بلاش يتأخروا الولاد، يلا يا سند يا ماما، يلا يا فرح.

تغلق الفتاة هاتفها، فيختفي صوت فيروز، ثم ترسم بقلم الحمرة وجهًا مبتسمًا على المرآة، قبل أن تغلق الباب وتخرج وهي مبتسمة.

* * * *

قاعة دراسية في جامعة، تظهر فيها فرح وهي تجلس على مقعد خشبي وتسند رأسها على راحة يدها، يشاركها المقعد شاب يكبرها بعام أو عامين، ويستمع الاثنان باهتمام لمحاضر ستيني أشيب يبدو عليه الذكاء، يمسك المحاضر نظارته بيده اليسرى ويشير باليمنى ويقول:

- وإذا بدنا تترسخ نظرية الاستبصار في عقولنا، لازم نمارسها عمليًا، عشان هيك بدي كل شخص منكم، من هون للمحاضرة الجاي، يناقش مع زميله أو زميلته الجالس بجانبه فكرة معينة، ولتكن تعريف النجاح مثلًا، ناقشوا انتو الاثنين الفكرة نفسها، من كل جوانبها، حاولوا تفهموا العلاقات اللي بتشكل المشكلة، منه بتتعلموا التفكير النقدي، والنسبية، والاستبصار، ومنه بتتعلموا كيف توصلوا مع شخص غريب فكريًا عنكم لأرضية مشتركة من الأفكار، والمحاضرة الجاي قدموا لي التعريف المشترك اللي وصلتوا له.

وبينما يصمت المحاضر ويبدأ بلملمة أوراقه، يبدأ كل طالب بالحديث مع الزميل أو الزميلة المجاورة، وهنا تنظر فرح باتجاه الشاب الذي يجلس بجانبها وتمد يدها باتجاهه، وتقول بودية:

- فرح كوكش.

يصمت الشاب قليلًا ويبدو عليه الارتباك وهو يصافح الفتاة، فتضيف فرح:

- سنة ثانية تغذية.

فيقول الشاب بصوت متقطع:

- أهلًا.

يسود صمت مريب، وحيث يُنتظَر من الشاب أن يعرف عن نفسه فإنه يكتفي بصمت خجول، لكن فرح تقطعه وتقول بجدية مصطنعة وبنفس نبرة التعريف عن ذاتها:

- 54 كيلو.

يصمت الشاب لوهلة أمام نظراتها الجادة، ثم ينفجر فجأة بضحكة تضطره لوضع يده على فمه، يحاول الكلام ثم يضحكان معًا، قبل أن يهدأ ويقول:

- عمر المعاني، رابعة هندسة (ثم يضيف مبتسمًا) 80 كيلو.

وتلمع ابتسامة متزامنة في عينيهما.

* * * *

يظهر عمر وفرح على كرسي حجري تحت ظلال أشجار الجامعة، وبينما يحتسي كلٌّ منهما قهوته، يخوضان في حوار:

- يعني أنتِ ما بتآمني بالتنمية البشرية؟

- شوف عمر، أنا متفائلة دائمًا، وبآمن بالتحفيز وهيك، بس الفكرة اللي قائمة عليها التنمية البشرية إنه كن لتكون، لا ما بآمن فيها.

- ليه طيب؟ مع إنه معقولة ومنطقية، كل إنسان بصنع قدره، والأمثلة تُعد ولا تُحصى.

- عمر أنا مو ضد إنه الإنسان يشتغل على حاله، بس فكرة التنمية البشرية بتدمر الإنسان من حيث بتدعي إنها بتبنيه، لأنه بنفس الوقت اللي بتنسب للإنسان نجاحه لو نجح، فهي بصورة خفية بتنسب له فشله لو فشل، في إغفال خلينا نقول «رأسمالي» للظروف المحيطة.

- كيف يعني؟

- يعني ياما ناس نجحوا لأنه ظروفهم ساعدتهم ينجحوا، وبتلاقيهم بتبجحوا وبقولوا نجحت بذراعي، وهذا إنجازي، وإلخ، وبتلاقي ناس كثير بصفقوا لهم، وهذا شيء خادع، وبالمقابل في ناس كثير حياتهم تدمرت، إما لظروف أكبر منهم، أو معوقات أو غيره، وهدول بنقال عنهم فاشلين، مع إنه هاد غلط، صح؟ بعدين فكرة تقديس النجاح وكأنه الهدف الوحيد في الحياة، بحسها كثير خطرة.

- ليه خطرة؟

- لأنه هذا الشيء ممكن يدفعك تدوس على أي شي في مقابل نجاحك، قيمك أخلاقك، وحتى الناس اللي حواليك.

- مش بالضرورة فرح، وبعدين لو ما كان الهدف من الحياة هو النجاح، شو هو لكان؟

- برأيي؟ هدف الحياة هو العطاء، وإنك تعيش حياة سعيدة مع اللي بتحبهم وبحبوك.

- بتحبهم وبحبوك، همممم.

يبتسم عمر فتنزِل فرح رأسها خجلًا، قبل أن يستطرد:

- لكان خليني أروح ألحق محاضرة الثيرمو، لأنه الدكتور كثير بحبني وبحبه، ولو غبت عنها اليوم، راح تكون نهاية علاقتنا العاطفية.

تضحك فرح، وتودعه بقلب مبتسم.

* * * *

عمر وفرح مرة أخرى، لكن هذه المرة على طاولة بيضاء في كافتيريا الجامعة.

- فيلمي المفضل؟ «جود ويل هانتنج»، دون أي مناقشة.

- هو فيلم جميل فعلًا، بس نهايته صادمة، إنه بس وصل المجد، تركه كله عشان هديك البنت، حسيتها نهاية مش منطقية، كان ممكن يظلوا مع بعض ويبني حياته بنفس الوقت، ليه لازم يكون في تضحية، إما هيك وإما هيك؟

- مو قصة تضحية عمر، بس الفكرة إنه بطل الفيلم وصل للمعنى بالنهاية، الشيء اللي بريحه.

- يمكن.

- يا ريت يعملوا منه جزء تاني، نفسي كتير أشوف مات دايمون بهاد الدور كمان مرة، بتعرف؟ غريبة السينما، بتعلقك بشخصية، وبتخليك تحبها فعلًا، وبس تحبها وتتعلق فيها، فجأة بكتبوا لك «النهاية»، نهاية شو الله يرحم والديك؟ لسه ما شبعت من البطل أنا، بدي كمان.

تظهر الأم وهي تقف أمام المرآة في غرفة نومها، مرتدية ثوبًا قطنيًّا أبيض وتمشِّط شعرها الأسود الطويل المبتل، بينما يجلس زوجها على طرف السرير.

- قول عوني، شو في؟ سامعتك.

- ما بدي لُبنى، خلصي تمشيط وتعالي، ما بحب هيك أحكي معك وأنتِ مشغولة.

تربط لُبنى شعرها، ثم تأتي لتجلس بقرب زوجها على طرف السرير، وتقول:

- قول يا زلمة، شو في؟

ينظر عوني في عينيها، ويتحول قلقه المصطنع رويدًا رويدًا إلى ابتسامة كبيرة قبل أن يصرخ:

- وقعت عقد مشروع الكرسي! القلل الأربع اللي حكيت لك عنهم!

تعقد الدهشة لسان لبنى، وتتسع حدقتا عينيها، وتسأل وهي لا تكاد تصدق:

- قلل عبد العزيز شكري؟

يهز عوني رأسه مؤمِّنًا على كلامها! بينما تتراجع هي إلى الخلف، وتملأ ابتسامتها المدهوشة وجهها وهي تقول:

- لا، لا، لاااااااااااااا.

يقترب منها وهو يقول:

- آه، آآآآآه، آآآه.

ويحتضنها بقوة، فتميل رأسها على كتفه وهي تقول:

- ياما أنت كريم يا رب، ياما أنت كريم يا رب.

* * * *

تظهر فرح وهي لا تزال سارحة في أفكارها بعد أن غادر عمر، تلمح صديقتها ضحى تقترب منها، فتتصنع بكذب كوميدي مفضوح، أنها لا تراها، وتحاول القيام من على الطاولة والهروب وهي تنظر نحو السقف، قبل أن تضع ضحى يدها فوق يد فرح، التي تتصنع الدهشة، وتعود للجلوس إلى الطاولة مواجهة نظرات ضحى الحادة.

- شو ستّ فرح؟ شايفة مادة الفلسفة خلصت ولسه «هوم وورك» الاستبصار ما خلص!

- في «هوم ووركات» هيك ضحى، طويلين الأمد، بضلوا فصل وفصلين بعد ما المادة تخلص، شو بدي أعمل يعني؟ هاي قوانين الجامعة! بدك إياني أرسب؟ ليكون بدك أرسب؟

- فرح، فرح (تستنكر ضحى وهي تطرق بأربعة أصابع على الطاولة).

- ضحى لا تكبري الموضوع، بعرف شو بدك تقولي، بس صدقيني مجرد زمالة، ما في شي أكتر من هيك.

- حكيتي له عن أهلك؟

- لا طبعًا، ليش بدي أحكي له عن أهلي؟ شو هالسؤال هاد؟

- لأنه هاي أول علامات الغرام، إنك تحكي للي بتحبيهم عن اللي بتحبيهم.

- ما بحبه ضحى، أنتِ مكبرة الموضوع، شو بيني وبينه أحبه؟ بقول لك مجرد حوارات عابرة، يعني أنا عارفة إنه يمكن يكون غلط اللي بعمله، بس والله بحس إني بحاجة هاد الشي، بس مش حب، حب شو؟ أنا تبعة حب؟ يا ضحى أنا قد ما أنا ضد الحب، سورة يوسف بطلت أسمعها، لأنه فيها حب وشغفها حبًا، بتقولي لي حب؟

تبتسم ضحى للدعابة، وتكمل:

- طيب لا تحكي له عن أهلك، هيني حذرتك.

- رجعت تقول لي أهلك، شو دخله بأهلي هو؟ قال أحكي له عن أهلي.

* * * *

- شوف يا سيدي، هاد بيتنا، هو يعني مش بيتنا بيتنا، بس إلنا مستأجرينه من زمان، وهاد اللي ماسك العود سند، أخوي الصغير، بالصف العاشر، مغني من الطراز الرفيع، هلأ بسمعك، وهاد اللي جنبه خالو تيسير، أحلى واحد بالعالم، وهاي تيتا، إم ماما، عايشة هي وخالو تيسير معنا، وهاد بابا، كان يشتغل مهندس مدني بشركة، وهلأ فتح شركة إله، وهاي ماما، كانت معلمة بالحكومة، واستقالت السنة الماضية، استنى أورجيك فيديو بغني فيه سند، لحظة.

تضغط فرح على أيقونة على هاتفها، فيبدأ عرض الفيديو، بينما يتابع عمر باهتمام.

يظهر سند وهو يجلس على الأريكة الصفراء ويمسك عودًا بيده، وبقربه يجلس تيسير وهو يرتدي بنطالًا رياضيًّا أخضر وفانيلا بيضاء.

- جاهزة يا فرح؟

- آه بصور، يلا.

يبدأ سند بالغناء والعزف، بينما يتمايل تيسير على الألحان.

ومنيـن أبدا يا قلبي، لو قلت فنون..

اوصف خدًا بالأول، ولا العيـــــــــون..

خايف لو قلت عيونا، تزعل الجفـــــون..

واللي فينا مكفيـــــنا، ما بدنا غبـــــون..

يغمض تيسير عينيه، ويهز رأسه يمنة ويسرة طربًا، بينما يعزف سند لحن الكوبليه، وهو ينظر إلى أخته ويهمس كلمات الاغنية وكأنها لها، قبل أن يكمل.

حواجب جوز سيوف بتحكم بالمـــــوت..

إن هزت حاجب عا حاجب بيدب الصـوت..

وصرت موضة قديمة يا..

تظهر الأم في الفيديو وهي تأخذ العود من سند وتوقف حفلة الطرب، يستيقظ تيسير على ما حدث، فيبدأ بالعتاب.

- أوووووووف، لازم هادمة اللذات تخرب اللحظات الحلوة، لازم، بتموتي لو شفت شي ماشي منيح.

تتجاهل لبنى عتاب أخيها، وتقول:

- تعال يا سند اقرأ لي سورة الكهف، وسيبك من خالك هاد، اللي ما بيجي من وراه غير المعاصي.

ينفعل تيسير:

- معاصي؟ وك أنتِ شو بعرفك بالدين أنتِ؟ خليك عالواتساب والتمساح اللي بسجد أحسن لك، بدك تضيعي موهبة الولد بسواليفك التعبانة، صدقي لأظل وراه وأدعمه لغاية ما أشوفه مطرب كبير، لابس هالبدلة الفضية زي عمرو دياب هيك، والبنات برقصن حواليه.

يبتسم سند ويذهب وراء أمه، وينتهي الفيديو.

* * * *

مشهد ليلي، ويبدو عوني وهو يجلس مع زوجته في ساحة منزلهم على كرسيين بلاستيكيين، وأمامهما طاولة بلاستيكية رمادية، عليها إبريق للشاي، وكأسان زجاجيتان، وبعض أوراق النعنع.

- بتعرفي؟ لما برجع بفكر في اللي كنا نحكيه زمان، بكتشف إنه تيسير كان معه حق، يعني لو الواحد بده يظل يحكي هذا الغلاء فقاعة، والتجار استغلاليين، والحكومة حرامية، شو راح يتغير بالدنيا؟ ولا شي، كأننا بنحارب طواحين الهوا، خلص لازم نقتنع، إنه في كتلة نقدية كبيرة دخلت البلد، كيف ليش مش مهم، المهم دخلت، والأسعار ارتفعت أكثر بكثير من الأجور، وفش حل فعلًا إلا إنه الإنسان يزيد دخله، فالحمد لله إنه ربنا كفاها معنا وقدرت أفتح الشركة.

- مزبوط، بس كمان شغلة الشغل الحر بتخوف عوني، لازم تدير بالك.

- بتخوف صح لبنى، بس عارفة شو اللي بخوف أكثر منها؟ الهشاشة اللي بعيشها الفقير، أنا هاي الهشاشة عشتها كلها، وما بدي ولادي يعيشوها.

- كيف يعني هشاشة؟

- يعني أنا بتذكر حياتنا لما كنا صغار، ابتدائي تقريبًا، أو إعدادي، كنا ساكنين في بيت البقعة، وكان رحمة أبوي يشتغل عامل في مصنع البلاستيك، وكانوا كل شهر لازم يأخروا عليه الراتب، مرات يقبض ثلاثة الشهر، مرات خمسة الشهر، مرات عشرة، ومرات تسحب لنص الشهر حتى، ولا مرة أعطوه الراتب على الوقت.

طبعا إحنا كنا شو؟ عايشين شهر بشهر، مهو رحمة أبوي شو كان يعني؟ عامل، فالمهم لما يتأخر الراتب، وهذا شي كان دايمًا يصير، كانت حياتنا كلها تتكركب، تلاقي الدكنجي بطل يعطينا عالدفتر، لأنه ما دفعنا حساب الشهر الماضي، وتلاقي أبو شكري صاحب البيت يجي جاي يطردنا من البيت، فنصير نصبِّر هذا شوي، وهذا شوي، لغاية ما ينزل الراتب، والشهر اللي بعده يصير نفس الشي.

فهيك كان الوضع، هاي هي الهشاشة، إنك تكون في كل لحظة مهدد إنه ولادك يجوعوا أو يتشردوا، وأنا ما بدي ولادي يصير فيهم هيك، بدي يكون عندهم بيت يحميهم، بدي يكون عندهم مصدر دخل يرتكزوا عليه، بدي يكون عندهم الأمان اللي فقدته أنا، عشان لو في يوم مالت عليهم الدنيا، أو ربنا أخذ أمانته، ما يحسوا باللي كنت أحسه زمان.

- بعيد الشر عنك، شو قاعد بتحكي يا زلمة أنت؟!

- لما توفي أبوي، كان ظايل له مستحقات على المصنع، راتب الشهر اللي مات فيه، ونهاية خدمة، وشوية شغلات ثانية، بالمهم تأخروا لصرفوا إلنا إياهم، طلبوا من إمي حصر إرث ووكالة عن اليتامى وحالة، هم كانوا ملاليم بس بالنسبة إلنا كانوا كل الدنيا، فبتذكر وقتها كنت رايح مع رحمة إمي على المصنع، وكنا خلصنا كل الأوراق، فراحت عند المحاسب عشان تستلم الفلوس، قال لها بالحرف «يا حجة والله صرت قايل لك فوق العشر مرات، الأوراق جاهزة وقيمة

المخالصة تحددت، بس المدير سافر وما وقع عليها، راجعينا الشهر الجاي بكون رجع وبوقع لك عليها ياختي، وبتوخذي مصاريك». قالت له إمي: «يا بني الإنسان مش ورق، والمصاري اللي إلكم شهور بتذلوا في عليها مش أرقام، هاي خبز وجبنة وزيت وزعتر، وآجار دار، هاي جوع ولادي، بدك جوع ولادي يستنى شهر وشهرين ليجي المدير تبعكم ويوقع؟».

تصمت لبنى بحزن.

- عمومًا هذا كله من الماضي، وبعون الله ولادي ما بشوفوا شي منه، إن شاء الله ما بيجي آخر هالسنة إلا هالبيت ملكنا بإذن واحد أحد. (يضرب بيده على الجدار القريب). وبعدها بإذن الله أحلى سيارة لأحلى لبنى، (يبتسم لها بحب ويربت على فخدها)، ويمكن كمان نشتري لنا دونمين أرض في الغور نقعد فيهم أنا وإياك بس يتجوزوا الولاد، ونربي جاج.

- لازم الجاج آه؟ والله أنا ما بدي من الدنيا غيرك حبيبي، أنت بس تظل معي وما بدي شي ثاني.

ينظر عوني إلى زوجته بامتنان كبير.

- الله لا يحرمني منك يا رب.

* * * *

تظهر فرح على سريرها، ممسكة بالهاتف في يدها، وتكتب على شاشة للدردشة:

- ماما ما بتحب إنه سند يغني، بتقول الأغاني حرام، وكانت وهو صغير تظل تاخذه على تحفيظ القرآن، صوته كثير حلو، بس ما طلع شيخ زي ما كانت بدها، مؤدب كثير هو، بس مش شيخ، وخالو تيسير بظل يقاهرها إنه راح يطلعه مطرب، هو اشتراه له العود، وهو اللي علمه عليه، وعلمه المقامات، وكل شي.

- خالك تيسير شو بشتغل؟

- خالو تيسير قصته قصة، كان وهو شاب يدرس هندسة معمارية، وكان يحب بنت جيراننا، كان اسمها يمامة، وهي كمان كانت تحبه، ومن هم صغار وهم متعلقين كتير ببعض، لما دخل الجامعة حاول يخطبها بس تيتا ما قبلت، لأن البنت سمرا، ولأنه هو كان لسه بدرس، لما وصل سنة تالتة، أهلها جوزوها لواحد من المخيم، وطلع سيئ كثير، كان يضربها وإمه كمان تضربها، واتهموها بشرفها وقصص يعني، المهم وهي حامل بشهرها السابع، ضربتها حماتها، فوقعت وصار معها نزيف وماتت، هي واللي ببطنها، وطبعًا ما طلع عليهم شي، قالوا إنها وقعت. خالو تيسير زعل كتير، ما قدر يتحمل اللي صار ليمامة، ولام إمه وأبوه على الموضوع، قعد فترة مكتئب بعدين اختفى، ما حدا عرف وين هو، وظل مختفي شي عشر سنين، بهالوقت كانوا بابا وماما تزوجوا، وسكنوا في هاد البيت، ولما جدو، أبوها لماما مات، تيتا إجت عاشت عنا.

- وبعدين؟

- سنة الـ 2003 رجع، كان عمره 33 سنة، أنا طبعًا كنت صغيرة، ما بتذكر شي، بس ماما قالت لي القصة، المخابرات حكوا مع بابا يجي يستلم خالو تيسير، كاين بسوريا كأنه ولا بالجزائر، ما حدا بعرف، وقالت لي ماما، إنه لما رجع ما حكى لحدا شي عن كاين صاير معه، طبعًا إجا يعيش عنا، بس كان لسه مو مسامح إمه، تيتا يعني، فبابا بنى له غرفة على السطح وسكن فيها، بالنهار بكون عايش معنا بالبيت، بس بالليل بنام فوق، وبربي حمام على السطح، وببيع منه مرات، إنه يعني بطلع مصروفه ودخانه، كافي خيره شره.

- غريبة قصته!

- كتير، وهو كمان غريب، بس كتير حنون وطيب، اللي ما بعرفه بجهله عن جد، في ناس بقولوا عنه إنه مش متزن وهيك، بس لا تصدق، خالو تيسير عبقري، بس السواد اللي شافه بحياته وخصوصًا قصة يمامة هاي، بخليه غريب الأطوار وسوداوي شوي، والدنيا كلها مش فارقة معه، بس هو جد عبقري.

- طيب ما فكر يتزوج؟

* * * *

فرح مع خالها على السطح في مشهد صباحي، يجلس كلٌّ منهما على كرسي، تظهر غرفة تيسير على السطح، وخارجها منشر للغسيل عليه بعض ملابسه المزركشة، يقابل الغرفة بيت كبير للحمام، مصنوع من الخشب وشبك الحديد، البيت مفتوح، والحمام يمشي على الأرض ويلتقط الحب الذي يرميه له تيسير.

- خالو أنت ما فكرت تتزوج؟

- أنا؟ أنا متجوز يا خالو، مالك أنتِ؟ هاي ولادي وأحفادي قدامك، مش شايفيتهم كأنك!

تضحك فرح...

- الله يخلي لك ولادك يا خالو.

- مش مصدقة، آه؟ هسه بورجيك.

ينظر تيسير نحو الحمام قليلًا ثم ينادي:

- أبو الليل!

فجأة يخرج من بين الحمام، الذكر الأسود الضخم ذو الغلالة الخضراء، ويرفرف قليلًا حتى يحط في حضن تيسير، تنتفض فرح قليلًا فزعًا ودهشة من الطائر، لكنها لا تلبث أن تهدأ، يحتضن تيسير طائره الأثير ويقول:

- هذا ابني الكبير، أبو الليل، أول طير ربيته، كنت ساكن في الغرفة هاي جديد، صحيت الصبح لقيته على الأرض، كان فرخ صغير لسه، يا دوب طالع له ريش، وبعرفش يطير وجناحه مكسور وحالته حالة، عملت له بيت صغير، ودرت بالي عليه لغاية ما طاب وكبر، خفت بعدها يتركني ويروح، قمت جبت له حمامة وجوزته، وعملت له عرس مطنطن.

آه كان عرسه مشهود، وخلَّف بعد هيك، وهدول كلهم اللي شايفيتهم من سلالته.

- هاد كبير بالعمر؟!

- آه كبير، عمره 12 سنة يمكن، ختيار بلغة الحمام، بس لساته شيخ الشباب.

- وليش مسميه أبو الليل؟

- لأنه الحمام عادة ما بطير بالليل، بخاف من البومة، بس هاد غير، روح قلبه يطير بالليل، ومرات كثير برجع وجه الصبح، وين بروح ما بعرف، ومع إنه صار لنا عمر سوا، إلا إنه كل مرة بطير فيها بالليل بخاف عليه، بخاف يصير له شي ويروح ما يرجع، وبظل قاعد هنا أستنى وأدعي له، بقول لك ابني.

تصمت فرح، وتراقب الطير وهو يقف على كتف تيسير ويمسح برأسه على رقبته، تمامًا كما يتمسح الابن الصغير بأبيه.

* * * *

عوني في المكتب الفخم لعبد العزيز شكري، يرتاح على أريكة جلدية بيضاء، منتظرًا الرجل الستيني ذا اللحية البيضاء أن ينتهي من مكالمته، ينهي الرجل مكالمته، فيمسك سبحته ويتوجه للحديث لعوني:

- آه أبو سند، كيف حالك؟ وكيف مشروعك؟

- تمام والله مهندس، الحمد لله، خلصنا القُلل عظم، وبدينا تشطيب بأول ڤيلا، بس نقصوا علي الفلوس شوي، قلت أمر عليك، تساعدني بمبلغ بس لغاية موعد الدفعة.

- بس هيك، تؤمر أمر يا أخي، والله أنت مقاول ممتاز، واحنا محظوظين فيك فعلًا، لحظة.

يرفع عبد العزيز شكري سماعة الهاتف، ويأمر المحاسب بتحضير شيك فوري لعوني.

- ويا سيدي هاي الشيك عند المحاسب، شو في كمان؟

تنفرج أسارير عوني، فيكمل:

- الله يبارك فيك مهندس، في كمان شوية أعمال إضافية طلبهم المهندس أسامة، وأنا جهزت لك فيهم ورقة.

- لا تورجيني ورق أبو سند، مخي بده ينفجر والله، حكى لي عنهم المهندس أسامة، اعمله له إياهم، وتعال آخر المشروع عندي وبنتحاسب، لا تقلق حبيبنا، فلس واحد ما بضيع عليك إن شاء الله.

يبتسم أبو سند عرفانًا، ويشكر الرجل ويغادر مكتبه متجهًا نحو المحاسب وهو في قمة السعادة.

* * * *

مطل اللويبدة، ويظهر عمر المعاني وهو يجلس هناك بصحبة شاب آخر، يشرب كلٌّ منهما من قهوته، وينظران نحو ليل عمَّان وبيوتها.

- شايف قعداتك كثرانة مع بنت كوكش.

- آه والله، عاجبيتني كثير البنت يا مصطفى، كثير.

- زبطت أمورك ولا لسه؟ ما ظلش وقت، أنت خريج.

- شو قصدك؟ مش فاهم.

- شو بده يكون قصدي يعني؟

- لا يا زلمة شو هالحكي؟ الموضوع مش تسالي، أنا بحبها فعلًا للبنت، وناوي على شي جدي.

يقطب الشاب حاجبيه.

- غريب!

- شو الغريب؟ عن جد بحبها، بنت شاطرة وواعية، وحلوة يعني، أو جذابة قول، ومثقفة فوق ما تتصور، وبتضحكني دايمًا، خفيفة دم بشكل مش طبيعي.

- وتجيد الحياكة وطهي الدجاج، وفقيرة ومتعتسة، وبتشحد الملح.

- أنت بتعرفها؟

- شخصي لأ، بس بعرفها من وهي صغيرة، جيران دار سيدي في الجوفة، وكنت أشوفها كثير في الصيف لما أروح هناك، حتى عندها خال هيك، مخه لاسع، كان يخوفنا وإحنا صغار.

- تيسير؟

- أيوه، تيسيـــــر، يا عيني عليك، قالت لك عنه؟

- شوي.

- كان ذكي كثير على فكرة خالها هذا، كان مع عمي يوسف في المدرسة، وكان من أوائل المملكة بزمانه، بس مش عارف شو صار معه بعدين، ضربوا فيوزاته.

(فترة من الصمت)

- ناوي تخطبها يعني؟

- هيك النية، بس يعني أنت عارف، لازم أشتغل شوي على الأقل، وهي راح تدخل ثالثة، فيعني معنا شوية وقت، بس ناوي بكره أقول لها، ما بدي البنت تروح من إيدي أو تفكرني بلعب.

- هذا جد الموضوع.

- آه طبعًا.

- فقري طول عمرك.

* * * *

مجموعة من الطالبات يقفن أمام مكتبة الجامعة، تقترب منهن فرح بسرعة ولهفة، وتمسك يد ضحى بقوة وتجرها من بينهن.

- مرحبا بنات، معلش بدي ضحى ضروري شوي، شكرًا عفوًا.

- وك شو في مالك؟

تتساءل ضحى وفرح تسحبها بقوة من يدها بعيدًا عن الطالبات.

تصل الفتاتان بعيدًا عن مسمع أي أحد، ثم تقف فرح وقفة مسرحية، وتقول وهي مبتسمة وفخورة وقد فتحت ذراعيها:

- احزري شو؟ عمر قال لي بحبك!

وتشد بيديها الاثنتين من الفرحة. تقلب ضحى عينيها سخرية قبل أن ترد بتهكم:

- أوه، كان نفسي أتنطط من الفرحة بس ضهري بيوجعني.

- يا الله منك يا ضحى، عن جد إنك زي ماما، هادمة اللذات.

- آه هادمة الأوهام، شو قال لك بس قولي لي؟

تجلس فرح بقرب ضحى، وتبدأ بسرد القصة...

- كنا قاعدين سوا عند برج الساعة، وكنت مشغولة بقول له عن ستيفان تسيفايج، وكيف إنه روايته اللي هي أبصر شو بتجنن، وهو متبع معي ومركز، ومفكرته مركز على اللي بقوله، فجأة هيك قاطعني وقال بصوت ريته ما يبلى «فرح، أنا بحبك».

- وأنتِ شو عملتِ؟

- شو بدي أعمل يا ضحى؟ شاب رأسي لهول الفجيعة، ما عرفت شو أقول والله، بس قلت شي غبي جدًّا، زي «وأنت بألف خير» أو شي هيك.

تضحك ضحى.

- بقول لك والله ما عرفت شو أحكي، بس مش هاد المهم، المهم إني عاشقة رسميًّا هلأ، وينك يا كاظم، وينك يا نزار، وينك يا عبدالحليم، جاييتلكم يا شوية عشاق!

* * * *

الكاميرا المنزلية تسجل مرة أخرى، سند يقترب من باب المطبخ، ويهمس لفرح وهي تسجل:

- جاهزة؟

- شو جاهزة؟ بصور أنا!

يدخلان المطبخ معًا، وأمهم تجلس على طاولة المنتصف تقوم بتقطيع بعض البندورة لكنها لا تنتبه لوجودهما، والكاميرا لا تزال على سند، يهمس مرة أخرى لفرح:

- وك بدي عود، بعرفش أغني بدون عود.

تلتقط فرح مرقاقًا خشبيًّا للعجين، وتعطيه إياه.

- هاي عود يا أبو عود، غني بس.

يمسك سند مرقاق العجين كأنه عود، ويبدأ بالغناء بلحن بطيء وحزن مصطنع:

بــــــدي مصـــــاري، بــــــدي مصـــــاري

مصـــــاري كثيـــــر، أكثـــــر مصـــــاري

يا ريـت الأرض تطلـع مصـــــاري

ويا ريت السما، تشتي مصاري

تستغرق أمه بالضحك...

- شايفتك ما شاء الله يما صاير تكتب وتلحن كمان! متعدد المواهب.

- الحاجة أم الاختراع يا أماه، لقد حاصرتنا قريش في شعب بني هاشم، وجعنا جوعًا شديدًا، وبحاجة بعض المصاري.

- لا، ما الهم حق قريش الأشرار، هسه بطعميك مجدرة، بس مصاري فش، لو غنيت الأطلال حتى.

تتغير لهجة سند الاستعطافية، فيقول بشكوى:

- ليش طيب يما؟ مش صار عنا شركة وأبوي أخذ مشروع كبير؟ والله بدي شوي مصاري للمركز، كل صحابي سجلوا، وبدي أسجل أحضر للتوجيهي، ولا بدك أرسب؟

- أنا بدرسك تخافش، وأبوكم لسه ما خلص مشروعه، لما يخلصه ونوخد الأرباح بتتبغددوا، هلأ ما في شي.

* * * *

عدة مشاهد صامتة...

عوني يناقش عماله في الموقع، ويبدو أن الفلل اكتملت تقريبًا...

سند يدرس لامتحاناته...

تيسير على السطح عصرًا، يمسك العود ويمسح أطرافه بقطنة بيضاء، بينما تتقافز حماماته أمامه...

فرح وعمر يمشيان في الجامعة...

لبنى ترتدي يانس الصلاة، وجالسة على الكنبة الصفراء، تقلب إحدى المجلات وتنظر إلى صور لغرف الجلوس...

* * * *

كاميرا الفيديو ذاتها، لكن في وضع الاستعداد هذه المرة، حفل تخريج، ويمر الطلاب والطالبات وهم في أثواب التخرج أمام أهاليهم، يسلمون على راعي الحفل ويأخذ كل منهم شهادته.

تضغط فرح زر التسجيل، ويُسمع صوت عريف الحفل.

«عمر كامل سالم المعاني»، تظهِر الكاميرا عمر وهو يمشي على المسرح مرتديًا ثوب التخرج، وملوِّحًا لأهله في المدرج، يستلم شهادته، ويبتسم لفرح وهو في طريقه للخروج من المسرح، تتابعه فرح بالكاميرا لحين خروجه، ثم تغلق الكاميرا وتمسح الدمع الذي تغرغر في عينيها.

* * * *

الثانية عشرة ظهرًا، يدخل عوني إلى البيت حاملًا شنطة سوداء صغيرة، يجد «حماته» نائمة على سريرها في غرفة الجلوس والبيت هادئ تمامًا، يتجه إلى غرفة النوم، فيضع الشنطة هناك، ثم يتجه إلى المطبخ، ليجد لبنى مرتدية مريلة المطبخ، وتقف أمام موقد الطعام تحضر شيئًا، يجر لبنى من ذراعها من المطبخ، باتجاه غرفة النوم، وهو يتلفت.

- تعالي بس تعالي.

- يا زلمة شو فيه؟ الطبخة على النار، والله بتنحرق هلأ.

لا يرد عليها، يدفعها داخل غرفة النوم، ثم يغلق الباب بالمفتاح، فتضع يدها على رأسها بامتعاض، وتقول:

- مش وقتك يا عوني، والله ما هو وقتك، الطبخة على النار، وريحتي كلها بصل! وعايفة حالي.

يضحك عوني، يتركها حيث تقف، ثم يذهب إلى طرف الغرفة، يمسك الشنطة السوداء، ويضعها على السرير، ثم يفتحها ويخرج منها مبلغًا ماليًّا ضخمًا، وينثره على السرير! تنظر لبنى إلى رزم النقود الجديدة اللامعة

باندهاش شديد، فتنفرج أساريرها، وتبدأ بلمس الرزم وتقليبها وهي لا تكاد تصدق.

- شو هاد؟ كم هدول؟

تجلس بقرب عوني على طرف السرير، فيحتضنها وهو يقول:

- 210 آلاف دينار، تعب إيديا وحياة عينيا.

تتحسس لبنى النقود، وتتمتم:

- الحمد لله، الحمد لله، ملء السموات والأرض وما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ولا تجعله فتنة لنا يا رب العالمين، هدول كلهم إلنا يا عوني؟ هيك خلصت المشروع؟

- لا حبيبتي، مش إلنا كلهم، لسه في الدفعة النهائية، هاي الدفعة قبل النهائية، راح أخلي معنا 30 ألف، والباقي راح أحاسب فيهم الناس، إحنا مربحنا بالآخر.

- وقديش بطلع لنا تقريبًا؟

- يعني أنا حاسب تقريبًا إنه يطلع لنا تقريبًا 150 ألف مربح، وفيه تقريبًا 80 أعمال إضافية، بتتذكري قلت لك طلبوا تغيير الرخام وإضاءة على السور وهيك؟

- آه متذكرة.

- من الأعمال الإضافية في إلنا كمان مربح 30 ألف، فيعني بطلع لنا تقريبًا 180 ألف صافي كل شي، قولي مع شوي من هون ومن هون، بظل لنا 175.

- لك الحمد والشكر يا رب، لك ألف حمد وشكر، وهيك أنت خلصت الناس؟ ما حد بظل بده منك شي؟

- لا في بظل، بس مش كثير، بس أجلتهم للدفعة النهائية.

- طيب ما بتقدر تخلي هدول معنا وتأجل الناس للدفعة النهائية؟ والله ما أنا حابة يفارقونا.

- لا لبنى ما بقدر، حرام، الناس إلها فترة بتستنى فلوسها، وبحكوا معي كل يوم، مسخمين، ما بحب أأخر فلوس حدا، زي ما أنا محتاج هم كمان محتاجين، بس لا تقلقي، راح أخلي معنا هلأ 30 ألف، وفي أقل من شهر بكون أخذت الدفعة النهائية، وبتنحل الأمور.

- يا رب، يا رب، والله إنك بسطتني يا عوني.

يقترب منها عوني وهو يفرك بيديه وعيناه تلمعان:

- لا لسه ما بسطتك.

ويحاول الإمساك بكتفيها، تهرب منه لبنى وهي تضحك، ثم تبدو كمن تذكر شيئًا مهمًّا فجأة...

- يـــييي، انحرقت البامية.

تهرول لبنى مبتسمة نحو المطبخ وهي تردد بلهجة تحذيرية:

- خبيهم خبيهم.

يجلس عوني مهزومًا على السرير وسط رزم النقود، ويقول محاولًا أن يسمِعها:

- بامية؟ الله يلعن أبو البامية يا شيخة! تلحقها الفاصوليا، تلحقها اللوبيا، حدا بطبخ بامية في يوم زي هيك؟

* * * *

فرح على سريرها، مستندة بظهرها إلى الحائط وتكتب على هاتفها النقال:

«أنا مستنيتك على فكرة، إلي ساعة».

لا يبدو أن عمر قرأ الرسالة أو أنه متصل أساسًا، فتكمل فرح كتابة رسائلها لوحدها، وهي تبتسم...

«من أول يوم شغل تغيرت عليَّ؟ غيرتك الفلوس يا عمر! كنت حاسبة هالحساب، يا خسارة. بعتني من أجل حفنة دولارات؟

كنت عارفة إنه هذا الطريق آخرته لحن حزين، لكنني أكملت، إهـــىء إهـــىء.

أنا أبدو صامدة ومتماسكة، لكن دموعي تنسكب في داخلي أيها الرجل، جنبًا إلى جنب مع شوربة العدس.

أنا في انتظارك مليت.

أنا من ضيع في الأوهام عمره.

أنا الشاكي أنا الباكي أنا الحساس، أنا اللي في هواكم رافع راسي.

أنا رايح فين أنا راجع تاني.

أنا يا طير ضيعني نصيبي.

أنا رايح بكره عالجيش.

أوف منك، إلي ساعة بكتب لحالي، خلص اعتبر اللي بيننا انتهى، وراح أقبل بأي عرض يجيني، يا غدَّار.

على فكرة، جارنا زهدي عطبل طلبني من إمي، وهو صحيح مش متعلم، بس ميكانيكي قد الدنيا، والعلم في الراس مش في الكرَّاس، وبصراحة، لقد قدم لي عرضًا لا يمكن رفضه (بصوت العراب).

أنا راح أكون مرته الثالثة، وراح يعطيني طابق كامل في عمارتهم، 120 متر بسرح فيهم الخيال، وطقم كنبايات موريس، وغرفة نوم فيها مسجل وضو أحمر، شو بدي أكثر من هيك؟ أنا بنت بدور السترة، وهي الواحدة فينا شو إلها غير زوجها وبيتها وضرايرها؟».

يبدو أن عمر متصل الآن، وتبدأ العلامات الزرق بالظهور دليلًا على أنه يقرأ رسائلها، ثم يظهر أنه يكتب شيئًا.

- له له يا كوكش، هيك بسرعة انتهى كل شي؟

- مدام فرح لو سمحت، مين معي عفوًا؟

- بطيخة!

- أووووه، غزلك العذري نقطة ضعفي، خلص ما دام غازلتني هيك، سوف أؤجل عرض السيد زهدي قليلًا، وراح أعطيك فرصة للصيف أيها العابث، معك لــ 9-9، ولا أقول لك، آخر موعد 11-9، إذا ما تزوجنا في 11-9، كلّ منا يروح في حاله.

- 11-9؟ مش لاقية غير هاليوم؟

- مهو عشان أنت ذاكرتك ضعيفة حبيبي، وبتظل تنسى، فبكره لما نتجوز، كل سنة راح تطنش هديتي وتقول لي ما أنتِ عارفيتني يا فرح، بظل أنسى، وكزا ومزا، وبتوكل بعقلي حلاوة، هيك ما إلك حجة، كل ما تشوف برجين مولعين على التلفزيون، بتقول لي كل عام وأنتِ بخير وبتقوم بتجيب هدية بدون ما تسأل ليش.

* * * *

تيسير في غرفته يلمِّع العود، ويوازن أوتاره، تفتح فرح الباب وتدخل وهي تمسك طبقًا من الفواكه.

- أهلًا يا خالو، زارتنا البركة.

- حبيبي خالو، هدول شوية تين، ماما بعتت لك إياهم.

يكمل تيسير وهو لا يزال يلمع عوده:

- رشوة عشان أحبها زيادة؟ ما بقبل الرشاوي أنا.

- أرجعهم يعني؟

- لا شو ترجعيهم؟ حطيهم في الثلاجة الصغيرة اللي عندك هناك، هلأ بفتح كتب الفقه وبلاقي لي فتوى تناسبني.

تضع فرح طبق التين في الثلاجة الصغيرة القديمة وهي تضحك، ثم تسأل خالها:

- خالو؟ غرفتك كتير مريحة، بس كأنه فيها شي غلط؟ ما بحس الحيطان مستقيمين، شوف هون، الزاوية هاي عوجا، والحيط هون مش مستقيم، شايف كيف من فوق؟ طالع شوي لبره، وطرف الشباك اللي فوق مش جاي مع اللي تحت، أبصر كيف هيك، بس مريحة!

يبتسم تيسير لما تقوله فرح، يأخذ نفسًا عميقًا ويضع العود جانبًا ويقول:

- لا يا خالو، ما فيها شي غلط، أنا بنيتها هاي الغرفة أنا وأبوك، وبنيتها بالطريقة اللي أنا بآمن فيها، الأشياء اللي شايفيتها هاي مش عيب في البنا لأ، هاي أشياء مقصودة لذاتها، وهي اللي عم تعطيك هذا الشعور المريح اللي أنتِ مش فاهمة من وين جاي، هذا مبدأ كنت بتشغل عليه وأنا في الجامعة، اسمه كمال النقص، بتقوم فكرته على إنه إحنا كبشر، أخطأنا كثير لما بدينا نبني بيوتنا وهدفنا فيها هو الكمال، والخطوط المستقيمة، والتطابق بين العناصر، فكرنا إنه لما قدرنا نخترع المسطرة إنها فهمنا الكون، كل شي بنيناه كان له هدف واحد بس، يكون مذهل، وكامل، ومستقيم، خالي من أي عيوب أو نتوءات أو حتى منحنيات غير منتظمة، وشو النتيجة؟ بنينا علب كبريت، مكعبات منزوعة الروح، ممرات مستقيمة باردة، وكرهناها، ليه؟ لأنها ما بتشبهنا، فهربنا منها على الطبيعة اللي بتشبهنا.

الإنسان لما الله خلقه، ما عمل فيه خط مستقيم واحد، كلها انحناءات وتعرجات، وكتل غير هندسية، لكن كلها متناسقة، هاد إحنا، هيك انخلقنا، بنفس هذا المبدأ، الله خلق الطبيعة، وترك لها حرية النمو دون الالتزام بقواعد، تخيلي لو كانت الغابات اللي الله خلقها، انخلقت بنفس فكر الإنسان، كان شو صار؟ كان بتلاقي كل الأشجار مزروعة في صفوف مستقيمة، وعلى مسافات متساوية، والأرض مستوية تمامًا، وجذوع الأشجار عبارة عن أسطوانات بنية ملساء

كاملة الاستدارة، ورأس الشجرة مكعب أخضر، كيف كان راح يكون شعورنا لو الغابة كانت هيك فعلًا؟

- كنا راح نهرب منها! مرعبة.

- بالزبط، مع إنها كاملة، بس ما بتشبهنا، لأننا إحنا نفسنا مش كاملين، أو بالأحرى، نقصنا هو اللي بعمل كمالنا، الغرفة هاي انعملت بنفس هذا المبدأ، عشان هيك أنتِ مرتاحة فيها، وهو نفس السبب اللي بخلينا لما نزور مدينة جديدة، ما بنروح نشوف الأبراج والبنايات الضخمة لأ، بنروح فورًا على الأحياء القديمة، لأنها متعرجة، وغير منتظمة، وبنفس الوقت حلوة، يعني بكل بساطة بتشبهنا.

تصمت فرح وهي تنظر نحو خالها بحب وتقدير، يعود تيسير ليمسك عوده مرة أخرى، قبل أن يضيف:

- المشكلة الأكبر يا فرح، إنه هوس الكمال هذا انسحب حتى على علاقاتنا الإنسانية وخياراتنا العاطفية، وبدل ما ندور على حدا بشبهنا، صرنا بدنا حدا كامل، مرسوم بالمسطرة والقلم.

يصمت تيسير ويتغضن جبينه، ثم يبدو كأنما يخاطب نفسه:

- بدنا واحدة بيضا، وطويلة، ووجهها مدور.

ثم يهمس:

- يدوِّر قبرك إلهي.

تضحك فرح، فينظر فجأة إليها وكأنه يراها لأول مرة.

- أنتِ لسه قاعدة هون؟ أنتِ بدك تصاحبيني يا بنت؟ خلص روحي عند إمك، قولي لها خالو قبل الرشوة، يلا يلا.

* * * *

يظهر عوني وهو يتجول بصحبة مهندس شاب داخل إحدى الڤلل التي قام بتنفيذها، تبدو الڤيلا لامعة ونظيفة تمامًا، والمهندس يتفقد الغرف

واحدة واحدة، ويجرب صنابير المياه ويضغط على مفاتيح الكهرباء، ويهز برأسه علامة الموافقة.

يظهر الرجلان مرة أخرى وهما ينتقلان من ڤيلا إلى أخرى، وتبدو الڤلل الأربع وقد اكتملت تمامًا.

* * * *

فرح تجلس على سريرها واضعة ساقًا على ساق، وتربط على رأسها عصابة حمراء مضحكة، فتبدو مثل قرصان، تقلب هاتفها وهي تبتسم، لتجد سطرًا في موقع التواصل يوحي بأن حبيبها عمر قد أضاف مؤخرًا فتاة لقائمة أصدقائه، تختفي ابتسامتها فجأة، وترجع رأسها قليلًا إلى الوراء وهي تضم شفتيها امتعاضًا، ثم تبدأ تصفح حائط الفتاة الجديدة، روان غندور.

بعض الحكم المقتبسة، فيديوهات مضحكة، لكن هذا لا يهم، تفتح الصور، صورة للفتاة على صهوة حصان أبيض، صورة أخرى وهي ترتدي شورت قصيرًا وتضع يدها على نمر، فيما يبدو أنه أحد تلك المعابد الآسيوية التي يتصور فيها السياح مع النمور، صورة أخرى وهي تقود مرسيدس فاخرة وبجانبها سيدة يبدو أنها أمها، صورة لعيد ميلاد في ساحة عشبية محيطة بمنزل فخم، صورة مع شابين ورجل عجوز والسيدة ذاتها وهم جميعًا على متن قارب، يبدو أنها عائلتها، لا توحي الصورة بكونها في العقبة، إذ تبدو مبانٍ أوروبية ظاهرة على شاطئ النهر أو البحر الذي هم فيه.

تحدق فرح إلى صور الفتاة مطولًا، ثم تغلق الهاتف، وتضع أصابعها العشرة على وجهها، ثم تفتح ما بين الأصابع وتبدأ بهز رأسها يمنة ويسرة وهي تفكر...

* * * *

يظهر عمر في غرفة ملابس لنادٍ رياضي، جالسًا على مقعد خشبي عريض، مبتل الشعر، عاري الصدر، ومرتديًا شورت رياضيًّا أسود، وبينما يمسك بيده اليمنى منشفة بيضاء ينشف بها رأسه وجسده، يفتح هاتفه بيده اليسرى، لتظهر رسالة فيديو من فرح، يضغط عمر على الرسالة وهو يبتسم ليبدأ الفيديو بالعرض.

تبدأ موسيقى أغنية ما بإيقاع بعض الطبول، قبل أن يبدأ الكمان بالعزف، وتظهر فرح في غرفتها وهي تضع العصابة الحمراء على رأسها، وهي تهز رأسها يمنة ويسرة تماشيًا مع الموسيقى، وعلى ملامحها خيبة تمثيلية وغضب مصطنع، وفي اللحظة الذي يبدأ فيها المغني بترديد كلمات الأغنية، تحرك فرح شفتيها معه وكأنها هي التي تغني، وتؤدي حركات توافق بالضبط معاني الأغنية.

(بتحبني؟ لا أشك)، تؤشر فرح بيدها إلى صدرها عند كلمة بتحبني، ثم تؤكد بالسبابة أنه لا يحبها، وهي تشك في ذلك.

(مين دول اللي على الفيس بوك؟) تدور فرح يدها متسائلة وهي تنظر نحو الكاميرا باستهجان.

(لو ما شلتش العيال دي) تهدد فرح بالسبابة.

(عليك حا أسك) تحرك يديها وكأنها تقفل مشهدًا ما.

ومع الموسيقى تعود فرح لتهز رأسها يمنة ويسرة، قبل أن تختفي من عين الكاميرا لتعود والمغني يغني المقطع الثاني.

(وأنـــــــــــا، أنا مش خرونج) ترمي فرح قبعة مهرج كانت ترتديها، وترسم ملامح غضب على وجهها.

(لا لا لا، أنا كينج كونج) تضم فرح ذراعها إليها وكأنها تريد إبراز عضلات يدها القوية كما يفعل أبطال كمال الأجسام.

(دنا وأنا رابط إيدي، بلعب بينج بونج) تظهر فرح وهي تربط يدها اليسرى بشاش طبي، وتمسك مقلاة للمطبخ باليمنى، وتحركها كأنها مضرب تنس طاولة.

ينفجر عمر ضاحكًا من رسالة فرح، وما إن تنتهي حتى يتصل بها.

- شو هذا يا كوكش؟

- اسأل حالك شو هاد؟ أنا اللي عندي قلته.

- هاي مديرتي بالشغل، بنت المعلم الكبير، وضافتني، أرفض يعني؟ يخرب عقلك.

- بنته مرته جدته ما بهمني، أي شي فيه تاء التأنيث ما بدي أشوفه عندك، قولًا واحدًا بلا مثنوية.

- ماشي يا كينج كونج، ماشي.

* * * *

مطل اللويبدة مرة أخرى...

يجلس عمر مع صديقه مصطفى على درج حجري، يدخنان ويشربان القهوة.

- مبروك الشغل يا باشا.

- الله يبارك فيك يا رب، والله ما توقعت هيك بسرعة أشتغل من أول مقابلة، بس الحمد لله، ربنا سهلها يا أخي.

- رضا والدين، مع إنك غضيب والدين يعني، بس لازم ينحكى هذا الكليشيه.

يضحك عمر...

- مين مديرك؟

- بنت علي غندور نفسها، هي اللي قابلتني، وهي مديرتي بنفس الوقت.

- بنت علي غندور بذات نفسها؟ فرصتك للشهرة يا ولد!

يبتسم عمر...

- لا يا أبو صطيف لا، أنا لا أخون كوكش.

- لا تخون كوكش؟ مش بقول لك فقري طول عمرك.

* * * *

أبو سند في المكتب الأبيض ينتظر للدخول على عبد العزيز شكري، يخرج السكرتير من غرفة عبد العزيز شكري ويقول له:

- معلش أخي، المدير بقول لك إنه مشغول حاليًّا، قدم فاتورتك للمحاسبة، وهم بس يجهزوا فلوسك بحكوا معك.

- أنا قدمتها يا أخي إلي شهر، ما حدا حكى معي، عشان هيك أنا جاي أشوفه.

- بعتذر منك أخي، هو حاليًّا مش فاضي يقابل حد، معلش، بدك تستنى المحاسبة، هو في ضغط هالأيام، لكن هم بكلموك إن شاء الله.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، طيب، طيب.

يغادر أبو سند المكتب وهو يحوقل...

* * * *

روان غندور في مكتبها، يطرق الباب ويدخل عليها عمر.

- مرحبا آنسة روان، طلبتيني؟

- آه صحيح، طلبتك، أهلًا عمر تفضل، استريح.

يجلس عمر مرتبكًا، بينما تنهي هي شيئًا على كمبيوترها المحمول.

- شوف يا عمر، أنا كتير معجبة باللي أنت عم تعمله، صدقًا يعني، وشايفة فيك أو إلك خلينا نقول، مستقبل كبير معانا، أنا بعتت خطاب تثبيتك لشؤون الموظفين، وقررت لك زيادة مستحقة، وبدي تجهز

حالك عشان تطلع معي على فرنسا الأسبوع الجاي، في اجتماع وكلاء في باريس، وبدي تكون معي، وبدي تحضر لي من هلأ خطة تسويقية، بجانب فني ومالي، إنه إحنا نوخد وكالة المضخات في شمال إفريقيا، خصوصًا ليبيا والجزائر، اتفقنا؟

- ولا يهمك ست روان، وإن شاء الله أظل عند حسن ظنك.

- بلاها ست روان هاي، روان لحالها بتكفي، أنت مش غريب.

يبتسم عمر، وتبتسم هي بالمقابل، ثم يغادر مكتبها جذلًا.

* * * *

مكتب المحاسبة في شركة عبد العزيز شكري، ويظهر أبو سند محتدًّا تمامًا في مواجهة المدير المالي.

- ليش يا أخي بتصرخ؟ هذا مكتب محترم، لو سمحت.

- يا أخي ما بصرخ، بس مش معقول هيك، إلي خمس شهور رايح جاي، وعالفاضي، وما بقولوا لي غير استنى، لإيمتا طيب؟ أنا إلي عندكم 300 ألف دينار، ما أخذتهم، ومطلوب بفلوس بالسوق، ننحبس يعني؟

- أولًا ما إلك عنا 300 ألف دينار، حسبتك غلط، الموجود في الكشوف 92 ألف دينار بس.

- نعم؟!

- أخي لو سمحت، لو سمحت! إحنا محاسبة ما بنتدخل بالمشاريع، شو اللي بوصلنا من المواقع بندفعه، هاي كشف حسابك، ولو إلك فلوس زيادة عندك المدير تراجعه، ما تيجي تصرخ هون.

* * * *

مطل اللويبدة مرة أخرى، عمر وصديقه مصطفى...

- ميدالية؟ فرنسا وأسبوع كامل هناك، وما طلع لي منك غير ميدالية؟

- ومن السوق الحرة كمان! يا زلمة والله ما فضيت أحك راسي، جد!

- ما فضيت؟ ولا مشغول مع المزة؟

- لا يا مصطفى، مش هيك والله، بس كان في اجتماعات طول النهار، وبالآخر نطلع نتعشى، كفريق يعني، وثاني يوم نفس الشي، ضغط ضغط ضغط، حتى برج إيفل بآخر يوم زرته بس.

- تتعشوا سوا؟ والله ونقشت معك يا معاني، لعب الزهر لعب.

- آه لعب، وتبدلت الأحوال.

- هسه بالأمانة؟ ما صار شي بينك وبين بنت غندور؟ ولا لساتك ملزق ببنت كوكش؟

- هلأ شوف مصطفى، أنا ما بكذب، أنا بحبها لفرح، وكثير مش شوي، بس يعني كيف بدي أقول لك، من بعد هذا الشغل، وسفرة فرنسا وهيك، صرت أحس إنه ماشي أنا بحب فرح، وكزوجة يمكن بتناسبني وبتناسب شخصيتي أفضل من روان، روان نوعًا ما بحسها مختلفة عني، ما بتشبهني، بس يعني فرح عالمها محدود كثير، ضيق، عارف كيف؟ يعني حدود عالمها ما بتتجاوز الجامعة، خالها تيسير وقصصه، وأبوها اللي مش عارف مين نصب عليه، وقصص زي هيك يعني، بينما روان شيء مختلف، هلأ هي أكيد شخصيتها مش زي فرح، بس بنفس الوقت، عالمها جدًّا مفتوح وكبير، وفيه آفاق واسعة بشكل هائل. يعني مثلًا مثلًا، مبارح كنت أحكي أنا وفرح، وقعدت ساعة تقول لي عن مبادرة عامليتها مع صاحباتها عشان يقرؤوا للمكفوفين اللي في الجامعة، وإنه عمل خير ومبادرة منيحة وهيك، طيب شي حلو هذا، بس أنا يعني شو بستفيد؟ بالمقابل، وإحنا بفرنسا، روان سألتني عن حلمي، فقلت لها عن مشروع تخرجي، وإني بحلم أطبقه على أرض الواقع، ما قالت شي، لكن مبارح وإحنا بالشغل، نادتني على مكتب أبوها، كنت أول مرة بقعد معه،

ولقيته بسألني عن مشروعي، طلعت مخبريته فيه، وناقشني فيه، وأبدى اهتمام كبير، وطلع نسيبه، خال روان يعني، رجب الصانع، مدير العمليات في الملكية الأردنية، وقال لي إنه ممكن يحكي معه على أساس الملكية تدعمني في المشروع، ونعمل بروتوتايب هناك، شايف الفرق؟ مع روان عم تنفتح لي أبواب كبيرة، ما عليك إلا تدخل بس.

- يا زلمة ما أنا هذا اللي كنت أحكي لك إياه من الأول، بس أنت فقري، يعني بالله بعد خمس سنين من هسه، مين بدك يكون خال ولادك؟ تيسير الهبيلة ولا رجب الصانع؟

- مش عارف مصطفى، مش عارف.

* * * *

أبو سند في داخل مكتب عبد العزيز شكري، وبينما يتحدث الرجل في الهاتف، يجلس أبو سند متوترًا، وكأنما هو على جمر، ينهي الرجل مكالمته أخيرًا، وينظر لأبي سند بوجه مبتسم:

- آه أبو سند، شو مزعلك يا رجل؟

- يا أستاذ عبد العزيز، يعني هذا اللي صار ما برضي ربنا أبدًا، أنا مقدم فاتورة 312 ألف دينار، والمحاسب بحكي لي ما إلك إلا 92 ألف، خصومات ما بعرف كيف إجت!

- طيب روق روق، وتعال نراجع الورق سوا.

- أول شي أنت في عليك غرامة تأخير 10 % من قيمة المشروع، يعني من مليون وميتين ألف، عليك خصم 120 ألف، متفقين؟

- لا طبعًا، لأنه أنا بدأت المشروع بشهر 1، وخلصته بشهر 11، يعني 11 شهر، ومدة عقدي سنة بس، مش متأخر، كيف متأخر؟

- بس يا أبو سند، عقدك ما بدأ من شهر 1، أنا وإياك موقعين العقد هون في مكتبي في شهر 8، مزبوط؟

- مزبوط مزبوط، بس متى استلمت الموقع، بشهر 1 أقسم بالله، بـ 7 - 1 حتى، لأنه كان في تحويل خدمات وكان في مشكلة في إذن البناء، والمهندس أسامة عارف هذا الشي.

- يا أبو سند أنا معك، بس إحنا هون كإدارة ما بنعرف شو بصير بالمواقع، إلنا بالورق اللي قدامنا، بالعقود، والعقد مكتوب فيه إنه تبدأ بشهر8 وتسلم بشهر 8، أنت سلمت بشهر 11، والمحاسبة خصموا عليك غرامة التأخير زي ما بحكي العقد، ما ظلموك يعني.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، يا أستاذ عبد العزيز، أنا بقول لك بدأت بشهر 1، راجع تقارير المشروع، والله ما تأخرت أبدًا، وصلت الليل بالنهار عشان أسلم الفلل في موعدها.

- يا أبو سند يا حبيبي، أنا والله مش مهندس، يا ريتني كنت مهندس، بس أنت كمان تفهم موقفي، أنا صح إلي جزء من الشركة، بس في شركاء ثانيين أنا مسؤول قدامهم، لما المشروع يتأخر 4 شهور، ودون أي إثباتات من مهندس المشروع ليش تأخر، أنا مضطر أخصم غرامة التأخير على المقاول، وإلا أُتَّهم إني متواطئ معك، لأنه هاي مسؤولية، في استثمار في الموضوع، ورؤوس الأموال بتحاسبني، ونفس الشي بالنسبة إلى الأوامر التغييرية، أنت بتتطالب بـ 80 ألف كأنه، لكن المهندس أسامة في تقريره كتب إنه هاي مش أوامر تغييرية، هاي مسؤوليتك، فعلى أي أساس أصرف لك إياها؟

يضع أبو سند يده على قلبه، ويحوقل، قبل أن يكمل بصوت مرتعش:

- طيب وفرضًا هذا الكلام صحيح، وأنا بستاهل غرامة التأخير، شو بالنسبة لدفعتي اللي ما تسلمتها إلي 8 شهور لهلأ؟ هاي ما بطلع

عليها تعويض؟ مش أنا خسرت وتضررت من ورا هذا الكلام؟ ما بطلع لي تعويض؟

يرجع عبد العزيز شكري إلى ظهر مقعده، ويقول باندهاش شديد:

- الله يسامحك يا أبو سند! هذا ربا! أنت بدك توكل ربا؟ مش حرام؟!

- حرام؟ واللي عملتوه في مش حرام؟

- يا أخي، ما عملنا فيك شي، والله أنت ماخذ حقك وزيادة، بس هو الإنسان مرات ما بتقبل الخسارة.

- خسارة؟ لا والله ما هي خسارة، عمومًا البلد هاي فيها قانون، وأنا بعرف أجيب حقي من المحكمة، ثالث ومثلث، وحسبي الله ونعم الوكيل.

- والله يا أخي بكون مبسوط لك، المحكمة عدالة، إحنا ما بنزعل أبدًا من المحكمة.

- عدالة آه؟ حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل.

* * * *

- متغير علي كثير عمر، شو في؟ أنا زعلتك بشي؟

- ما في فرح، ما في شي والله، بس الشغل ماخذ كل وقتي حاليًا.

- فرح؟ هلأ صار اسمي فرح؟

- فرح، كوكش، نفس الشي، مالنا؟

- أنا ما مالي شي، بس أنت مالك شي، ومخبي علي.

- يا بنت الحلال ما في شي، بس بقول لك الشغل ماخد وقتي، هاي كل الموضوع، بروح تعبان من الشغل، يا دوب أحط راسي وأنام.

- طيب، خير إن شاء الله، بلاش أعطلك، تصبح على خير.

- تسلمي، وأنتِ من أهله، بنحكي إن شاء الله هالأسبوع.

* * * *

مطل اللويبدة...

- شو مالك قالب سحنتك هيك؟ ولا المنصب الجديد هيك بعمل؟ كشرة المدير هاي؟

يغتصب عمر ابتسامة من شفتيه:

- واقع بمشكلة عن جد يا مصطفى، العلاقة بيني وبين روان تطورت كثير، يعني صارت الأمور واضحة تقريبًا، وبنفس الوقت عندي التزام أخلاقي مع فرح، وغصب عني معاملتي تغيرت معها، أنا نفسي تغيرت معها، بطلت أحس تجاهها باللي كنت أحسه زمان، وحاسس إني نذل، لأنه هي برضه بتمر بأزمة كبيرة، وأنا مش قادر أوقف جنبها، مش عارف أحدد وين أنا ولا شو أعمل.

- ولا أزمة ولا شي، قول لها ببساطة إنه خلص، كل واحد يروح لحاله، يعني بالنهاية، مسكة الإيد عمرها ما كانت التزام كاثوليكي، والبوسة مش عقد زواج.

- مصطفى أنت مش مستوعب، أنا مش كلب، واللي بيني وبين فرح إشي كبير، إلنا ثلاث سنين سوا، يمكن بآخر فترة صار شوية جفا، خصوصًا مع دخول روان على الخط، بس بنفس الوقت، مش بسهولة ترمي كل شي هيك في سلة الزبالة، بنفس الوقت أنا شايف مستقبلي مع روان، وبيني وبينك، عم يعاملوني كأني واحد من العيلة، عزموني على المزرعة الأسبوع الماضي، فحاسس إني لو ما أخذت خطوة بسرعة، لو شفهية، كل هذا الشي راح ينهار، وبالمقابل، لو حكيت لفرح إنه خلص، هي كمان راح تنهار، مش عارف شو أعمل.

- عمر، هذا زمن الخلاص الفردي، لا تفكر بسرديات، السرديات الكبرى كلها سقطت، ما في حلول جماعية ولا إيثار ولا تضحية ولا أي شي من الخرابيط هاي، هذا كله كلام فاضي، تطلع حواليك وأنت بتعرف، بتتذكر راغب أبو غوش؟ الشيخ راغب اللي كان ماكل راسنا أيام

الجامعة بسواليفه عن الخلافة وسيد قطب وكيف أضحك والأقصى أسير، متذكره صح؟ بتعرف وين صار هسه؟ في أونتاريو! عند الكفَّار اللي كان طول نهاره يلعن فيهم، وبنشوف يا اخوي صوره على الفيس بوك، ضحكته من الذان للذان ما شاء الله عليه، والأقصى لسه أسير عادي، عادي، ما تغير شي.

بلاش راغب، متذكر أنس التعمري؟ اللي من المخيم؟ أيوه، مش كان ماكل راسنا، وهو يسولف عن العدالة الاجتماعية وإعادة ترتيب القطيع ومن هالحكي الفاضي، هيه تجوز بنت خالته وطلع على دبي، وأبصر شو عمل هناك ولا لفى على مين بعرفش، لكن يبدو وضعه فوق الريح، وطول نهاره نازل فينا مواعظ وتنظير على الفيس بوك، من جد وجد، وباض الحمام على الوتد، ومن الحكي، ونسي كل تنظيره تبع زمان، بطل في ظلم اجتماعي ولا سوء توزيع موارد ولا شي، صار الموضوع كله من جد وجد.

وك خذني أنا قدامك أكبر مثال، أنا نيلت نفس النيلة اللي حضرتك ناوي تنيلها مع فرح، حبيت أسما وتجوزتها، وهي كمان حبتني، وتصورنا إنه الحب لحاله بكفي، وبنبني حالنا شوي شوي وبنصير، تقول فاتن حمامة وحسين فهمي، وشو النتيجة؟ ظلمت حالي وظلمتها، فكرك بالمملكة كلها في حدا بفهم كيميا زي ما أنا فاهمها؟ أتحداك، بس شو الفايدة؟ ولا شي، حرفيًّا ولا شي، ما في عنا صناعة بالأردن، وبعد ثلاث سنين مرمطة بمعامل حقيرة، وشهر بقبض وخمسة لأ، صرت معلم بالحكومة، بعطوني 350 دينار، وبعد الضمان والتأمين والمواصلات وقسط القرض اللي كنت ماخذه عشان أتجوز كم بظل لي؟ 163 دينار و76 قرش، يعني لو أنا حمار وبدي أشتري فيهن علف ما بكفني، وبصير لازم أتداين من الحمير الثانية شوية علف لآخر الشهر، فالحمد لله إني مش حمار، ولا كان متت من الجوع والمذلة، مع إني حمار يعني، بس بشكل مختلف.

فأنت يا حبيبي شو قاعد بتخبص؟ بتيجيك فرصة على طبق من ذهب إنك تطلع من برميل المجاري اللي إحنا عايشين فيه وبدك ترفس النعمة برجلك عشان بنت قرأت لها كتابين وضحكت عليك فيهم؟ وشاعر بالذنب تجاهها؟ شو بده يفيدك بالله ثقافتها ولا كلامها ولا هبلها هذا كله اه؟ قول لي شو راح يفيدك، بشتروا لك باكيت بامبرز بكره؟ بدفعوا فاتورة الكهربا؟ بعبوا لك سيارتك بنزين؟

عمر، اللي بين عبدون وحي القيسية مش شارع، هذا نهر، نهر كبير كثير وعريض كثير، فاصل حياتنا تمامًا عن حياتهم، إحنا بشي وهم بشي ثاني مختلف، أنت اجتك الفرصة تعبر هذا النهر، وهاي الفرصة ما راح تتكرر على فكرة، فيا بتستغلها وبتعبر النهر وبتعيش حياة منيحة، يا بتقعد معي على ضفة هالنهر نندب أحزاننا سوا، وأنت قرر.

يصمت عمر تمامًا، فيكمل مصطفى:

- أنت غلطت معها عمر؟

مكتبة
t.me/t_pdf

ينتفض عمر فجأة:

- لا يا زلمة شو بتحكي أعوذ بالله!

- أعوذ بالله؟ جرحت شعورك يا بن باز؟

- مش قصة ابن باز يا زلمة، بس لا والله ما صار شي، البنت حرام مؤدبة، ما صار شي خلص.

- طيب ولكان لشو قلقان؟ خلص، قول لها يا بنت الحلال كل واحد فينا يشوف نصيبه، وهي راح تدبر حالها لا تقلق.

- هيك بهالبساطة؟

- وأكثر، مشكلتك يا عمر إنك غشيم، لتكون مفكر يعني إنه لو حدا إجاها كانت راح تستناك بالله؟ وك أنا هدول البنات بعرفهم منيح،

صدقني لو يجيها جارهم الميكانيكي اللي عمره خمسين سنة وبده إياها تكون مرته الثالثة، كان دارت عليك مي باردة ولا تبالي، شو بتحكي أنت؟

- بس أنا وعدتها يا مصطفى.

- مزبوط، والوعد مربوط بالقدرة على التنفيذ، وأنت مش قادر تنفذ، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

* * * *

عوني، يجلس وحيدًا في الساحة الصغيرة أمام منزله، أمامه كأس ماء فارغة، ومنفضة تفيض بأعقاب السجائر، ينفث دخان سيجارته بعصبية، وينظر نحو اللاشيء.

- ليش ما إجيت تعشيت حبيبي؟

تعاتبه لبنى بحنان، قبل أن تجلس إلى جانبه، لكنه يظل صامتًا.

- شو حكى لك المحامي عوني؟

- ما حضروا الجلسة، وتأجلت شهرين.

- لا إله إلا الله، وبعد الشهرين شو بصير؟

- ولا شي، بقرر القاضي يحط إعلان في الجريدة، وفي ثلاث إعلانات، ولا اثنين مش عارف، سكة طويلة.

- وكِّل الله حبيبي، وكل الله، وصدقني غير الله يجيب لك حقك منهم، الله ما برضى بالظلم.

يلتفت لها عوني فجأة، ثم يتنهد ويعود للنظر نحو اللاشيء دون أن يقول شيئًا، فتصمت هي، ثم يقطع الصمت فجأة ويقول:

- الله برضاش بالظلم صح، بس اللي صار مش ظلم يا لبنى، هذا عدل، متذكرة البرنامج اللي شفناه لما الأسود أكلوا الجاموسة وابنها؟ هذا ظلم ولا عدل؟ قولي لي، ظلم ولا عدل؟

تصمت لبنى فيكمل هو بنفس اللهجة الحزينة والغاضبة:

- هذا عدل، لأنه الأسد بده يوكل بالنهاية زي ما الجاموس بده يوكل، وأنتِ نفسِك لو تسلمتِ أمر الغابة راح تضطري تطعمي الأسد، شو راح تطعميه؟ حشيش؟ لأ، راح تطعميه الجاموس، هي هيك، فلا تقولي لي ظلم، هذا مش ظلم، ولا القصور هاي اللي معبية عمّان شو بدها توكل؟ قولي لي، مش بدها توكل ناس زينا؟ مش ظلم يا لبنى، لكن في ناس نصيبها توكل وناس نصيبها تتاكل، وأنا نصيبي أكون وجبة.

تتنهد لبنى بعمق بينما تبدأ دمعتان حارتان بالانسكاب من عيني زوجها.

* * * *

- ضحى، اليوم عمر بعت لي شي غريب.
- شو بعت روميو يا حبيبتي؟ هاتي قولي.
- بقول لي إنه راح يوخد قرار صعب بس بضمن فيه سعادتنا إحنا الاثنين، شو معناه هاد الكلام؟
- شو معناه؟ لسه بتسأليني يا فرح شو معناه؟
- لا مشان الله لا تقولي هيك، عمر ما بعملها مستحيل، أنا بعرفه.
- فرح، أنتِ هلأ بفترة امتحانات، وأصلًا فترة صعبة، لا تفكري بشي هلأ، أي تفكير أو كلام ما راح يكون متوازن، لا تفكري بشي، آخر الأسبوع بمر عليك وبنحكي.
- إن شاء الله.

* * * *

عمر وروان في مطعم مطل على عمّان، وأمامهما أكواب العصير...
- شو رأيك لو عملنا الخطبة بـ 9-9؟ جدًا مميز، صح؟
- أنا بقول نعمله 11-9.

- أوف، ليه؟

- عشان أنا بظل أنسى، وهيك بتضمني إنه بحياتي ما أنسى ذكرى زواجنا، كل ما أشوف برجين مولعين على التلفزيون بقول لك كل عام وأنتِ بخير وبجيب لك هدية.

تنظر إليه روان بدهشة وامتعاض.

- معقول قديه سمجة هالنكتة؟ بذكرك بالدمار والموت أنا يعني؟ هاد اللي طلع معك؟

- لا لا، مش قصدي هيك روان والله، لا تزعلي، أنا بس كنت بحاول، خلص ما عليك، هي فعلًا سمجة، أنا آسف.

- سميت بدني أقسم بالله.

- حقك علي والله ما كان قصدي.

- خلص عمر، 9-9، أنا راح أحجز القاعة وأرتب الكروت.

- إن شاء الله، بس أمانة لا تزعلي حالك.

* * * *

لبنى في محل الذهب...

- ليش يا أخوي بدون مصنعية؟

- شو اللي ليش بدون مصنعية؟ الذهب المستعمل يا أختي مالوش مصنعية، بنحسب سعر الغرام بس.

- طيب ما انتو بترجعوا بتبيعوه وبتوخذوا عليه مصنعية، والإسورة هاي جديدة، والله ما لبستها مرتين يمكن.

- يا أختي جديدة، ولا من العصر العثماني، هي هيك، المستعمل ما عليه مصنعية، عجبك الكحل تكحلي، ما عجبك أنت حرة.

- بنتكحل، أمرنا لله، مهي حياة مكحولة كلها.

* * * *

أبو سند في مكتب المدير المالي، ويبدو مهزومًا وبائسًا.

- طيب يا أستاذ نشأت، أنا موافق خلص، أعطوني الـ 92 ألف، ما بدي غيرهم، وبسكر القضية.

- بعتذر منك يا أبو سند، المدير مش موافق، بقول ما دام وصلت القضاء، خلص القضاء بحلها.

- يا أخي، والله بلغي القضية، ما بدي شي.

- بعتذر منك معلش، مش ممكن.

* * * *

يدخل عوني متجهمًا إلى البيت، ليجد تيسير يقرأ في كتاب، بينما تتابع فرح وجدتها مسلسلًا تركيًّا، يلقي السلام على الجميع، وتنهض فرح لاستقباله، وتحمل عنه ربطة خبز أحضرها معه، ويسأل قبل أن يجلس:

- لبنى مش هون؟

- طلعت قبل شوي بابا وقالت مش راح تتأخر، أعمل لك شاي؟

- بديش إشي، وين راحت؟

ترد الجدة وهي ممسكة بمسبحتها:

- وين بدها تروح يا أخوي؟ تلاقيها راحت على الصايغ تبيع لها كمان قطعة، حزينة ما ظل حيلتها إشي.

تنظر فرح بحقد نحو جدتها، وقبل أن ترد عليها ينفجر تيسير في وجه العجوز:

- وأنتِ شو دخلك يما؟ إن شاء الله تبيع ذهبها كله، هو أنتِ اللي جايبيته كاينة؟ شو دخلك شو دخلك؟!

ينظر عوني بمرارة تجاه «حماته»، وهو عاجز عن الكلام، فترد على ابنها:

- أنا يما ماليش دخل، هي حرة، الواحد بس بنصح.

ينهض عوني مثقَلًا، ويتجه عائدًا نحو الباب الذي جاء منه، وبينما يحاول تيسير أن يثنيه عن المغادرة، تبدأ فرح في البكاء وهي تضرب الجدار بيدها، وعندما يفشل تيسير في منع عوني من مغادرة المنزل، يعود أدراجه ليستكمل الشجار مع والدته.

* * * *

يجلس عمر في مطعم فخم، مرتديًا بذلة سوداء شبابية، وتحتها قميص رمادي مفتوح الصدر، وبينما يحتسي رشفة من شراب أزرق موضوع أمامه، يضع النادل صحنًا كبيرًا من الروبيان المشوي أمامه، وصحنًا آخر مقابله، يضيء هاتف عمر فجأة باللون الأزرق دلالة على وصول رسالة، فيفتحها ويبدأ بالقراءة...

«عمر، مشان الله رد علي، والله راح أموت، تيتا عملت مصيبة قبل شوي، ماما اضطرت تروح تبيع قطعة من ذهبها، وتيتا عيرت بابا بالموضوع، وهو زعل وطلع من البيت وكلنا خايفين عليه، مش عارفة شو أعمل، قول لي شو أعمل».

يغلق عمر الهاتف ويضعه على الطاولة في ذات اللحظة التي تظهر فيها روان عائدة من دورة المياه في المطعم، فتأخذ مكانها مقابله.

- يعني ليلة زي هيك، وعشا رومانسي، وروبيان، وتارك كل هاد وعلقان بتلفونك؟ مع مين بتسولف حبيبي؟

يضحك عمر، ويجيب:

- لا والله ما بسولف مع حدا، بس هاي واحدة من العيلة، مش من العيلة يعني، قرابة بعيدة، ويبدو عندهم مشكلات مادية وهيك، فبعتت تطلب مساعدة، هاد كل الموضوع.

ترد روان وهي تضع قفازها تحضيرًا للروبيان:

- يـــيـيي، اوعك حبيبي اوعك، هدول لما تفتح لهم الباب، بحياته ما بتسكر، اسألني أنا، مهو في من قرايب بابا هيك، بعرفهم هدول العينات، كانوا يضلوا يجوا عند بابا واحنا واحنا واحنا، وبابا قلبه طيب، يقوم يعطيهم على أساس يحل مشكلتهم، بس ما بشبعوا، ما دام أعطيتهم مرة بصير بدهم كل مرة، فأنت من الأول لا تفتح الباب وريح راسك، هو الواحد ناقصه؟

- قولتك والله، الواحد مش ناقصه، انسي الموضوع أنتِ خلص، خلينا نركز في الروبيان، وها!

يمسك عمر شوكته وسكينه كمحارب! فتضحك روان ملء فمها.

* * * *

تظهر لبنى وقد عادت إلى البيت وهي تصرخ في وجه أمها:

- وأنتِ يما ليش تقولي له هيك؟ أنا شكيت لك شي؟ طلبت منك شي؟

- يما أنا عشانك، معقول يعني الواحدة بدل ما جوزها يجيب لها ذهب، يقوم يبيِّعها إياه؟

- ملعون أبو الذهب يما! أنا بدي ذهب؟ أنا بدي جوزي يمَّا، أنا بدي جوزي! بدي جوزي.

وتنهار باكية على الأريكة وهي تكرر «بدي جوزي»، بينما تهدئها ابنتها وابنها.

* * * *

عوني يسير مثقل الخطى على رصيف شارع رئيسي، ثم يجلس على سور قصير بقرب أحد الأكشاك وهو يمسح دموعه، يلاحظ الشاب المصري صاحب الكشك أن الرجل الذي جلس بقرب كشكه يبكي، فيقترب منه بهدوء ويقول:

- أجيب لك حاجة تاكلها يا حج؟

يهز عوني رأسه بالنفي، فيستطرد الشاب المصري:

- على حسابي واللهِ يا عم يا سكرة، ما تزعلش نفسك بس.

ينظر عوني بأسى نحو الشاب، ثم يهز رأسه مرة أخرى بالنفي.

يبتعد الشاب ويعود ناحية الكشك وهو يقول:

- واد يا قرني، هات ساندوتش فلافل وكباية شاي لعمك الحج.

يبدأ قرني بتحضير الطلب بينما يصدح صوت ريهام عبد الحكيم من سماعات الكشك وهي تقول: «هي غابة، واللي مالهوش ضهر فيها، حقه واكلاه الديابة، هي غابة، عشت طيب واتاكلت، خلاص بقى بطَّل خيابة».

يمسك الشاب المصري الشطيرة وكوب الشاي، ويضعهما في يد عوني وهو يقسم عليه أن يأخذهم.

ينظر عوني نحو ما تمسك يداه، شطيرة بيد، وكوب شاي باليد الأخرى، ويشعر بخفقان شديد في قلبه، رويدًا رويدًا تغشى الدموع عينيه، فيبدأ بمشاهدة الأشياء بغباش شديد...

ينظر الشاب المصري نحو ضيفه الخجول الصامت، ليتأكد أنه بدأ بالأكل، فيجده أسقط الشطيرة والكوب، وسقط هو أيضًا على الأرض، يصرخ في مساعده أن يأتي لمساعدته أو يطلب الإسعاف، وعلى وقع صراخه يجتمع بعض المارة.

* * * *

سند وفرح وتيسير ولبنى يقفون حول عوني، وهو مسجى أمامهم غائب عن الوعي، واضعًا قناع الأوكسجين، وجسمه مرتبط بعدة أسلاك، وتعرض الأجهزة المحيطة به علاماته الحيوية، يأتي الطبيب، ويشير لهم بالخروج خارج الغرفة، ويبدأ بالكلام:

- يا أختي، إحنا وقفنا النزيف في الدماغ، بس وضعه مش مستقر، لازم من هون ليومين بحد أقصى تكونوا نقلتوه على مستشفى وعملتوا

له العملية، هون راح يستنى على الدور كثير، وهذا الشي مش في مصلحته أبدًا، أنا عارف صعوبة الأوضاع، بس وضع أبوكم صعب كمان، شوفوا لو بتقدروا تجيبوا إعفاء من الديوان، أو أي شي، المهم خلال يومين لازم يعمل العملية.

يسأل تيسير:

- وقديش بتكلف العملية يا دكتور؟

- والله يا أخي، بدها 6 آلاف دينار على الأقل، في حال راعوكم يعني.

* * * *

يظهر سند وهو يحمل عوده ويخرج من محل أدوات موسيقية، ليدخل إلى المحل المجاور له.

تظهر فرح وهي تعطي كمبيوترها المحمول لصاحب محل الإلكترونيات، وتسلمه الفأرة والشاحن أيضًا، وهو يعطيها بعض النقود بالمقابل.

لبنى تجلس بمسكنة أمام إحدى السيدات في مكتب صغير لإقراض المرأة، والسيدة تستمع لما تقوله لبنى بغير اهتمام.

عمر يغرز شوكته في قطعة من الكيك البني الذي تزينه كومة من الآيس كريم الأبيض، فتنساب دفقة من الشوكولاتة السائلة الساخنة من وسطها في منظر مذهل، يغمس قطعة الكيك في مصهور الشوكولاتة ويطعمها لرفيقته بحب، وهي تمسك كلتا يديه بيديها.

تيسير على سطح منزله بقرب بيت الحمام، ومعه شاب في أواخر العشرينيات، وطفلان صغيران في العاشرة تقريبًا، أحدهما أقرع الرأس حافي القدمين، بينما يرتدي الآخر حذاء رثًا.

- 230 يا تيسير آخر شي، بدك بدك، ما بدك ما بدك، وأقول لك، باخذ الخم كمان، وعلى 250، شو قلت؟

- توكل على الله.

- تمام، شيل الحمام يا عوض.

يمسك الطفل الأقرع بشوال كبير من الخيش، يفتحه ويعطيه لزميله، ثم يفتح باب بيت الحمام، ويبدأ بوضع الحمامات واحدة تلو الأخرى في الشوال، بينما يدير تيسير رأسه نحو الجانب الآخر متفاديًا النظر.

- آآآآخ.

يصرخ الطفل فجأة.

- مالك ولا عوض؟

يسأل الشاب، فيبرِز الطفل الصغير إصبعه والدماء تسيل منه.

- عضني أبو الليل، ما أشرسه يا زلمة، والله لأعمل عليه شوربة!

- طيب يلا خلصني.

يضحك الشاب بينما ينقبض قلب تيسير وهو يرى الطفل يمسك أبا الليل ويضعه في الشوال.

- خلي لي أبو الليل يا سائد، واخصم عشرين دينار، أو ثلاثين لو بدك.

- لا لا لا تيسير، أبو الليل أولهم، من زمان بدي إياه، لو بدك تخليه بنلغي البيعة كلها.

- لا خلص، خلص.

يجيب تيسير بانكسار، وينهي الأطفال وضع الحمام في الشوالات، ثم يبدؤون بفك بيتهم الخشبي، وما إن ينتهي كل شيء، حتى يعطي الشاب تيسيرًا المبلغ المتفَق عليه، ويبدأ الجميع بنزول الدرج بينما يراقب تيسير ما يحملونه بحزن، وهنا يصرخ الطفل الأقرع الصغير، وهو ينظر نحو تيسير:

- والله غير شوربة يا تيسير!

فيضربه الشاب الكبير شلوطًا في قفاه وهو يضحك.

- ولك امشي امشي.

* * * *

يظهر تيسير وقد غابت الشمس، وهو يدخل المستشفى، ممسكًا نقودًا بيده اليمنى ويحمل باليسرى بعض الشطائر وعلب العصير، ويحث الخطى باتجاه باب قسم العناية المركزة.

لدى انعطافه في أحد الممرات، يسمع نواح أخته لبنى فتتباطأ خطاه، ولا تقوى قدماه على حمله، ثم يرى سند باكيًا وهو يرطم رأسه بالجدار، يقف تيسير متسمرًا في مكانه، ثم يبدأ بالرجوع قليلًا قليلًا نحو الجدار والأشياء تسقط من يديه، يسند ظهره إلى الجدار قبل أن يتكوم على نفسه وينفجر بالبكاء الصامت.

* * * *

مشهد العزاء... ويظهر سند وتيسير وهما واقفان بقرب بعضهما بعضًا يستقبلان المعزين، يرتديان السواد، وتظهر لحية تيسير لأول مرة، نابزة، مهمَلة، ويغزوها الشيب الأبيض، يتقدم الشاب الذي اشترى الحمام للتعزية، ومن خلفه أخوه الصغير الأقرع وقد انتعل حذاءً هذه المرة.

ثم يظهر عزاء النساء، ولبنى تجلس على كرسي، تستقبل تعزية النساء بصبر وثبات، وعلى مقربة منها ابنتها، وهي تقدم القهوة بعينين دامعتين.

* * * *

يجلس سند على رصيف متسخ أمام دكان، ويجلس بقربه صديقه إبراهيم.

- مريت على المخبز اليوم ما شفتك.

- أنا تركت الشغل.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ما كملت شهر لسه! أنت تركت ولا هم تركوك؟

يرد سند بدون اكتراث:

- لا أنا اللي تركت، راح أشتغل شغل ثاني بفلوس أحسن.

- مبروك طيب، مبروك، قلت لك ربنا رزاق كريم، مع مين راح تشتغل؟

يصمت سند قليلًا قبل أن يجيب:

- مع محمود الشاعر.

- نعم؟ مع محمود؟ وشو بدك تشتغل معه هذا؟

- مغني، هو صاير يتعهد حفلات، وعرض علي أشتغل معه مغني، بخمسين دينار الليلة، غير البقشيش.

تمر فترة صمت قبل أن يضيف إبراهيم بصوت هادئ:

- أنت عارف يا سند إنه هذا حرام، صح؟

ينفعل سند، ويرد بصوت غاضب:

- ليش اللي أنا فيه مش حرام يا إبراهيم؟ أنت عارف إحنا كيف عايشين من بعد ما مات أبوي؟ أو من قبل ما يموت حتى؟ إحنا عايشين من قلة الموت، أكل مش لاقيين نوكل، ولك حتى لما مات أبوي، حق القبر ما كان معنا، خالي تيسير تداينه دين. فش عنا ولا أي نوع من أنواع الدخل، فرح لسه ظايل عليها فصل، وخالي تيسير أنت عارف وضعه، مين ظل؟ أخلي إمي تطلع تشتغل يعني؟ والشغل في المخبز مش جايب همه، 200 دينار شو بدهم يسووا ليسووا؟

يصمت إبراهيم تمامًا...

- وعشان تكمل، صاحب البيت مبارح بعت لنا المحامي، قال أبوكم مات، وهيك العقد القديم انتهى، فيا بنوقع عقد إيجار جديد بـ 300 دينار يا بنخلي البيت، شو بدك إياني أعمل؟ أقعد أتفرج على إمي وأختي وهم بتشردوا في الشوارع؟

* * * *

- تقبَّل الله يابا.

- منا ومنك يا حبيبي، هذا المحامي اللي اتصل وأنا بصلي؟

- آه يابا، اتصل عشان قضية أبو سند.

- آه صح، شو صار بالقضية هاي؟

- ولا شي، حكم قاضي الاستئناف إنه بطلع له 92 ألف دينار، بس ما تحولت على التنفيذ لسه، المحامي تبعهم ما دفع رسوم التنفيذ، بس قال لي المحامي إنه لما يحولوها على التنفيذ راح يقدم استشكال، فبتأخر الموضوع كمان ست سبع شهور.

- غريب، بعد كل اللي عملوه ما حولوها على التنفيذ؟

- مهو يابا المحامي قال لي إنه عرف اليوم إنه أبو سند توفي من شهر تقريبًا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف مات؟

- بقولوا جلطة.

- إيـــــه، كل من عليها فان.

- يابا معلش أسأل سؤال؟

- اسأل يابا.

- ليش ما دفعنا الفلوس لأبو سند من الأول؟ بلا مرمرة المحاكم يعني، ما هم هيك هيك علينا.

- شوف يابا، أول شي، احنا ما بنوكل حق حدا أبدًا، لو هذا اللي مخوفك يعني، الله ما بيننا وبين الحرام، أبوكم رباكم من مال حلال وإن شاء الله تظل فلوسي حلال حتى ألقى ربي وهو عني راضي، فاحنا ما راح نوكلهم للفلوس، بس في شغلة مهمة لازم أنت تفهمهما هون.

- شو هي؟

- أنت مش بتلعب فطبول مع صحابك، وبتشجع مدريد هذا ولا مش عارف شو اسمه؟

- مدريد، آه.

- تمام، هسه لو انتو فايزين على الفريق الثاني، وبآخر دقيقة انفرد لاعب من عندهم وبده يجيب فيكم جول، مش بتعرقله عشان تحمي المرمى تبعكم؟

- مزبوط.

- عرقلة مش أخلاقية، بس قانونية، أداة جوا النظام وبتستخدمها لمصلحتك، ما حدا بقدر يحكي لك ثلث الثلاثة كام، وهذا بالزبط اللي بعمله أنا، عرقلة قانونية، يعني لما خلص أبو سند شغله، إحنا كنا محتاجين الفلوس هاي لمشروع الكرسي، وكان قدامنا حل من اثنين، يا إما بنعطيه إياهم وساعتها بتعطل مشروع الكرسي، وبنضطر نشوف بنك من هالبنوك الحرامية يداييننا إياهم سنة سنتين بفائدة الله أعلم قديش، وإما بنعرقل أبو سند شوي في المحاكم لغاية ما تمشي أمورنا، فعرقلناه، وهاي شغلة يابا الكل بعملها، حتى أبو سند نفسه.

يضع عبد العزيز شكري يديه على كتفي ابنه، وينظر مباشرة إلى عينيه ويكمل:

- إحنا يابا تجار، والتاجر مش اللي ببيع وبشتري، هذا وهم، الولد الصغير ببيع وبشتري، التاجر هو اللي بستغل كل أدوات السوق وأدوات الحكومة وأدوات المجتمع لصالحه وصالح تجارته عشان ما يقع، وببدي مصلحته على مصلحة الكل، التاجر الحقيقي يابا، هو اللي ما بوقع، حتى لو وقَّع الكل. فهمت؟

- فهمت يابا.

يترك الأب ابنه، ويعود نحو مكتبه وهو يقول:

- ويا سيدي عشان ما تزعل وتفكر أبوك ظالم ولا بحب الأذية للناس، بكره احكي أنت مع المحامي وقول له خلص ما يقدم استشكال، خليه يقعد مع القاضي ويشوف قديش فيه يقسط لنا إياهم، بحدود

خمسمية بالشهر، حرام، ولاد أبو سند بكونوا محتاجين الفلوس، وما بدنا نتحمل خطيتهم.

- حاضر يابا.

- وهسه قوم نروح على البيت، يا دوب أرتاح شوي وأطلع، الليلة خطبة بنت عمَّك علي غندور، ولازم نكون هناك أول الناس.

* * * *

- شفتي صورتهم ضحى؟

- شفت فرح، شفت كل شي.

- حاسة السما راح تنطبق على الأرض، قسمًا بالله.

- الله ينتقم منه بس.

- لا ضحى لا تقولي هيك، كل حي بوخذ نصيبه، الله يسهل عليه ويحميه بس، إلي مش إلي، بظل إنسان كويس وكان بيننا عشرة.

* * * *

يُفتَح باب المنزل، ويدخل منه تيسير، متشحًا بالسواد كما كان يوم العزاء، يبدو أنه خسر الكثير من وزنه، وتعطي لحيته البيضاء الطويلة انطباعًا بأنه قد كَبُرَ عشرين عامًا في الأسابيع الأخيرة، تنهي أخته صلاتها، وتلتفت إليه.

- تقبل الله يا أختي.

- منا ومنك يا أخوي.

- إمي نامت؟

- آه أعطيتها الدوا ونامت، أحط لك أكل؟

- لا، مش جاي على بالي، بدي بس أطلع أعشِّي الحمام.

تصمت أخته لمغالطته، ثم ينتبه هو لما قد قاله للتو، يسود صمت مربك، فيستطرد مغيِّرًا الموضوع:

- كأنه سند مش هون؟

- لا والله يا أخوي طلع مع أصحابه، وقال راح يتأخر.

- خير إن شاء الله، على فكرة أنا اليوم شفت له واحد بعرفه، صاحبي يعني، يمكن يساعدنا يجيبوا له بعثة عن طريق المنظمة.

- يسمع منك ربنا، والله كثير متنكد مسكين، عشان مش قادر يدرس.

- بتنحل إن شاء الله بتنحل، أنا بدي أروح أنام يا لبنى، تعبان شوي.

تتنهد أخته عميقًا، قبل أن تقول:

- نوم الهنا يا حبيبي، بس بدي أغلبك شوي، ممكن قبل ما تطلع بس، تحكي لك كلمتين مع فرح؟

- مالها فرح؟

- مش عارفة، إلها يومين مش على بعضها، واليوم من الصبح وهي بتبكي على نفس واحد، ومش راضية تحكي شو في، البنت مفتقدة أبوها يمكن.

يقلب تيسير عينيه تعجبًا، ولا يبدو عليه الاقتناع، لكنه يتجه نحو غرفة فرح على أي حال، ويطرق الباب.

* * * *

تفتح فرح الباب بعينين ذبَّلتهما الدموع، وبعد أن يدخل خالها ويغلق الباب، يجيل نظره في الغرفة ليرى أن صور كاظم وفيروز وبقية المغنيين قد تمزقت، وأن المرآة قد غُطيت بغلالة سوداء، تسود فترة من الصمت الحزين، قبل أن يقترب تيسير من ابنة أخته الجالسة على السرير، ويمسك كتفيها بحنان ويقول بلهجة ساخرة قليلًا:

- هو شوفي يا فرح، كل واحد فينا إله من اسمه نصيب، أنا مثلًا اسمي تيسير، وشوفي قديش حياتي ميسرة.

تنتزع فرح طيف ابتسامة وسط دموعها، فيكمل خالها:

- وأنتِ يا خالو اسمك فرح، وإن شاء الله حياتك كلها فرح، لكن شو ما كانت الدنيا حلوة، لازم بيجي يوم ويزورنا الحزن فيه، وشكله اليوم دورك أنتِ.

الحزن اليوم جاي ياخد قطعة من روحك، راح تتوجعي كثير، بس لا تقاوميه، أعطيه القطعة اللي بده إياها بطيب خاطر، وأنا بأكد لك إنه راح تقدري تعيشي باللي بظل منك، أنا متأكد، لأنه لو رفضتِ وقاومتِ، راح تظل هاي القطعة توجعك، طووووول عمرك.

يحتضن تيسير ابنة أخته بين ذراعيه بقوة، بينما تدفن رأسها في صدره، ويمنعها ذلك أن ترى تلألؤ الدموع في عينيه.

* * * *

يصعد تيسير أخيرًا نحو السطح، ينظر نحو أطلال بيت الحمام الذي كان يشكِّل حياته كلها، وتظهر الخرسانة التي كانت تحته بلون مختلف عما حولها، وآثار بعض المسامير التي كانت تثبت أركانه، يشيح بنظره عنه بسرعة، يستقر على كرسيه حيث كان يجلس دائمًا، ويستند بذراعه إلى الحافة الخرسانية لسور السطح، بينما ينفث دخان سيجارته نحو البعيد، مسليًا نفسه بمشاهدة دوائر الدخان وهي تتلاشى في عتمة الليل.

بدا ذلك الليل ثقيلًا وموحشًا وطويلًا، لم يكن ينير عتمته سوى بعض الأضواء المتلألئة من بعيد، ولا شيء يكسر صمته سوى صدى بعيد لأصوات صبية يلعبون، فجأة تقطع الصمت رفرفة جناحين لا يمكن لأذن تيسير أن تخطئها، وما إن يدير رأسه باتجاه الصوت، حتى يرى طائره الأثير أبو الليل، وهو يخرج من عتمة الليل ويهبط على الأرضية الخرسانية للسطح.

- أبو الليـــــــل!

يهتف تيسير بجذل طفل صغير، ويقف على قدميه.

يخطو الطير عدة خطوات في المساحة التي كان بيته يحتلها فيما سبق، يبدو وكأنه يبحث عن شيء ما، شيء ما كان هنا لكنه لم يعد موجودًا، يدور

الطير ويدور حول نفسه وهو يصدر هديلًا قلقًا بينما يراقب تيسير حركاته بحزن، ثم يرفرف الطائر بجناحيه ويصعد إلى السور الذي يقف عنده تيسير لكنه يستقر على مبعدة منه.

يهمُّ تيسير بالمسير نحو الطائر، لكن شيئًا ما يسمِّره في مكانه، فيمدُّ يدًا مرتجفة نحو الطائر، مبتسمًا شبه ابتسامة ومشيرًا له بالقدوم إليه، لكن الطائر -على غير عادته- لا يتحرك، تمرُّ لحظات ثقيلة وكثيفة وقاسية، يقلِّب الطائر المهيب فيها بصره فيما حوله وكأنه تائه، قبل أن يرفرف فجأة بجناحيه، عائدًا نحو الليل الذي جاء منه.

* * * *

في الجانب الآخر من المدينة، حفل الخطوبة ممتلئ عن آخره، وبينما يقف علي غندور ببذلته السوداء وشعره الأشيب على باب القاعة الفخمة، مُرحِّبًا ومحتضنًا صديقه عبد العزيز شكري، تهمس روان شيئًا في أذن عمر، فيضحك الاثنان، ووسط انشغال المدعوين في أحاديث جانبية واحتساء أكواب العصير، يقترب سند ببذلته الفضية اللامعة من الميكروفون، وبصوت مبحوح شجي يبدأ موَّالًا عن الحب والفراق ووعود المحبين التي لا تتحقق.

ما إن يبدأ سند بغناء الموال، حتى يصمت الحضور تمامًا وكأن على رؤوسهم الطير، وفي اللحظة التي يختم فيها مواله، تنطلق آهات الفتيات تأثرًا بغنائه الرائع، يبتسم سند، ويغمز بعينه للفرقة الموسيقية لتبدأ العزف، ثم يحرك يديه الاثنتين، وينساب صوته العذب.

وأنا يا طيـــر، ضيَّعني نصيـبـــي...

ومع دقات الموسيقى الصاخبة، تشتعل ساحة الرقص.

تمَّت

القفز من القطار

أعتقد أن على الإنسان في كل عام أو عامين أو خمسة أعوام حتى، أن يوقف حياته لعدة أيَّام، أن يقفز من قطار الزمن المندفع كحصان مجنون، ويسقط بعيدًا عنه، أن يراقب القطار وهو يتحرَّك دونه، دون أن يثير فيه هذا الأمر أي نوع من الندم أو الهشاشة أو الإحساس بفوات الأشياء، على الإنسان أن يصمَّ أذنيه عن صريخ عقارب الساعات، واستعباد المنبِّهات، أن يتحرر من قبضة الوقت، وأن يدعه يمرُّ دون قلق.

أعتقد أن على الإنسان أن يجلس على هامش الحياة بهدوء وسكينة ولو لساعة واحدة فقط، وبعيدًا عن أي حسابات آنيَّة، ليسأل نفسه بصدق: إلى أين هو ذاهب فعلًا؟

المعنى

تضعين كل قطعة مني في مكانها، تعطين أسئلتي المؤلمة إجاباتها المطمئنة والأبدية، تطفئين القلق وتشعلين الرغبة، تجعلين النهار أكثر مرحًا واخضرارًا، والليل أخف وطأة وحزنًا، وبِيَدٍ تزرعين في المستقبل أملًا، وبالأخرى تنزعين من الماضي أشواكه، تعطينني ابتسامة أنام عليها، وسببًا لكي أستيقظ في الصباح.

تمنحين المعنى للحياة وللأشياء، ولا أعلم ما يمكن لإنسان أن يمنحه لإنسان، ويكون أعظم من ذلك.

نسبية الوقت (مقال)

أنهى أطفالك العام الدراسي بنجاح وتفوق، وكمكافأة لأولئك الصغار، قالت لهم أمُّهم إنها ستعطي كلًّا منهم غدًا مبلغًا من المال لينفقوه في عطلتهم، وسيجدونه تحت وسائدهم عندما يستيقظون، لكن بشرط أن يناموا باكرًا اليوم، وافق الأطفال بفرح وذهبوا إلى أسرَّتهم، نام الأول في تمام الثامنة، والثاني بعده بنصف ساعة، وأسلم الثالث عينيه للنوم في التاسعة ليلًا، بينما بقيت أنت وأمهم ساهرَين، في منتصف الليل، وضعت أمهم النقود تحت الوسائد، بينما وقفت أنت تنظر بفرح إلى أطفالك النائمين، قائلًا لنفسك إنها ليست سوى ساعات قلائل ويستمتع الأطفال بجوائزهم.

في الحقيقة إن جملتك هذه صحيحة وخاطئة في الوقت نفسه، بالنسبة إليك، هي فعلًا ساعات قلائل حتى يستمتع الأطفال بجوائزهم، لكنك تقول ذلك فقط لأنك راقبت هذه الساعات، لكن بالنسبة إليهم فقد أخذ كلٌّ منهم جائزته في اللحظة نفسها التي نام فيها! مردُّ ذلك أن الزمن هو مفهوم نسبي، وما يهم الإنسان منه ليس ما تقوله الساعة، بقدر إحساسه هو نفسه بالزمن، والأطفال في نومهم لا يحسون بمرور الوقت، وبالتالي فبالنسبة إليهم لم تمُر سوى لحظة واحدة بين إغماض العين وبين العثور على الجائزة.

الموت يعمل بنفس هذه الآلية، وبالتالي اعتقادك أن على أبي جهل مثلًا أن ينتظر آلاف الأعوام الأخرى وأشراط الساعة الكبرى والصغرى وغيرها من الأشياء التي تجعل يوم القيامة بعيدًا جدًّا هو اعتقاد خاطئ تمامًا، لقد

نال أبو جهل عقابه بالفعل، ولم يكن بينه وبين عقابه أكثر من غمضة عين، لكن بالنسبة إليك، فهذا لم يحدث بعد، إنما بالنسبة إليه فقد حدث، تمامًا كما كنت تعتقد أن الأطفال لم يأخذوا جوائزهم بعد وعليهم أن ينتظروا عدة ساعات، لكنهم في الحقيقة قد أخذوها، ولم يكن بين نومهم وصحوهم سوى ثوانٍ معدودة.

ربما من الصعب علينا أن نفكِّر بنسبية الزمن على هذا النحو، لكن هذه هي الحقيقة، كل أولئك الذين ماتوا قد لاقوا مصائرهم بالفعل، وفي نفس اللحظة التي ماتوا فيها لكن ليس بالنسبة إليك، بالنسبة إليك هم لا يزالون ينتظرون في مكان ما، لكن هذا ليس مهمًّا فعلًا، المهم أن تدرك أنت، أن يوم القيامة هذا الذي يبدو بعيدًا جدًّا ويفصلك عنه آلاف السنين وعشرات الأحداث ليس كذلك بالفعل، قد يبدو ذلك صحيحًا بالنسبة إلى من سيأتون بعدك، إنما ليس لك، فليس بينك وبين أن تلقى نتيجة أعمالك سوى أن تغمض عينيك، بكل ما يمكن أن يحمل هذا من صبر أو خوف أو كليهما.

الراحة والتعب

من الأشياء التي أتمنى بصدق لو كنت قد تعلَّمتُها صغيرًا، هي أن عبارة «الراحة تأتي بعد التعب» عبارة خاطئة جملة وتفصيلًا.

ظاهر العبارة تحفيزي، لكنها تزرع في لا وعي الإنسان تصورًا مفاده أن العمل ما هو إلا تعب، ما هو إلا شيء كريه وممل وبغيض، ويفضَّل ألَّا نقوم به، لكنه ضروري للوصول إلى الجائزة أو الحالة الطبيعية للإنسان وهي الراحة والدعة والكسل.

تصوير العمل على أنه تعب، هو ما جعلنا نكره الذهاب إلى المدرسة، نمقت حل الواجبات والدراسة للامتحانات، هو ما جعلنا نرى أن هدفنا الرئيسي من المدرسة ليس اكتساب المعرفة، بل اجتياز الامتحانات طمعًا في الحصول على عطلة صيفية كسولة طال انتظارها.

هذا التصور هو الذي جعلنا نكره وظائفنا كبالغين، نتأفف لدى الاستيقاظ من النوم، نلعن الرأسمالية في الطريق إلى العمل، ونمضي النهار على مكاتبنا ونحن ننظر إلى الساعة، غافلين تمامًا عن القيمة التي نؤديها، عن العمل الذي ننجزه بل وحتى احتمالات أن نتطور ونرتقي، لنعود في آخر النهار ونحن نسأل الله أن يقبض إليه رئيسًا ما، أو يرسل عاصفة ثلجية شديدة تمنحنا عطلة غير متوقعة.

تصوُّر أن التعب ما هو إلا جسر للراحة بتعبير أبي تمَّام، هو ما جعلنا نرى كل ما نقوم به في يومنا على أنه تعب، وأن حياتنا لا تبدأ إلا بعد أن ننتهي منه كما قال كارل ماركس، هو ما جعلنا نقدِّس كل وسيلة تجعلنا

نعبر هذا الجسر البغيض بأسرع ما يمكن، سواء كانت تلك الوسيلة هي ميراث مفاجئ، أو تذكرة يانصيب رابحة، أو جائزة رمضانية، أو حتى السطو الحلال على بنك، أي شيء، المهم أنَّه يقربنا إلى هدفنا الأساسي؛ الراحة، التقاعد الثري المريح الذي أصبحنا نحلم به ونحن لا نزال في العشرين من العمر.

لو عادت بي الدنيا، سأقول للطفل الذي كنته إن الراحة الحقيقية على الصعيدين الجسدي والنفسي لا تأتي بعد التعب، إنما تكمن فيه، تكمن في العمل والبذل والحركة، في تغيير وصناعة الأشياء ومنح القيمة والمعنى لما حولنا، أما التعب الحقيقي فهو عندما يسترخي الإنسان على أريكته، ولا يجد شيئًا ليفعله.

جفاف النهر

أصعب طريقة تنتهي بها العلاقات البشرية تحدث عندما يجف نهر الكلمات بين الطرفين، والجفاف هنا ليس تعبيرًا أدبيًّا بقدر ما هو تصوير حقيقي لما يحدث.

تبدأ الجمل تصبح أقصر وأثقل، لتتحول إلى عبارات بسيطة، ثم كلمات متقطعة تخرج بصعوبة وتموت قبل أن تُقال، ثم صمت يخيم على كل شيء.

في بيتنا نسوية... (مقال)

في بدايات العصر الحجري، كان هنالك حفل زفاف بسيط اقتصر على عشر قبائل ضخمة، تزوج فيه رجل حجري بامرأة حجرية، كانت هدية العريس للعروس عبارة عن قرون كبيرة لوعل الجبل، وجلد نمر مرقط، وسنجاب أبيض طارده ليوم كامل. وبعدما أكل المدعوون وشربوا وغنوا ورقصوا وانفضوا عائدين إلى كهوفهم، اختلى الرجل الحجري بامرأته، وبعدما قضوا وقتًا حميميًا في كهفهما كما فعل جون سنو مع رفيقته، اكتشف الزوجان أن القُبَل لا تشبع البطن، وريق المحبوب لا يروي العطش، وأنه ليس بالحب وحده يحيا الإنسان، وإن كان للحياة أن تستمر، فلا بد لهما من اصطياد حيوان ما وطبخه، وكون الاثنان كانا ماهرَين في الصيد والطبخ، فقد كان هنالك حيرة حول تقسيم العمل بينهما، من يطبخ ومن يصطاد؟

وبعد فترة من المداولات، وقف الرجل وامرأته مقابل بعضهما بعضًا، وبما أنهما كانا عاريَين بسبب ما كان يحدث بينهما سابقًا، نظر كلٌّ منهما إلى جسد الآخر، وقررا على الفور أنه نظرًا لقوة الرجل العضلية فهو من يجب أن يقوم بالصيد، وستقوم المرأة بدورها بطهي الصيد، وهكذا تم أول اتفاق لتوزيع الأدوار الأسرية في التاريخ، أنا أصيد وأنت تطبخين، لا أحد أقل من أحد، ولا أحد أفضل من أحد، هذه شراكة وكل منا يقوم بدوره فيها. لاحقًا عندما أثمرت ليالي الكهف الجميلة عن أطفال حجريين صغار، تأكد لهما صحة توزيع الأدوار هذا، لأن الأطفال الحجريين كأي أطفال آخرين؛ تعلقوا بأمهم بسبب الرضاعة، وبالتالي لم يكن من المنطقي قط أن تخرج

الأم للصيد، وتلاحق الوعل الجبلي على المنحدرات بينما يتعلق أطفالها بصدرها، واستمرت حياة تلك الأسرة على هذا المنوال، شراكة بين رجل وامرأة، يؤدي فيها كل منهما عمله، ويضع ناتجه على طاولة الطعام في المساء.

لاحقًا تعقدت احتياجات الإنسان الحجري وتوسعت، ولم يعد الغزال الذي يصطاده كل يوم يكفي للحياة، إذ كان لا بد -بالإضافة للطعام- من مسكن، وملبس، وأثاث، وعلاج، إلخ، وهنا ظهر مفهوم جديد في البشرية، وهو أن يعمل البشر لدى بعضهم بعضًا أو أن يبيعوا منتجاتهم بعضهم لبعض، وهذا كان شيئًا جديدًا على البشر فرضته الحاجة، فالحيوانات مثلًا لا تفعله، لأنها لا تحتاج بعضها إلى بعض مثلنا، المهم أن نمط التغيير في العمل هذا حدث عند الرجال دون النساء، النساء لم يتغير عليهن شيء، عملهن في المنزل بقي كما هو؛ الطبخ والعناية بالأطفال والخياطة... إلخ، ولأن عمل الرجال هذا عند الآخرين كان متفاوتًا، نوعيته تتفاوت ومدده تتفاوت، فليس من يصطاد وعلًا، كمن يصطاد ثلاثة، وليس من يملأ جرة ماء من النبع كمن يحرث حقلًا، ظهرت حاجة إلى تقييم هذه الأعمال بالمال، هذا العمل يكلف عشر عملات، وذلك يكلف خمسًا وهكذا...

في الظاهر، أن شيئًا ما لم يختلف على الأسرة (موضع الدراسة هنا)، فصحيح أن الأب تحول من صائد غزلان لمصلحته إلى صائد غزلان لمصلحة الآخرين أيضًا، لكن بقي ما يقوم به تجاه أسرته على حاله؛ يخرج في الصباح ليصطاد الغزلان، يبيعها، ويعود لهم بالمساء وقد اشترى ما يحتاجون إليه، بينما تعمل أمهم معهم خلال النهار وتطهو في نهاية اليوم ما يحضره الأب، مرة أخرى يضع الطرفان جهدهما «المشترك» على مائدة الطعام في نهاية اليوم، لكن مع مرور الوقت، اكتشف الأب شيئًا مهمًّا جدًّا، وهو أنه في بعض الأيام، لن يضطر لإنفاق كل المال الذي كسبه، لأن العائلة ببساطة لن تحتاج إليه كله، فإن كان يكسب عشر عملات في اليوم، قد يصرف منها ثمانية، ويحتفظ لنفسه بعملتين، هذا الاكتشاف

العظيم هو ما غير حياة الرجال والنساء على السواء، لأنه مكَّن الرجل ولأول مرة من «تخزين» ناتج عمله، بينما المرأة لا تستطيع عمل ذلك، لا يمكنها تخزين ناتج عملها أبدًا، فبالإضافة إلى أن أحدًا ما لا يقيِّم عملها بشكل مادي، ويعطيها العملات في نهاية اليوم مقابل ما تقوم به، فإن ما تقوم به يُستَهلَك خلال النهار، لا يمكنك تخزين العناية بالأطفال مثلًا، أو تخزين التنظيف، أو الطهي.

مع مرور الوقت أكثر فأكثر، ظهر جليًا تأثير عملية تقييم الأعمال تلك، فبينما بقيت المرأة على حالها، تمكن الرجل من جمع ثروة من العملات، نسبها بالطبع لنفسه، وتعلَّم التجارة بها وتنميتها، بل وتحويلها إلى ممتلكات، وهذه كانت بداية ما يُعرَف بـ «النظام الأبوي»، تركز الثروات في أيدي الرجال وسيطرتهم على المجال العام، بالإضافة طبعًا إلى القوة العضلية، خلقت لديهم نوعًا من احتقار النساء واحتقار أعمالهن ودورهن في الحياة والنظرة لهن بطريقة دونية نوعًا ما، وصار الرجل يعد نفسه هو الذي يعمل فقط من أجل الأسرة، بينما المرأة لا تقوم بأي عمل فعليًا، ومهام البيت هذه ليست أكثر من «جلوس» في البيت، وهذا شيء يمكن ملاحظته في الثقافة الشعبية والمفردات حتى إلى يومنا هذا، «هل زوجتك تعمل؟»، «لا، جالسة في البيت».

المهم أن الأمر لم يتوقف فقط عند احتقار عمل المرأة في بيتها بعد خدعة التقييم تلك، بقدر ما امتد ليشمل كل شيء آخر، ففرض الرجال سلطات واسعة جدًّا على النساء تتجاوز بشكل كبير ومتعسف سلطة الرجل الطبيعية والمقبولة على زوجته، ومُنِعَت النساء من ممارسة الكثير من الأدوار الاجتماعية في المجال العام، كالتعليم مثلًا الذي يُفترَض أنه حق للجميع، ففي الستينيات مثلًا، كاد السماح بتعليم البنات أن يحدِث ثورة على النظام في السعودية، وليس المجال الاجتماعي فقط من تم تحويله لمصلحة الرجل، بل الدين نفسه -ومن خلال جزئية الفقه فيه- قد تم تحويره أيضًا بوعي أو بلا وعي، (وهنا من المهم جدًّا التمييز بين الشريعة

والفقه، الشريعة هي القرآن، الفقه اجتهادات البشر)، فآية واضحة مثلًا كآية الخُلع، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦٓ﴾ [آية 229، سورة البقرة] لم يتم تحويلها إلى قانون إلا بعد ألف وأربعمائة عام من نزول القرآن وبضغط اجتماعي كبير.

ولأن أي فئة من المجتمع تتعرض لتهميش وظلم لا بد لها من ثورة، ولأن النساء ظُلِمن حقيقة في موضوع الثروات هذا، فقد نشأت النسوية كحركة مدنية للدفاع عن حقوق النساء، لكن المشكلة كانت أن النسوية -كما يبدو لي- لم تستوعب تمامًا كيف سيطر الرجال على مناحي الحياة، وبدلًا من أن تفهم خدعة تخزين قيمة العمل هذه، وكيف أثرت في نظرة الرجال للنساء، فقفزت لمعالجة النتائج وعدَّت أن أساس المشكلة ليس عدم تقييم عمل النساء في بيوتهن، بل أن النساء لا يعملن خارج البيت، وقالت للرجال، أنتم تنظرون لنا بدونية وأننا لا نستطيع العمل، لا، نحن نستطيع (مع صورة المرأة التي تبرِز عضلات يدها)! وإن كان المال هو ما يمنحكم السيطرة علينا، فسنعمل ونمتلك المال أيضًا، وننال حرية قرارنا، وساهمت طبعًا الحروب العالمية والثورة الصناعية في هذا الأمر، فخرجت ملايين النساء من بيوتهن للعمل في المصانع والشركات، وصار بإمكان المرأة لأول مرة أن تكسب من عملها كما يفعل الرجل، لكن الطريف البائس هنا، أنها مع ذلك لم تتخلص من عملها الأول، فصار لزامًا عليها أيضًا أن تعمل في البيت كما في المصنع، لأن الأطفال لن يرضعوا من ثدي أبيهم، ولن يحل بأي حال من الأحوال مكانها، أي أن النسوية لم ترفع الظلم القائم على النساء بقدر ما سعت إلى معاكسة تأثيره، وأوكلت هذه المهمة للنساء عبر الخروج إلى سوق العمل، والتفريق بين هذين الأمرين مهم جدًّا.

عندما تقول النسوية إن حل المرأة يكمن في أن تعمل لتكسب استقلالها المادي بعيدًا عن تحكم الرجل، فإن هذا الكلام وإن كان صحيحًا فعلًا ويمنح المرأة استقلالًا ماديًّا فعلًا، لكنه في الوقت نفسه يحمل ذات النفس

الاحتقاري الموجود عند الرجال لعمل المرأة في بيتها، أي أنه بينما كان الأولى أن تحلَّ المشكلة من جذورها، ويتم إعادة تعريف العالم لتقدير عمل تلك المرأة في بيتها، وفهم الظلم التاريخي الذي لم يمكِّنها من تخزين قيمة عملها وتنميته كما فعل الرجل، تمت مطالبة النساء ببذل جهد مضاعف، داخل المنزل وخارجه.

وطبعًا هذا الحل الأعوج، وإن ساعد الكثيرات بتكلفة عالية دفعنها ودفعها الأطفال، فإنه لم يوقِف ظلم الرجل تجاه أولئك اللواتي لا يستطعن العمل لسبب أو لآخر، إما بسبب انعدام التعليم، أو قلة فرص العمل، أو وجود أبناء يحتاجون إلى وجودها بشكل دائم... إلخ، فصار من الطبيعي جدًّا أن تجد امرأة تقاسمت مع رجلها حياته لمدة خمس وعشرين سنة، بذلت فيها كل عمرها من أجل بيتها وأطفالها، تُرمى في نهاية العمر مع حقيبة ثيابها خارج العش الذي بنته، لأنها ببساطة لا تملكه، كل العمل الذي قامت به طوال كل تلك السنين ذهب مع الريح، وهؤلاء لا تستطيع النسوية أن تفعل شيئًا لهن، ولا تريد، بل تلومهن لأنهن لم يعملن، فالنسوية هنا أشبه بقائد يدافع عن قلعة، وبدلًا من صد هجوم المعتدي وإغلاق بوابات القلعة، يأمر جنوده بأن يحمل كل منهم سلاحه، فمن حمل سلاحه نجا، ومن لم يملك سلاحًا مات، وعدَّ القائد بذلك أن المشكلة قد حلت.

هذا طبعًا كله ناتج عن غياب تنظير حقيقي من داخل الحركة النسوية، واعتماد الغضب وردَّات الأفعال والشعبوية كمصادر للأفكار، والأهم هو اعتماد المساواة بدلًا من الخصوصية كمحور فكري تدور حوله الحركة النسوية، وكأن امرأة في الخمسين طُلِّقت وأُلقيَت إلى الشارع وانتهى بها الأمر تتسول نفقتها من قاضٍ لا يكلف نفسه عناء النظر إليها، سيهمها كثيرًا أن تتسلق امرأة قمة إيفرست، أو ستداوي جراحها فكرة أن تصبح فلانة بنت فلان أول حفارة قبور أو أول مصارعة ثيران.

هذا طبعًا عدا انحدار النسوية، من باب عدو عدوي صديقي، وكل من يعادي الرجال فنحن معه، نحو مناصرة قضايا لا أخلاقية ومنفرة مثل الشذوذ الجنسي، مع الأخذ في الحسبان طبعًا أنه لا كابوس أكبر لامرأة حقيقية من أن تستيقظ ذات يوم لتجد ابنها المراهق والرجل الذي تحلم ببنائه يرغب في أن يرتدي قميص نومها، ومع ذلك، تكرر النسوية على مسامعهن، أن عليها أن تتقبل انتكاس الفطرة هذا لأنها نسوية، وأنه لا يمكنك أن تكوني نسوية ما لم تدعمي حقوق الشواذ، وعليه فقس، محاولة النسويات هدم الدين كاملًا، (وليس الفقه الذكوري فقط)، التباهي بالإلحاد، تشجيع قتل الأجنة عبر «حق الإجهاض»... وإلخ من مخازي كافية لهدم أي حركة اجتماعية من أساسها، وعد أصحابها من المجاذيب.

إذا كان للنساء أن يقلبن التاريخ، ويعدن الأمر إلى المربع الأول حيث يتساوى الرجل والمرأة، ويتم تقدير جهود المرأة في بيتها كما يقدر الاقتصاد جهود الرجل بالمال، فيتم ذلك على أرض الواقع وعبر عكس المعادلة الأساسية الخادعة التي استأثر فيها الرجل بفائض نتاج عمله، ولنقل كبداية عبر فرض قانون يمنح المرأة نصف ممتلكات زوجها في حالة الطلاق كما هو معمول به في الولايات المتحدة، قانون كهذا يعني في فلسفته أن كل عمل المرأة في بيتها لم يضع هباء منثورًا، وأنه إن لم يقيَّم ماديًا بالنسبة إليها، فيمكن إعادة تقييمه عبر عدِّ أن كل قرش قد كسبه زوجها في أثناء زواجهما لها فيه النصف، تمامًا كما ناصفته عملها في البيت، ولفرض قانون كهذا، الذي من شأنه أن يحجِّم قهر الرجال للنساء بنسبة لا تقل عن 90 %، فيجب على النسويات ومن يناصر قضيتهن العادلة أن يبذلوا جهودًا سياسية وتشريعية لجعله قانونًا نافذًا، ينطبق على الغني والفقير والصغير والكبير.

طبعًا قانون كهذا من شأنه أن يثير الكثير من الجدل، في وسط الناس أولًا، الذين يتحسسون من فكرة أن تمتلك الزوجة نصف بيتها ولو كانت ساهمت فعليًا عبر راتبها في شرائه! وفي وسط رجال الدين الذين يتعاملون

مع الدين بمنطق الحاوي، لأن هذا السؤال بالتحديد «هل يحق للمرأة نصف ممتلكات زوجها بعد الطلاق؟» قد طُرِح بالفعل على رجال الدين، لكن الرد كان «لم نجده في كتبنا»، مع أنه لا يعارض قيمة العدالة في الشرع أبدًا، ويمكن بالقليل من الضغط جعله واقعًا، هو وقوانين أخرى ممكنة قد تخلق واقعًا فعليًّا على الأرض، واقعًا يغير حياة النساء وينصفهن، ولا يأخذ من حقوق الرجال بقدر ما يضعها في مكانها الصحيح.

في الختام، النسوية حركة بدأت لهدف نبيل، لكنها انحرفت كثيرًا عن المسار الذي كان يجب أن تتخذه، إما بسبب غياب التنظير أو بسبب سيطرة بعض المخبولات على التيار (على الأقل في عالمنا العربي)، لكن الواضح أنه إن كان هنالك من أمل في نصرة النساء المستضعَفات في هذا الجزء من العالم، فبالتأكيد لن يكون عبر كل هذا الترف الفكري العبثي المستورد، وإما أن تعود النسوية نحو مسار عادل «وواقعي» للمطالبة بحقوق يمكن فعلًا انتزاعها باستخدام أدوات المجتمع نفسها ودون معاداته واستفزازه، وأن تسعى بجد نحو مناصرة النساء في ظروفهن الطبيعية واحترام خياراتهن الفطرية، أو أن تستمر في أسطوانتها المشروخة أن الحل السحري هو كل الرجال قمامة، وإيجاد علاج للدورة، والانسحاق في سوق العمل من أجل بضعة دولارات، أي بمعنى آخر، تحويل النساء إلى رجال إنما بأعضاء أنثوية، في محاكاة بائسة ومكررة لتقليد المهزوم للمنتصر.

وللحديث بقية...

من قصاصاتي (7)

- ترتيب غرفتك يساعدك جدًّا في الهدوء، لأنه يمثل انعكاسًا لمحاولتك ترتيب نفسك من الداخل، كما أن أخذ حمام ساخن، يعكس محاولة لغسل روحك كلها.
- أتعاطف مع المرأة، فبالإضافة إلى كل المشكلات الحياتية والوجودية التي تتشاركها مع الرجل، يلزمها أيضًا أن تبدو جميلة!
- أعتقد أن الهوى في جوهره منتج لاهوتي، حاجة الإنسان إلى أن يكون عابدًا ومعبودًا في الوقت ذاته، حاجة دائمة إلى الصلة بين روحين، الهوى في جوهره صلاة.
- إن أصعب جزء في الفراق ليس أنه حدث، لكنها حقيقة أنكما لن تلتقيا مرة أخرى، التفكير بانعدام الاحتمال هو ما يقتلك.
- وكم مرَّة يتوجب على الإنسان أن يعيد بناء نفسه؟
- وعلى الرغم من كل خطاياي يا الله، فإنني حاولت جاهدًا أن أشبهك.
- ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الطور]. حين تقوم هذه، أي حين تستيقظ، وكأنني بالآية قد نزلت في الليل، المواساة الإلهية الليلية، لا تقلق يا محمد، أنت في أعيننا، نم ليلك الآن، وستكون الأمور بخير.
- غرفة بإنارة خافتة، فيها أرائك جلدية قديمة لكن مريحة، سجادة عجمية دافئة، نباتات ذابلة في أصص من الخزف والطين، كتب كثيرة مبعثرة هنا وهناك، صور على الجدران لأناس مبتسمين

بملامح باهتة، سجادة صلاة، وبعض أشرطة الأغاني، ورائحة من الأسى الجميل تغمر المكان، هذا هو قلبي.

- في زمان آخر أو وطن آخر، كنت لأكون مخرِجًا وكاتبًا لأفلام واقعية، أفلام عن البسطاء، وعن بيوتهم الدافئة وأحلامهم المكسورة التي يبنونها مرة بعد مرة. وكنت في كل فيلم سأضع عبارة أو لقطة لا يفهم مغزاها إلا أنا وأنت، سرٌّ صغير بيننا، شيء ما يضحِكك أنت فقط، لتضحكي كلَّما شاهدتِ الفيلم.
- هل هناك دلالة على ضياع الإنسان الدائم أوضح من وجوب قراءة آية ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة] أكثر من عشرين مرة في اليوم الواحد؟

الرهان (قصة قصيرة)

قاعة فخمة للزفاف، يتوافد عليها المدعوون، ويبدأ كل منهم بالجلوس على طاولته، تُعزَف موسيقى بسيطة في الخلفية، في آخر القاعة، وعلى طاولة معزولة وبعيدة نوعًا ما، يجلس شاب عشريني لا يرتدي ما يوحي أنه من ضيوف حفل الزفاف، يدخل العروسان في زفة بهيجة، تتبعهم الفرقة الموسيقية، ثم يجلسان قليلًا على المنصة قبل الذهاب لالتقاط بعض الصور.

تظهر سيدة عجوز في الستين من عمرها أو تزيد، بيضاء الشعر والبشرة، ضئيلة القوام، وبتسريحة شعر قصيرة جدًّا كأنما هي صبي، ترتدي فستانًا أبيض بسيطًا، وعقدًا خفيفًا من اللؤلؤ، وتمسك بيدها حقيبة بيضاء صغيرة، لا تضع السيدة أي مساحيق، ومع ذلك تبدو آثار الجمال القديم واضحة على محياها، وتشي عيناها الزرقاوان الصغيرتان بذكاء واضح.

تجيل السيدة النظر فيما حولها ثم تلحظ ذلك الشاب العشريني جالسًا وحده إلى الطاولة المنعزلة، فتختار الذهاب باتجاهه، وتختار الكرسي الملاصق لكرسيه تمامًا، ثم تجلس دون أن ترد التحية، تلمح أحد الجراسين قريبًا منها وهو يحمل صينية تملؤها أكواب العصير، تشير له أن يضع لها واحدًا من تلك الأكواب فيفعل، ثم تفتح حقيبتها الصغيرة، وتخرج منها علبة سجائر بنكهة النعناع، تشعل سيجارتها النحيفة، ثم تنظر أخيرًا إلى جارها في الطاولة الذي كان يراقب كل حركاتها وتقول:

- خلصت الزفة؟

- آه، قبل شوي.

- خسارة، بحب أحضر الزفة، بس ما قدرت أترك مسلسلي، الحلقة الأخيرة كانت.

يبتسم الشاب لكلامها:

- يلا معلش، ما فاتك كثير، لسه العرس بأوله.

تنفث دخان سيجارتها في الهواء، ثم تسأله:

- شو اسمك أنت؟

- فخري.

- فخري. (تكرر الاسم لكنها تفخِّم حرف الخاء)، بتعرف أنا بكره الأسماء هاي، فخري عزمي مجدي نصري، بتحسها كلها امتداد لسيطرة الأب على ابنه، امتلاكه إله، إنه الأب ما قدر يحصل مجده الخاص، فقرر إنه ابنه يكون هو مجده ونصره وفخره، مش هيك بتحس؟ أنا عندي ابن واحد على فكرة، اسمه أحمد، بس لو بدي أتبع هاي القاعدة، كنت سميته مأساتي، وبصير اسمي خالتو إم مأساتي، مرحبا خالتو إم مأساتي كيفك؟ ماما، خالتو إم مأساتي على التلفون.

يضحك الشاب لما تقول.

- بتضحك؟ والله إنه مأساتي، بس أنت عارف وين المشكلة؟ إنه لما نسمي أولادنا، بكونوا قطعة صغيرة وبريئة من اللحم، كيف بدنا نعرف شو راح يعملوا فينا بعدين؟ صعب صح؟ ما إحنا مش عرافين، ولا بنفتح بالمندل يا فخري، (تكرر الاسم بتفخيم الخاء)، بس بتعرف، أنا فخورة فيه، مع كل شي عمله، يمكن أبوك معه حق، لأنه كل ابن بالنهاية هو فخر لأبوه، سواء وصل يكون جراح أعصاب أو

حتى لو مجرد فني كهربا، هو فخر، (تسحب نفسًا من سيجارتها)، شو بتشتغل أنت صح؟

- فني كهربا.

تضحك العجوز ملء فمها، ثم تنظر إليه بعينين ضاحكتين ومشفقتين وتقول:

- ضربتك العجوز في مقتل، آه؟ بتحب أترك لك الطاولة تبكي؟ وأرجع لك بعد شوي؟ ولا بتقدر تتماسك؟

يضحك الشاب ويرد:

- لا بتماسك خلص، خليك.

تبدأ الأغاني في الحفل، لكن لبعد الطاولة فلا يزال الشاب والعجوز قادرين على متابعة حديثهما.

- بتعرف يا فخري؟ أنا زمان ما كنت هيك، كنت أراعي مشاعر الناس والله، كنت رقيقة يا أخي، عن جد كنت رقيقة، كنت رقيقة وحزينة، لأنه الناس أشرار، وبأذوا الإنسان الرقيق، مستغلين إنه يا عيني عليه بخاف على مشاعرهم فبسكت، أنا قررت ما أسكت، كان عيد ميلادي الأربعين، وعملت حفلة لصاحباتي، أنا بحب الحياة، قبل بليلة كنت قارئة شي لغاليانو، بتعرف غاليانو؟

يهز الشاب رأسه نفيًا.

- هاد فني كهربا زيك، بس ببلاد بره، وبعرف يكتب، قرأت له شي عن الخوف، وكيف إنه الخوف هو أكبر شي بنغص حياة الإنسان، وأقنعني الله يرضى عليه، فقررت ما أخاف، من شو بدي أخاف؟ ولمتى بدي أكون شخص ثاني غير اللي أنا عليه؟ صار عمري أربعين، متى راح أكون أنا الإنسانة اللي أنا عليها؟ وفي يوم الحفلة، واحدة من صاحباتي رمت علي كلمة، أخذت نفس هيك، وأخذت وضعية

المقاتل، ورديت عليها رد، ظلوا صاحباتي يضحكوا عليه سنة، مش عارفة شو قلت، بس ارتحت يا فخري كتيييير، يومين وأنا مبسوطة، كأني فتحت القدس، وأصلًا هديك السنة كانت عظيمة والله، مأساتي طلع يدرس طب في أميركا، وتطلقت، أحلى سنة بحياتي.

يرد الشاب بضحكة خفيفة ويهز رأسه.

- أنت متزوج يا فخري؟

- لأ.

يهز الشاب رأسه نافيًا.

- أحسن لك يا فخري، الزواج هاد شغلة غريبة والله، فخ لذيذ ومحكم، بتمشي له وأنت مبسوط، شوف تطلع العريس قديش مبسوط يا حرام، ولا العروس، شايف العروس يا فخري؟ الدنيا مش واسعاها من الفرح حزينة.

يهتز جسد فخري من الضحك.

- آه مبسوطين.

- بس عارف شو أخطر شي بهذا الفخ؟ إنه الناس بخجلوا يقولوا إنه فخ، بتظاهروا يا حرام إنه زواجهم سعيد، عشان ما نشمت فيهم، شوف الست اللي هناك مثلًا، اللي لابسة أحمر شايفها؟

ينظر فخري حيث أشارت العجوز، فيلمح سيدة ترتدي فستانًا أحمر تجلس إلى طاولة قريبة، ويجلس إلى جانبها رجل ضخم يرتدي بذلة رمادية.

- اللي قاعدة جنب الزلمة اللي لابس رمادي؟

- آه هاي هي، وهذا جوزها، روح اسألها عن زواجها، راح تكتب لك فيه قصائد، مع إنه زوجها الدب هاد اللي جنبها، بضربها بمعدل مرتين

بالأسبوع، ولما يروحوا عند أهله، بذلها ذل، العبد ما بنذّله، بشغلها خدامة عند إمه وخواته، وببهدلها قدامهم حتى تقول إمه كافي.

ينظر فخري باستغراب.

- طيب ليش بعمل هيك؟

تنظر السيدة العجوز حولها وكأنها تخاف أن يسمعها أحد، وتهمس لفخري:

- لأنه خربان.

يضع فخري يده على عينيه ويضحك، بينما تهز العجوز رأسها تأكيدًا.

- شو علاقة هاي بهاي؟

- كيف شو علاقة هاي بهاي أنت التاني؟ مهو لأنه خربان، مش قادر يحس برجولته مع زوجته، فهو بحاجة تأكيد لهاي الرجولة من مصدر ثاني، مين المصدر الثاني؟ الحيزبونة مامته، طيب كيف بده يخلي الحيزبونة تقول عنه رجل، بقوم بضرب المسكينة هديك، فهمت؟

- آه فهمت.

- طبعًا لو شو ما عملت أنت، مستحيل هاي المسكينة تصدق إنه هاد هو السبب، بالعكس، بتلاقيها بتلوم حالها على اللي بصير، وبتقول أنا ما احترمت إمه، أنا قصرت بأخته، وعايشة بدوامة من الألم هي مش السبب فيها.

ينظر فخري بشفقة نحو السيدة التي ترتدي الأحمر.

- ثقافتنا القمعية مش مخليتنا نستوعب إنه الجنس سبب معظم خلافاتنا الزوجية، مهما أنكرنا، مع إن الجنس نفسه على فكرة، لا حقيقة له، هو انعكاس الصورة على سطح الماء، انعكاس لذواتنا، بس لأنه إحنا مش قادرين نشوف ذواتنا، مضطرين نشوف الصورة عشان نفهم، فهمت علي يا فخري؟

يهز فخري رأسه.

- شوي آه.

تنظر العجوز نحو فخري بيأس ثم تشير للجرسون ليحضر لها كوبًا آخر من العصير.

- مثال ثاني، شايف هديك الست اللي لابسة أزرق؟ اللي حاملة الولد الصغير؟

ينظر فخري حيث أشارت العجوز، فيرى سيدة ثلاثينية جميلة ترتدي فستانًا أزرق وتحمل على يديها طفلًا رضيعًا.

- شايفها آه.

- هاي معلمة على فكرة، بتعرف هاي المعلمة شو أول شي بتفكر فيه الصبح لما تصحى وتلاقي النضوة ممدد جنبها قاعد بشخور أو واقف في الحمام و أوحح أوححح أوححح (تقلد صوت الكحة) ، بتعرف بشو بتفكر؟

- لا.

- بتفكر باللي بتفكر فيه كل ست متزوجة بس تصحى من النوم الصبح، أنا تزوجت الرجل الخطأ! ندم يومي وآني غير محدود، بتعرف متى آخر مرة هاي زوجها حكى لها إنها حلوة، أو إنه بشتاق لها؟ من عشر سنين يمكن أو أكثر، وبس تسأله الدب هذا ذو القرنين، ليش ما بتحكي لها حلوة؟ ليش ما بتقول لها مشتاق لك؟ ليش ما تحسسها إنها أنثى؟ بقول لك بصوته اللي زي فحيح الأفعى، (تقلد صوت الرجل) شو أحسسها إنها أنثى؟ ما هي أنثى! ما إحنا عارفين يا فلتة زمانك إنها أنثى، أنثى الإنسان من الثدييات التي تلد وترضع وتحمل جنينها تسعة أشهر، ولاد الصف التاسع عارفين هاد الكلام، مش السؤال إنها أنثى ولا لأ، السؤال هل هي بتحس فعلًا إنها أنثى؟ هل سموك أشعرتها بهالشي؟ هل لما ترجع من المدرسة ميتة من

التعب وتقعد تطبخ وتجلي وتنظف وتمسح وتدرس ولادك، وتعاقب هاد وتعاقب هاد، هل هذا كافي إنها تشعر بأنوثتها؟

يصمت فخري، وينظر إلى السيدة التي ترتدي الأزرق بشفقة كبيرة.

- عارف شو اللي بعطيها الإحساس بالأنوثة يا فخري؟

- شو؟

- الساعة اللي ممكن زوجها يقعد معها فيها بس يناموا الأولاد بالليل، هاي هي سر الزواج الناجح، ساعة بس مش أكثر، ساعة من هال 24 ساعة اللي بتحرث فيهم زي الجاموس في الساقية، يمسك إيدها، يحط إيده على شعرها، يضحكها بنكتة، بس هو فكرك بعمل هيك؟ تطلع عليه، بعمل هيك فكرك؟

ينظر فخري نحو زوج السيدة.

- لا طبعًا، صحابه والأرجيلة أولى، لازم يطلع يأرجل معهم كل يوم، وكل ما تعاتبه، بطلع لها بعذر جديد، اليوم رايحين نعزي فلان، بدي أصلح غطا المحرك، بدنا نحضر مباراة برشلونة، بدي أودي أبوي على الدكتور، كل شي بعمل بس ما بقعد معها، مين عاد بعبي فراغ قلبها؟ مش مهم عنده، ولا بفكر أساسًا، بس لما يرجع بآخر الليل ويكون رايق، بقولها قومي خدي شور، لأنه يا عيني عليه «مشتاق لها».

يقلب فخري نظره بين السيدة ذات الثوب الأزرق وزوجها.

- وكل اللي أنت شايفهم هون زي هيك يا فخري، 90 % خلينا نقول، اللي بآخر القاعة هاي اللي لابسة أخضر، بتحب الأستاذ الخصوصي تبع أولادها، بس ما قالت له، هو الوحيد اللي في حياتها بعاملها بلطف، وبالآخر اضطرت توقفه، عشان ما تضعف قدامه، الزلمة اللي قاعد هناك على الطاولة الأخيرة، اللي بدخن قاعد، مصاحب السكرتيرة تبعته، لأنه زوجته مشغولة بحلقات التحفيظ، وولا بحياتها أشعرته

باهتمامها فيه، ولا بحياتها أكدت له رجولته أو أشعرته إنه مرغوب، ما الزلمة كمان بحاجة لتأكيد هويته يا فخري، مش بس الست، وهذا اللي بنغفل عنه في علاقاتنا، ما بنأكد هويات بعض.

ينظر فخري نحو من أشارت إليهم السيدة، وتدور الأفكار في رأسه...

- الزواج شغلة صعبة يا فخري، بتقوم بشكل أساسي مش بس على تلبية الاحتياجات اليومية من خبز وسكن لأ، بتقوم على تأكيد متبادل للهويات الجنسية، وهذا هو اللي بخلي عنا حالة الانفصام هاي، عدم إشباع حاجاتنا، عدم تأكيد هوياتنا، عشان هيك بتلاقي كل الأزواج بمثلوا، على بعض وعلى حالهم وعلى المجتمع، بتلاقي داخل كل واحد فيهم حدا ما بتعرفه، وتحت المدينة اللي بتبين مثالية وسعيدة، مدينة كاملة ثانية أنت ما بتعرفها.

- غريب والله غريب!

يردد فخري وهو يجول بنظره بين الناس بينما تشعل العجوز سيجارة أخرى، وتسود فترة من الصمت.

- تراهنني يا فخري؟

- على إيش؟

- إنه لو في قوة سحرية قالت لهدول الناس كلهم اللي انت شايفهم هون، إنه فيكم تتطلقوا بدون أي تبعات من مصاريف وولاد، إلا 90 % منهم يتطلقوا؟ وولا واحد أو واحدة يروح على بيته؟

- معقول؟

- طبعًا، لأنه الزواج بالطريقة هاي بتحول لسجن، بس سجن أنت مختاره، لظروف أكبر منك، لكن لما تتحرر من هاي الظروف، راح تهرب فورًا، وهدول كلهم راح يهربوا، 100 % مش 90 %، براهنك، والعريس كمان معاهم!

يضحك فخري.

- والعريس كمان؟

- آه لو فيه عقل.

يضحك فخري ثم ينظر نحو العجوز ويقول:

- براهنك، بس عندي سؤال.

- اسأل.

- أنتِ كيف بتعرفي كل هاد عن كل هدول الناس؟ يعني كيف فتحوا لك قلوبهم هيك؟

تنظر السيدة نحو فخري باستغراب، رافعة حاجبيها من الدهشة!

- ما بعرفهم فخري! أول مرة بشوفهم، أنا بيتي هون قريب من القاعة، فلما بزهق، بقوم بلبس وبتمشى وباجي هون، بنبسط مع هالناس، وبسمع أغاني، وبشرب عصير، بس بعرف حدا فيهم؟ لا طبعًا ما بعرف حدا.

يضرب فخري بكلتا يديه على الطاولة وينفجر من الضحك، بينما تنظر العجوز نحوه بابتسامة، ثم تضحك هي الأخرى، يقطع ضحكهما صراخ عالٍ قادم من جهة المنصة التي يجلس عليها العريسان، تقطع الموسيقى ويستمر الصراخ وبعض الشتائم، يندفع الناس كلهم نحو المنصة، ثم ينبثق الجمع عن والد العروس وهو يجرها من يده ويشتم أهل العريس، بينما أم العريس تقف على المنصة مع ابنها وترد الشتائم، بينما يحوقل الناس ويحاولون احتواء الموقف.

تضحك العجوز ملء فمها وتنظر نحو فخري المصعوق مما رأى، وتقول:

- طلعت العروس أشطر من العريس، بس بظل، كسبت الرهان!

تمّت

الماضي لا يعود

أتمنى أن يقتنع جزءٌ ما في داخلي، أنه لا يمكنني العودة إلى الماضي، ولا إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، وأن يكفَّ عن رسم سيناريوهات لم تحدث ولَم يعد بإمكانها أن تحدث، حتى وإن كانت تسعده، لأنها تدميني عندما تنتهي إلى لا شيء.

أتمنى أن يوقن ذلك الجزء الموغل في قلبي، أن الزمن يسير باتجاه واحد، وأنه لا شيء أصعب على الإنسان من أن يحلم بماضٍ لن يعود، وأن يفعل ذلك في كل ليلة.

الغزال الذي كُسِرَت ساقه

هنالك حقيقة قاسية جدًّا في الحياة، لكن إدراكها مهم فعلًا، وهي أنَّه بغض النظر عن أي ظروف مررتَ بها، وأدَّت لضعفك، إلا أنَّ قلب هذه الظروف والتغلب عليها هو مسؤوليتك أنت.

خلف ستار المجاملات، فلا أحد يهتم فعلًا بتحليل أسباب ضعفك ومساعدتك لتتجاوزها، لأن الضعف بطبيعته شيء منفِّر للقريب قبل الغريب، والتعاطف مع الضعف -لو وُجِد- فهو مؤقت ومرهق، ويفضِّل الناس دائمًا أن يحبُّوا شخصًا قويًّا على أن يتعاطفوا مع شخص ضعيف.

وهكذا، بإمكان الغزال الذي كُسِرَت ساقه أن يتحدث كثيرًا عن أن هذا لم يكن ذنبه، لكن كل حججه تلك لن تمنع قطيعه من تركه، وبالتأكيد لن تجعل الأسد يمنحه فرصة للهروب.

لماذا يفشل الصادقون في الحب؟ (مقال)

أولئك الصادقون الذين تنساب كلماتهم من القلب إلى اللسان مباشرة، هُم تقريبًا أفشل الناس في علاقاتهم العاطفية، هذا إذا نجحوا أساسًا في تحويل الفرص التي تمنحهم إياها الحياة إلى علاقات.

مردُّ هذا الأمر باختصار هو أن الحب لا يقوم أبدًا على صدق المشاعر وتدفُّقها، بقدر المهارة في صرف وإدارة تلك المشاعر، ولا يقوم على القرب بين العاشقين بقدر ما يقوم على فن إدارة المسافات بينهما، وهذا يحتِّم بالضرورة ألا يفعل الإنسان ما يود فعله، وألَّا يقول ما يشعر به فعلًا، وهنا لا نقول إن عليه أن يكذب! لكن يخفي ما يشعر به، يؤجِّله، يواري فيه، والأهمُّ ألا يتصرف بناءً عليه.

ذلك إذا سألت أحد أولئك الطيبين، متى عليك أن تهاتف المحبوب؟ فسيردُّ بكل تلقائية وعفوية، «عندما أشتاق إليه»، يبدو الجواب منطقيًّا فعلًا، فنحن نهاتف الناس عندما نشتاق إليهم، وهذا ينفع مع الأب والأمِّ، لكنه لا ينفع في الحبِّ، في الحب هذه الإجابة خاطئة تمامًا! أنت لا تهاتف محبوبك عندما تشتاق إليه، مشاعرك هنا لا علاقة لها بالأمر، أنت تهاتفه عندما تحسُّ أنه اشتاق إليك، وذلك ليلتقي الشوق مع الشوق، ولا يكون ما تقدِّمه من طرف واحد فيبدو ثقيلًا مجانيًّا لا يرغب فيه أحد.

الخدعة هنا أن أحدًا لن يحبَّك لأنك تحبُّه! ولن يهيم أحد في هواك لأنك رائع ومتاح حين يحتاج إليك! أنت هنا تتصرف كأمٍّ متفانية، لكنك لست أمًّا! أنت محبوب! والمحبوب لا يتصرف بناءً على قانون البذل، بل بناءً على

قانون الندرة، وبحسب هذا القانون، فأنت تصبح محبوبًا أكثر، عندما يدرك الشخص المقابل أنه مضطر لبذل جهود كبيرة للظفر بك، وأن الكلام معك شيء لا يحدث كل يوم، والجلوس معك غنيمة، وضحكتك كنز نادر! وأنَّه؛ أي الشخص المقابل، جزء من حياتك، وليس حياتك كلَّها، وأن الطريق إلى قلبك ممكن، لكنه لا ينتهي بين يوم وليلة، وليس تحدِّيًا سهلًا أبدًا، والفنُّ هنا هو أن تدير كل هذا الحوار، بغض النظر عما تشعر به في داخلك.

لذلك، ما ينطبق على الاتصال ينطبق على كل شيء آخر، أنت لا تحضر عندما تريد، بل عندما يكون حضورك منتظَرًا بشدة ولهفة، وتغيب بلا سبب سوى إشعال الشوق، وتطيل كلامك حين يسعك الطول، وتقصر في غير ذلك، ولا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، ونؤمن أن الفراغ جزء من جمال الوجود، لا ينتظم إلا به، وكما يدخل كعنصر في تصميم الملابس وتصميم البيوت وتصميم الحدائق، يدخل أيضًا في تصميم الحب.

طبعًا البعض منا يمارس هذه الألاعيب اللطيفة بتلقائية شديدة وكأنَّما وُلِد بها، والبعض الآخر يستغرب فعلًا لمَ عليه أن يفعل ذلك! ولماذا لا يكون الشيء مباشرًا وصريحًا؟! ولماذا عليه أن يخفي ما يشعر به، ويدير الموضوع على أنَّه عملية صيد؟! والجواب بكل بساطة لأن الحب ما هو إلَّا عملية صيد، ويحتاج منا إلى كل تلك المهارات التي تلزم الصياد، من تمويه وخداع وتنكر وصبر وكتمان لما في النفس من نيات.

ذلك فهنالك فرق كبير بين من يدخل الغابة متسلِّحًا بكل حيل الصياد، وبين من يدخلها وهو لا يحمل إلا براءته وصدقه ونياته الطيبة، فرق كبير بين من تسأله صديقته: «اشتقت لي؟» فيردُّ: «أكيد اشتقت لك، كل يوم بفكِّر فيكِ، كل لحظة وكل ساعة!» وبين من تسأله صديقته: «اشتقت لي؟» فيردُّ: »أنا؟ ليش بدِّي أشتاق لك يعني؟ شو في بيننا لا مؤاخذة؟ إنُّه ليش بدِّي أفكِّر فيك يعني كل ما أصحى من النوم ولا طول ما أنا رايح عالشغل؟! ولا كل ما بدِّي أسمع اسم زي اسمك أو أشم عطرك زي عطرك؟ لا طبعًا،

ما في شي بيننا بستدعي هالمبالغة، أنتِ زيك زي أي حدا ثاني في حياتي، ما بتخطري على بالي إلا كل وين ووين، يا دوب كل ربع ساعة بتيجي على بالي مرة! ومش دايمًا حتى، بس وأنا صاحي، وأنا نايم لأ، يعني مرات وأنا نايم، مرَّات، مش دايمًا».

الأول أثبت حبَّه بصدق وعفوية، والثاني أثبته إنما عبر نفيه بمكر مضحك، وهذه باختصار هي ألاعيب الحب.

لا أكره الناس

لا، لا أكره الناس، لا يمكنك أن تقولي ذلك، ربَّما أكون قد غضبت منهم في مرحلة ما، شتمتهم قليلًا، لعنتهم ربَّما، قلت فيهم أقذع الشتائم وأحقر الألفاظ، نمت ليالي طويلة وأنا أتمنى أن ينسفهم نيزك أو تبتلعهم الأرض، أن يحتضروا ببطء وألم، وتتفسَّخ أعضاؤهم وتتعفن ويأكلها الدود وهم ينظرون! نعم، ربَّما أكون قد فعلت ذلك، لكن هذا كله قد انتهى الآن، مرحلة الحزن السانج والغضب الطفولي ولوم العالم هذه قد انتهت، الآن يمكنك القول إنني متصالح مع الناس، أو بشكل أدق: لا أشغل بالي بهم.

الآن أعدت ترتيب الأشياء، واضعًا نفسي في المقدمة، أفعل ما أودُّ فعله، وأحصل على ما يجب الحصول عليه، بأقل قدر من الاعتبار لما يمكن أن يسببه ذلك من حزن وغضب للآخرين، بل يمكنني القول حتَّى إن حزنهم يدغدغني أحيانًا، لأنك تكتشف بعد فترة أن ما كان يصوَّر لك على أنه مساعدة، لم يكن في الحقيقة سوى استغلال، وأن ضرورياتك التي نحرتها على مذبح الإيثار والشهامة، قد نُحرَت حقيقة من أجل كماليات الآخرين، وأنَّ كل تلك الأشياء الرائعة التي فاتتك، لم تكن لتفوتك لو أنَّك امتلكت القليل من الشجاعة الضرورية لقول لا، وأنَّ «لا» هذه ليست كارثة كما كنت تظن، ولَم يكن لينهار العالم فعلًا لو قلتها، ولكان الناس قد وجدوا حلولًا أخرى، واستمرت الحياة...

لكن هذه المعرفة ليست مجانية، لا تهبط عليك من السماء، إنَّما تأتي في تلك اللحظة التي تدرك فيها أن العالم الذي أمضيت عمرك متعاطفًا معه، لن يتعاطف معك في أزماتك، وأن هذا العالم الذي سرقت روحك وأنت

تحاول أَلّا تنهار أركانه، قد وقف صامتًا متفرجًا عندما انهارت أركانك أنت، وأنَّك لم تكن طيبًا كما كنت تحبُّ أن تسمِّي نفسك، بل مغفَّلًا.

لحظة اكتشاف هذه الخدعة هي لحظة مؤلمة بالفعل، لكنها تساوي وزنها ذهبًا، لحظة فارقة وخالدة وقطعية، وليس ما بعدها كما قبلها، إنها اللحظة التي يحصل فيها الإنسان على أغلى ممتلكاته، الأنانية الضرورية للحياة.

التأثير الحقيقي

ما من صدقة جارية أفضل من أن يربِّي الإنسان أولاده، ولا ذنوب جارية أسوأ من أن يترك الناس يعانون من انعدام تربيتهم.

هذا تأثيرك الحقيقي في العالم، ما عدا ذلك، هوامش.

السحر (مقال)

في ديني الذي أدين به لله، أن السِّحر كما قال الإمام أبو حنيفة «لا حقيقة له»، وأنَّه ليس أكثر من خداع بصري وتخيُّل، «سحروا -أعين- الناس»، ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ ﴾ [سورة طه]. وبما أنَّه مجرَّد خداع بصريٍّ، فلا يمكن للسحر والسحرة أن يضرُّوا أو ينفعوا، ولو كانوا يملكون ضررًا أو نفعًا لأنقذوا أنفسهم من بطش فرعون، لكنَّ ذلك لم يحدث.

وعليه، فالأمراض بنوعيها الجسدي والنفسي، يعالجها الأطبَّاء، والخلافات الأسرية تعالَج بالحكمة والموعظة الحسنة، والزواج قدر لا يتحكَّم به إلَّا الله، والأطفال هبة منه، يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور.

ومن يُؤْمِن بالسحر عندي إما شخص متكسِّب ماديًّا من إيمان الناس به، فيبيعهم «رقيته» الشرعية، وإما أناس يكون تفسير ظروف حياتهم بوجود السحر، أقل ألمًا لهم من تفسيرها دونه، فيلومون السحر عِوضًا عن أن يلوموا أنفسهم، ويعلِّقون ما يعانونه على شمَّاعة الغيبيات، بدلًا من معالجة أسبابه الحقيقية.

أما ما أُنزل على الملكين ببابل، فلا ندري ما هو، لكنه ليس سحرًا بل هو شيء مضاف للسحر، معطوف عليه، لكنه ليس سحرًا، ولو كانا نفس الشيء لقال تعالى «يُعلّمون الناس السحر الذي أنزل على الملكين ببابل»، لكنه لم يقُل ذلك، بل قال «يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين

ببابل» أي فصل بين السحر وبين ما أُنزل على الملكين، فالسحر المقصود إذن هو خداع بصري علَّمته الشياطين للناس ويمكن تعلُّمه من أي ساحر، أما الفتنة التي أُنزِلت على الملكين ببابل، والتي تفرِّق بين المرء وزوجه، فشيء مختلف لا نعرف ما هو، ولَم يفصِّله الله لنا.

وسياق الآيات أساسًا موجَّه لليهود وليس لنا كمسلمين، الله في آياته يبرئ النبي سليمان من تهمة السحر التي اتهمه بها اليهود، وذكر ما فعلته الشياطين بتعليم الناس الخدع، وذكر أيضًا في السياق هاروت وماروت، الذين يبدو أن اليهود لديهم معرفة بهم، لكن نحن لا نعرفهم، فالخلاصة أن السحر شيء، وما أُنزِل على الملكين شيء آخر.

وأما من يحتج لرأيه، بالقول إنَّ نبينا محمد -عليه السلام- قد سُحِر، فقد كفر بالقرآن الذي أُنزِل على محمَّد، ووافق قريش فيما كانت تقول «إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا»، الرسول -عليه السلام- لم يُسحَر ولَم يفقد عقله ثانية من زمان، والنبي موسى -عليه السلام- لم يُسحَر أيضًا، إنما خُدِع بخُدَع السحرة كما نُخدَع بها نحن في السيرك، وهذا لا يعني أن الإنسان قد سُحِر، إنما خدعته حواسُّه، ويجري هذا على كل إنسان، أما تصوُّر أن النبي يظن أنه فعل الشيء ولا يفعله فهذا شيء يصيب العقل، وليس خدعة للحواس، وننزه رسولنا عنه، ولو رواه ألف راوٍ، وسُوَر المعوذات مكية، نزلت قبل حادثة السحر المزعومة، فهي ليست رقيَة للسحر الذي لا يوجد أصلًا.

ما معنى النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ؟ لا أعلم، مختلَف عليها، آيات متشابهة، مثل آية ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤﴾ [سورة ص]. ما هو هذا الجسد؟ لا نعلم، آيات متشابهة، لكن العقيدة التي ندين بها لله واضحة، الإسلام لا يقرُّ أن بإمكان بعض الناس تحويل الآخرين إلى ضفادع!

من قصاصاتي (8)

- العقل سيِّد النعم، ما عدا ذلك متغيِّرات.
- المشكلة ليست في قلة الوقت، الوقت دائمًا موجود، المشكلة في القلق الدائم الذي يسكن روحك، الانشغال عديم المعنى، التفكير في دوائر، الصوت الذي كلما قلت له شيئًا قال لك ليس الآن، الرغبة العميقة في أن شيئًا ما لا تعرف كنهه بالضبط يجب أن ينتهي، ليبدأ كل شيء آخر.
- بدايات الحبِّ سهلة، لكن الحفاظ عليه؟ رِحلَة عُمر.
- الكثير من الأحرف المتجمِّعة في صدري، أحاول جاهدًا إقناعها بالجلوس بقرب بعضها بعضًا لتتحول إلى كلمات ومعانٍ فأتمكن من إخراجها، لكن بلا فائدة، تركض وتتقافز هنا وهناك، وأنا أراقبها وأتنهَّد.
- دون النظر حتى إلى ما سيحدث في الحياة الآخرة، يومًا بعد يوم أقتنع أن العلاقة مع الله هي أهمُّ علاقات الإنسان، لأنها هي وحدها القادرة دومًا على منحه الطمأنينة هنا، على الأرض، وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ.
- أبحث عما لا أعرف ما هو، وآمل أن أجده.
- كلما هممت بالكتابة عن رذيلة ما، أتذكر أنني فعلتها ذات يوم، اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا.

- أرغب الآن في أن أركب في قطار ليلي، شخص ما آخر يقوده، ويتناثر حولي بعض الركاب المتعبين مثلي، لا يتوقف هذا القطار في أي محطات، يعبر الشوارع المضاءة فقط، وإذا توقف فلن أنزل، أحدِّق فقط عبر النافذة بينما الأشياء تمرُّ، مفكِّرًا في اللاشيء، ثم أغمض عيني ويكمل القطار سيره بلا نهاية.

أو نتجوَّل معًا في طريق ترابي ريفي، تحيط بنا الأشجار وحقول القمح، نتحدث ونضحك بصوت عالٍ لا يناسب جلال الليل الهادئ، ونغنِّي، أنا وأنتِ، طريق ممتد بلا نهاية، فقط بعض الأضواء البعيدة، عواء كلب من بعيد، حفيف الشجر، صوت الخطوات، النسيم البارد، ضوء القمر، وأنفاسنا الضاحكة.

الأمل (قصة قصيرة)

##

بعد سنة على التخرُّج في الجامعة تلتقي أعينهما صدفة في محلٍّ للقهوة.

- دانة!

- ولاء!

تهرول الشابَّتان نحو بعضهما بعضًا وتبدأ سلسلة من العناق والقُبل، محاذرة كل منهما أن تسكب قهوتها في أثناء العناق!

- ولَك كيفك دانة؟! اشتقت لك! قديش إلي ما شفتك؟ سنة؟

- وأنا والله، آه سنة تقريبًا! آخر مرة التقينا الصيف الماضي، بالتخريج.

- يا الله كيف الدنيا، كأنه إلي عشرين سنة مش شايفتك، اقعدي اقعدي.

تجلس الفتاتان على طاولة فارغة...

- طمنيني عنك، شو أخبارك شو عاملة؟! وك نحفانة! شو هاااد؟

- (ابتسامة) آه نحفانة شوي، كيتو وما كيتو عاد.

- وشو صار معك قولي لي؟ وين أراضيك؟ شو عم تعملي؟

- والله يا ولاء صار معي كتير، اشتغلت الحمد لله بشركة في خلدا هون، قريبة من بيتنا، بشتغلوا بأنظمة التأمين، الراتب عادي يعني، مش كتير، بس إنه فيه مستقبل، وهي إلي معهم ثمان شهور.

- أوه، ما شاء الله، مبروك، طيب وسيمنز؟ مش على أساس كنت راح تشتغلي معهم بعد الجامعة؟

- هلأ مزبوط، هيك كانت الخطة، وقدَّمت لهم، وعلى أساس إنه إلي أفضلية، كوني تدربت عندهم وهيك، بس مش عارفة، كتير تأخروا علي، أكثر من شهرين وهم مرة يردوا ومرة ما يردوا، واستني وما تستني، فرفطت روحي بالآخر، ما بحب هيك أعيش في احتمالات أنا، ووقتها كان جاي هاد العرض، فتوكلت على الله، وقبلت.

- (ترفع ولاء حاجبيها دهشةً) جريئة والله.

- مش قصة جرأة ولاء، بس العمر مش بعزقة، وأنا بطبعي بموت من الانتظار اللي مش أكيد هاد، فقلت لحالي، إنه لو شركة صغيرة، بس عالمضمون، المهم، أنتِ شو صار معك؟ مع مين بتشتغلي؟ وين أراضيك؟

- والله دانة أنا لسه ما اشتغلت، مع إنه إجاني يعني عروض كتير، وعروض منيحة، البنك العربي حكوا معي، كنت مقدمة إلهم، وقريبتي دبَّرت لي شغل بأسكدنيا، اشي بتخصصي، بس مش عارفة، رواتبهم قليلة، وما اقتنعت.

- ليش ولاء؟ عادي، الخريجين الجدد كلهم رواتبهم قليلة، بس مع الخبرة بزيد الراتب.

- صح اللي بتحكيه، بس وبيني وبينك موعودة بشغل كتير كتير حلو وراتبه عالي، مع شركة اسمها سبعاوي جروب، والمفترض هاليومين خلص، يبعتوا لي العقد، ويمكن مع أول الأسبوع الجاي أبدأ دوام.

- سبعاوي جروب؟ أول مرة بسمع فيهم، بشو بشتغلوا هدول؟

- (ضحكة خفيفة) هلأ شغلهم بضحك شوي، هم بتاجروا بالبرسيم والتبن ومنتجات الأعلاف.

- لا يا شيخة؟

- آه والله، بس إنه شو دخلني بشو بشتغلوا؟ أنا في قسم تكنولوجيا المعلومات راح أكون، مش راح أقعد أقطع تبن يعني.

- أكيد لأ، يلا الله يوفقك يا ولاء، بتستاهلي كل خير والله.

فجأة يطرق شاب بأصابعه على زجاج المقهى من الخارج، وينظر نحو دانة بعتاب رقيق رافعًا حاجبيه ومشيرًا إلى سيارته المتوقفة في الطريق.

تنظر دانة نحوه بحب وأسف، ثم تشبك يديها دلالة على الاعتذار وتميل رأسها بدلع طفولي، وتشير له بخمسة أصابع دلالة على أنها تحتاج إلى خمس دقائق فقط! فيذهب الشاب نحو سيارته، بينما تسأل ولاء بفضول:

- وك مين المزّ هاد؟

- هاد علاء خطيبي! بالله ما مزّ؟

- مزّ والله! الله يهنِّيكم، متى خطبتِ؟ ليه ما حدا قال لي؟

- قبل شهرين، وعملناها عالضيَّق لأنه، معلش.

- طيب وطارق شو صار معه؟ الحب الحب بولوبيف بولوبيف!

- بلا بولوبيف بلا هم يا شيخة أنتِ كمان، طارق طلع بلعب، كان واعدني بالأول إنه بس نتخرج بنخطب، بعدين غير رأيه، وقال صار بده يروح عالسعودية يقعد سنة ويرجع نخطب، بس إذا كان أبصر شو بنأجلها شوي، واستني وروحي وتعالي، حسيتها مرمرة راح تصير، وعلاء ابن جيراننا وبنعرفه وبنعرف أهله، وإجا طلبني من أهلي، وشاب كامل مكمَّل، قلت ليش لأ! عصفور بالإيد ولا عشرة عالشجرة، وهينا كتبنا كتاب وبعد شهر العرس! شايفة ما أبسط الأمور؟

- هلأ معك حق دانة، بس يعني، مش عارفة! بحس إنه صعب الواحد يتأقلم هيك بسرعة مع حدا جديد، وبعدين انتو كنتوا بتحبوا بعض

كتير، طب والحب؟ بسهولة هيك تركتيه؟ خلص كل شي بنتهي هيك بسرعة؟

- ولاء، أنا كنت بحبه فعلًا مش كذب، بس الحب مسؤولية، هو الحب بس ورد وشاورما ونسمع لكاظم الساهر؟ إذا ما في مسؤولية ما في حب، بعدين أنا أعطيته فرصته كاملة لطارق، ست شهور كاملين بعد التخرُّج وأنا أستنى وأرفض، غير اللي رفضتهم وأنا بدرس، بس بعدها خلص أنا حرَّة، مش ملتزمة مع حدا، إنه بحبك، بس بحب حالي أكتر!

- أنا والله ما بقدر أعمل زيِّك، ما بقدر، يعني أنا مصطفى، بتعرفيه مصطفى؟

- مصطفى، مصطفى أبو الهوى؟ آه صح صح، تذكرته، انتو لسه سوا؟!

- آه لسه سوا، وقال لي بكل وضوح، إنه هلأ ما بقدر أعمل شي، لكن اصبري علي سنة وشوفي، وهيني صبرت، والحمد لله الزلمة طلع قد كلامه، اشتغل مع ابن خاله بتجارة، بجيبوا بضاعة من الصين وبيبيعوها هون، والحمد لله، هي الشهر الجاي راح يبعت إمه ويخطبني.

- ألف مبروك والله يا ولاء، تتهنوا، أنا ما بقول إنه كل الشباب هيك، بس أنا بطبعي خلص، غير سبحان الله، يلَّا، خليني أمشي أنا عشان علاء هلأ بكون انجن، وخلِّينا على اتصال آه، مش تنسيني! سلاااام.

تودع الصديقتان بعضهما بعضًا، وتعبر دانة الباب الزجاجي ذاهبة إلى خطيبها وهي تمسك كوبين من القهوة، بينما تتابعها ولاء عبر زجاج المقهى.

###

خمسة أعوام بعد اللقاء الأول...

تدفع دانة عربة للتسوق في مركز تجاري، وتبدو في شهور حملها الأخيرة، بينما تتقافز ابنتاها التوأم الصغيرتان حولها، وبينما تحاول المفاضلة بين عرضين على الحليب تلمح وجهًا مألوفًا بالقرب منها!

- ولاء قاقيش!

- دااااانة!

- يا محاسن الصدف اللي بتجمعنا دايمًا.

تعانق الصديقتان القديمتان بعضهما بعضًا بحنان، وتشهق ولاء:

- شو أخبارك؟ شو هاد؟ مبروك مبروك مبروك مبروك!

- الله يبارك فيكِ، هادي مساهمتي في زيادة عدد سكان البلد.

- ولد ولا بنت؟

- ولي العهد، ووارث أموالي وممتلكاتي المنقولة وغير المنقولة.

- تقومي بالسلامة يا رب، شو أخبارك؟ طمنيني عنِّك؟

تنضمُّ الفتاتان التوأم إلى أمِّهما وهما تحملان بعض السكاكر، فتشهق ولاء، بينما تنظر الفتاتان نحو صديقة أمِّهما باستغراب:

- هدول بناتك؟!

- آه، فنن وغدير، تعالوا ماما سلموا على خالتو.

تسلم الطفلتان بخجل على ولاء، بينما تقبِّلهما بحبٍّ، ثم تكمل الصديقتان الحوار.

- يا حبيباتي، بجننوا.

- تسلمي يا رب.

- وأنتِ ولاء، شو صار معك أنتِ؟ ومصطفى؟ آخر مرة التقينا كنتوا... وشغلك كيف؟

تتنهد ولاء ثم تبتسم بحيرة وتقول:

- مش عارفة شو أقول لك والله يا دانة، بس لأ، لسه ما تزوجنا.

- أوووف، شو صار طيب؟

- بعد التخرُّج اشتغل مع ابن خاله بتجارة وبضاعة من الصين.

- آه بتذكر قلتي لي صح.

- وبآخرها ابن خاله نصب عليه بالفلوس، ومصطفى كاين يشتغل بدون ورق ولا شي، عالثقة يعني، فراحوا الفلوس كلهم، وطلع مديون للناس كمان.

- يييييي، الله يعوضه خير يا ربي، لا حول ولا قوة إلا بالله، والله العظيم البلد هاي بتخوف صارت، ابن خاله؟!

- آه والله، شايفة؟

- غريب، بس يعني ولاء، أنا متفهمة وضعه، بس أنت كمان شو وضعك؟ يعني أنا فاهمة إنك بتحبيه، بس أنتِ بنت، وأكيد فاهمة يعني شو قصدي.

- فاهمة دانة منيح، بس مش هيك القصة، هو حرام قال لي وقتها إنه خلص، أنا حرَّة، بس ما صرت هيك أتخلى عنه، بس لأنه خسر فلوسه، إنه أنا كنت راح أكون مرته عالحلوة والمرَّة، فحسيت حالي بكون حقيرة لو فجأة هيك انسحبت وتركته.

تصمت دانة.

- ورجع وقف على رجليه، وحاول يبدأ كمان مرة، بس إنه أخد الموضوع وقت، ووقتها توفى أبوه، وصار هو لازم يعلِّم أخوه بالجامعة، يعني ظروف كلها ساءبت مع بعض، وصرنا كل ما نقدم خطوة لقدام نرجع خطوتين ورا، ولقينا حالنا إلنا خمس سنين مش عارفين نعمل شي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- طيب شغلك كيف؟ يعني لو منيح بتقدروا تتساعدوا ولا لأ؟

- مهو هاي أزمة حياتي التانية، متذكرة سبعاوي جروب اللي كنت راح أشتغل معهم؟

- آه صح، متذكرة، قلتي لي وقعتِ معهم عقد أو شي.

- وقعت آه، بس قبل ما أداوم بشوي، عملوا إعادة هيكلة، وتغير شؤون الموظفين، ورجعوا حكوا معي على منصب ثاني ومقابلات من أول وجديد، وأخد له الموضوع سنة كمان.

- أوف! ليش هيك بتعملي بحالك أنتِ! خلص ما كانوا واضحين من أولها بتركهم، ولا أضيع عمري وأنا أستناهم يعني؟ يروحوا ينصرفوا.

- والله معك حق يا دانة، هيك كان لازم عملت، بس بعرفش كيف لقيت حالي ارتبطت فيهم نفسيًّا، عارفة كيف؟ وقلت ما دام صبرت كل هلقد، بصبر لي كمان شوي، وبآخر السنة التانية وبس خلصت كل المقابلات والامتحانات وقفوا التوظيف قال.

- ييييي.

- آه والله، وأدخل لك في موجة اكتئاب عنيفة، إنه فوق اللي صاير مع مصطفى، أنا كمان يصير معي هيك، وبطلت بدِّي أشتغل، خلص، لا عندهم ولا عند غيرهم، حتى في ناس كنت مقدمة لهم قبلها بفترة لما حكوا معي ما رحت؛ نفسيتي تدمرت.

- الله يسامحك، فاهمة عليك، بس الله يسامحك، طيب وهلأ؟

- لا، رجعت بعدها أدور على شغل، بس بيني وبينك عشان إلي فترة كنت متخرجة، ما كان يمشي الحال، أو يعرضوا راتب كثير قليل، فما أوافق، وقبل شهرين رجعوا حكوا معي.

- مين؟

- سبعاوي.

- طيب؟

- عملت امتحان، وهم بعرفوني أصلًا، فمستنية.

- غريبة قصتك والله غريبة.

- صح؟

- طب اسمعي، هلأ الله يفرجها عليك من أوسع أبوابه والله يا ولاء، أنا بتمنى لك كل خير، بس اسمعي مني وابعتي لي السيرة الذاتية تبعتك، أنا صرت رئيسة قسم في شركتي، وبندور على خريجين جداد، هلأ مش قوي الراتب كثير، بس بحاول أدعمك، وبزيد بعدين، أحسن لك والله من سبعاوي هدول.

- تسلمي يا دانة تسلمي، ببعت لك إن شاء الله، إذا ما حكوا شي هاد الأسبوع ببعت لك، كلك ذوق.

- حكوا ولا ما حكوا، ابعتي، ما بتخسري شي.

- حاضر.

يظهر علاء زوج دانة فجأة وهو يمسك كيسًا بيده، يهزُّ رأسه محييًا صديقة زوجته، ثم يقول لزوجته بخفوت:

- أنا خلصت خلص.

فتقول زوجته لولاء:

- طيب ولاء حبيبتي أنا لازم أروح هلأ، لأنه معزومين عند بيت حماي، الله يوفقك بكل شي، وإن شاء الله بتنفرج كل أمورك سوا، بس لا تنسي تبعتي اللي اتفقنا عليه طيب؟! بستنى! تنسيش!

تهزُّ ولاء رأسها موافقة، تراقب الزوجين وهما يبتعدان مع طفلتيهما، تتنهد عميقًا وتكمل تسوقها.

###

أحد عشر عامًا بعد اللقاء الأول...

تجلس دانة على طاولة في مقهى في مركز تجاري، مرتدية نظارة طبية وتراجع بعض الملفات على كمبيوتر محمول تضعه أمامها، وبين الحين والآخر ترشف قليلًا من كوب القهوة الموضوع أمامها، وتنظر نحو طفلها الرضيع النائم بقربها في عربة سوداء.

تركض باتجاهها فتاتاها التوأم وقد أصبحتا صبيتين، وخلفهما يعدو طفل ممتلئ في السابعة مرتديًا قميص نادي برشلونة، وتقول إحداهما:

- ماما، اشترينا التذاكر، بس طلال ما بده يحضر ليون كينج، بده فيلم ثاني فيه طخطخة، وعمُّو تبع السينما قال إنه مش للصغار، ولازم يكون معه حد كبير، وهاي باقي الفلوس!

ينتفض الصبي، ويردُّ بغضب:

- أنا مش صغير، أنتِ ما باعك لأنك بنت، هاتي الفلوس أنا بشتري!

يشب خلاف بين الفتاتين والفتى تنهيه دانة.

- طبعًا حبيبي راح تحضره، هلأ بيجي بابا، وبتروح أنت وإياه بتشتروا التذاكر وبتحضروا الفيلم، شاطر أنت، بس خد لي هالرضاعة روح إغسلها عشان أعمل لمالك حليب، هلأ بصحى.

يحمل ابنها الكبير رضاعة الحليب ويذهب لغسلها، بينما تقف ابنتاها أمام واجهة محل لبيع الكتب، وبينما تستعد دانة للانغماس مرة أخرى في عملها على المحمول، تسمع صوتًا مألوفًا ينادي باسمها.

- دانة!

- ولاء، والله زمان!

تحضن الصديقتان بعضهما بعضًا بقوة، قبل أن تسحب ولاء مقعدًا وتجلس عليه، تلاحظ الطفل الجميل النائم الذي جلست بقربه، فتشير لدانة إن كان هذا الملاك طفلها فعلًا؟ فتهزُّ دانة رأسها وتقول:

- مالك، آخر العنقود.

تضمُّ ولاء شفتيها تأثرًا ببراءة الصبي محاولة تقليد شكله.

- يا ربِّي ما أزكاهم هالخدود يا ربِّي، بدِّي آكلهم بس خايفة أصحِّيه.

- لا دخيلك، ما صدَّقت وهو ينام.

يظهر النادل ملتفتًا لدانة وضيفتها، فتقول دانة وهي توجه نظرها بينهما:

- أميركان ولاء؟ (تهزُّ ولاء رأسها موافقة) أميركان لو سمحت، وجيب لنا ماي باردة، كبيرة.

يذهب النادل وتعود الصديقتان للقائهما الحميمي.

- وينك يا بنت أنتِ؟! أقل غيبة إلك بالسنين؟ شو عم تعملي هالأيام؟ ولا أقول لك خليني أحزر لحالي (تعيد دانة رأسها للخلف محاولة التذكر)، أنتِ هلأ على وشك تشتغلي مع سبعاوي، صح؟

تضحك ولاء من قلبها...

- أنتِ لسَّه متذكرة؟ لا، أخبارك قديمة، اشتغلت معهم خلص، حققت حلمي!

- لولولوييييش، ألف الحمد لله يا رب، ألف الحمد لله، متى اشتغلتِ معهم؟

تصمت ولاء قليلًا صمت من يعرف أنه سينطق بمصيبة الآن، ثم تقول بهدوء ما قبل المصيبة:

- بشهر 2.

تجحظ عينا دانة، تتراجع قليلًا للوراء، وتضع يدها على صدرها:

- لا لا لا يا ربِّي لا، لا، ألف مبروك يا ولاء، لولوليش، وكيف شايفة هالشغل اللي بعد عشر سنين هاد؟ إن شاء الله مرتاحة؟

تنظر ولاء إلى اليمين واليسار، وصمت ما قبل النطق بالمصيبة ثم تقول بلهجة ساخرة، بينما تشرب دانة بعض الماء:

- لا ما أنا تركت.

- هنا تنفجر دانة بالضحك لدرجة أن الماء يخرج من فمها على الطاولة، وتسأل وهي تحاول أن تتمالك ضحكتها:

- ليييش؟

تشاركها ولاء الضحك، وإن كان ضحكها بدا أنه يميل للسخرية المرَّة من نفسها:

- داومت أسبوعين، بعدين سكَّرت الشركة، وهرب سبعاوي.

تبدأ دانة بملاحظة عدم ملاءمة الضحك الآن، لا تزال مبتسمة على الرغم من ذلك.

- ليش طيب؟

- طلع تاجر حشيش، والتبن مجرد غطاء، ولما خلص انكشف، هرب، داومت أسبوعين عنده وشهر في المخفر، وهم يحققوا معنا الموظفين، وحتى الأسبوعين ما قبضتهم.

- يا ربي عفوك.

- آه والله، حتى حاولت آخد حقي برسيم وتبن ما زبط، الحكومة صادرت كل شي.

- طيب وهلأ شو عاملة؟

- هلأ خلص، تعبت من الوظيفة، بدِّي أتقاعد وأفتح مشروع.

تعود دانة للضحك...

- آه حقك ولو، وشو مشروعك؟

- بدنا نفتح مطعم صغير أنا ومصطفى، عم نعمل دراسة جدوى.

- أوه، مصطفى؟ آه أوك، حلو، فاميلي بزنس يعني.

ترفع ولاء حاجبيها وتقول بمرارة تخالطها نصف ابتسامة:

- خاطبين بزنس فيك تقولي، حاكيين في بعض بزنس، موعودين بزنس.

تصمت دانة قليلًا محاوِلة استيعاب ما قالته صديقتها للتو، تبدو على وشك قول شيء ما، لكنها تكتمه، تتنهد بعمق، ثم تقول بصوت هادئ:

- الحكي كله ما منه فايدة هلأ، وما بحب أحط سكّر عالموت، بس يعني السؤال اللي بطرح نفسه فعلًا ولاء، حتى لو ما حدا طرحه، إنه ليش؟ ليش؟

تكتسي معالم وجه ولاء بنظرات تائهة.

- ليش؟ ليش استنيته كل هلقد قصدك؟ ما بعرف، والله ما بعرف، بس اللي بعرفه يا دانة، إني ما صبرت 11 و12 سنة زي ما إمي بتقول والنَّاس بقولوا، أنا صبرت شهر وشهرين وثلاث وأربعة، الصبر العادي الطبيعي اللي كل الناس بتقدر عليه وبتتفهمه وبتتقبله، بس صبرتهم مقطعين، وتواصلوا، فهمتِ علي كيف؟ يعني لو مصطفى قال لي من الأول اصبري علي سنتين كنت راح أصبر؟ يمكن لأ، ويمكن آه لأني بحبه، بالنهاية أنا يمكن صبرت أكتر من هيك، بس لأنه كان في شي سحري هيك بخليك تكمِّلي، اسمه الأمل.

بتعرفي؟ لما بفكِّر بالموضوع، أيَّام ما كنت أفكِّر، لأني هلأ بطلت أفكِّر، لو فكَّرت بنجن، أيام ما كنت أفكِّر اكتشفت إنه الأمل هاد سبب مأساتي بالحياة، مأساتي الحقيقية في كل شي، مش بس مع مصطفى، أنا ضعيفة قدَّام الأمل، عمري ما قدرت أقتله وأمشي، شوفي اسمه حتى، أمل، بتحسِّيه كائن حي صغير أخضر بوعدك بالسعادة، كيف فيك تقتلي هيك شي؟ يمكن لو كنت أسمِّيه احتمال زي ما أنتِ كنتِ تسمِّيه، كنت قتلته وهربت زمان، سهل الواحد يقتل الاحتمال، بتشطبه بقلم أحمر وخلص، بس الأمل لأ، والله ما بتقدري تقتليه، والله.

تستمع دانة بصمت مطبق وكأنه ليس هنالك سواهما في العالم.

- بعدين بتكتشفي إنه في شي لسه حتى أخطر حتى من الأمل، وهو إنه حتى الأمل اللي كنت مصدَّقتيه وتحميه وتدافعي عنه، مش حقيقي، جزء كبير منه من صناعتك أنتِ، أنتِ خلقتيه وزيفتيه عشان تبرري لحالك اللي بتعمليه، بينما بالحقيقة هو كان ضعيف كثير، أو حتى مش موجود، بس أنتِ خلقتيه وعبدتيه، عارفة متى فهمت هالشي؟

- متى؟

- من كم سنة، لما بطَّل عند مصطفى أي أمل يعطيني إياه، فصرت أنا أخلق له الأمل وأعطيه إياه، أحكي له إياه وبعد يومين أو ثلاثة يصير يعيده على مسامعي، وأنا عارفة وموقنة تمامًا إنه مش حقيقي، بس بصدقه وبقعد أستنى فيه.

تتنهد دانة بعمق، يستيقظ الطفل الرضيع، وينظر حوله في صمت بحثًا عن أمِّه، فتنظر ولاء نحوه وتكمل كلامها وقد بدأ صوتها يتهدج:

- بس للأمانة، مصطفى فاهم هالشي، عارف إني صرت أعطيه الكذبة يكذبها علي، فمرات بريحني منها وإن كان بدون قصد، الملعون عيلته كبيرة وكل شهرين ثلاثة بموت له حدا فيهم، مش مهم قديش بقرب له، المهم إنه مات، والموت طبعًا بأجل الزواج أنتِ عارفة، ومع إنه عذر حزين إلا إني بحبُّه، وبحب يعطيني إياه مصطفى، لأنه عذر حقيقي، ما فيك تكذِّبه، الناس بموتوا صح؟ بموتوا وبتخلص أعمارهم؟

تقرب رأسها من الطفل والدموع تنسكب من عينيها بغزارة.

- صح بتخلص أعمارهم حبيبي؟ صح؟

تبدأ الدموع بالتساقط على وجنتي الطفل الذي يجد نفسه محاصَرًا من هذا الوجه الغريب الباكي، فيبدأ هو الآخر بالبكاء.

تمِّت

مرِّي معي

المجاز مضلِّل كما تعلمين، واللُّغة بدورها ماكرة ومخادعة كحرباء، ما الذي يجب أن نفهمه حين نقول إن العمر يمرُّ؟ إنَّ العمر لا يمرُّ، نحن الذين نمرُّ، أنا الذي أمرُّ! أي أنني أمشي في ممر الزمن بضع خطوات كل يوم، هكذا أفهم الأشياء، هكذا يمكن لعقلي البسيط أن يدركها، بحيث إنني لو قضيت يومي في العمل، أو قضيته نائمًا في سريري فإنني أمرُّ، هل لاحظت كم تبدو الأشياء أوضح وأبسط عندما أسقطنا ذلك المجاز المضلَّل الذي يدَّعي أن العمر هو من يمرُّ؟

بنفس المنطق، فإنني أيضًا أرفض أن أقول إنني أحبُّك، هذا مجاز مُضَلَّل آخر، وكلمة لا معنى لها، أنا لا أحبُّك، أنا أريدك أن تظلي معي وأنا أمرُّ، هذا ما أريده فعلًا، هكذا تسعني اللغة، أريدك أن تمرِّي معي، لذلك لا داعي فعلًا لأن تتعبي نفسك بالعدِّ في كل مرة! عام وعامان وذكرى خمسة أعوام وعشرة وخمسة عشر، المسألة لا تتعلق بالتراكم بقدر ما تتعلَّق بالأبديَّة، ولا جدوى من عدِّ الأبد، ما دمتُ أمرُّ، فيجب أن تظلي معي، ممسكة بيدي وبقلبي.

وحتى بعد أن ينتهي هذا الممرُّ، وتتحطم عجلة الزمن المجنونة هذه، ويقول الله بوقاره الإلهي «خالدين فيها أبدًا» ستظلين معي، أنت وكل أشيائك الصغيرة؛ قلائدك الذهبية، عطورك، كحل عينيك، روب الحمَّام الأبيض التركي، الطريقة التي تغمضين عينيك بها عندما يعجبك الطعام، النظرة الماكرة مع هزة الرأس عندما تكتشفين ألاعيبي، إنكارك سرقة غطائي عن جسدي في كل صباح، خشوعك المعبديُّ في الصلاة، حبُّك لشرائح اللحم، ولعك بالأطفال، صوت ضحكتك، نبرة غضبك، تنهيدتك الملول، كل هذه الأشياء ستظل معي أيضًا، لأنها خالدة، خالدة في قلبي أبدًا.

عين النقص

أعتقد أن الحلم الدفين لدى كل إنسان، ليس بامتلاك قصر أو يخت أو مبلغ من المال، إنما فقط أن يكون طبيعيًّا كما الآخرين، عاديًّا كما الآخرين.

أن يتخلَّص من ذلك التشوُّه العميق في داخله الذي يجعله يشعر بالغربة بين الناس، الظروف القاسية التي وُضع فيها دونًا عنهم، التيه الذي يعيشه وسط اطمئنانهم، وهذا الحرمان المرُّ الذي لم يذوقوا طعمه، يحلم بأن ينال الأشياء بالبساطة التي يرى الآخرين ينالونها بها، أن يمسكها بيديه كما يمسكونها، أن ينام كما ينامون، ويصحو كما يصحون، وأن تكون ضحكته صافية وحقيقية وخارجة من القلب كضحكاتهم، وهكذا تبدو سعادته تلك، قريبة جدًّا وبعيدة جدًّا في الوقت ذاته، ممكنة ومستحيلة.

غير مدرك أبدًا أن الجميع يحلمون في داخلهم بالشيء نفسه، لكنه عاجز عن رؤية ذلك، لأنَّه ينظر إلى العالم بعين نقصه، فلا يرى سوى ذلك النقص، نقصه هو، هو فقط.



السعادة (مقال)

لعلَّ واحدًا من أكثر التصوُّرات ضبابيةً وتشوُّهًا في عقولنا، هو تصوُّرنا عن السعادة.

جوهر هذا التصوُّر المشوه يكمن، في أننا وفِي اللاوعي الكامن عميقًا في أرواحنا، ننظر إلى السعادة كمفهوم مادي، وكأنها قطعة أرض بعيدة نرغب في الوصول إليها وتملُّكها، بيت يمكن لنا أن نبنيه بحيث لا يمكن للحزن أن يدخله، نقطة على طريق، متى ما تجاوزناها بسياراتنا لا يمكن للحزن أن يصلنا.

هذا التصوُّر الخاطئ هو بالضبط ما يجعلنا في حالة سفر دائم باتجاه تلك النقطة الخيالية، ولتبرير حالة السفر هذه، تجدنا دائمًا نضع معرفات مادية لتحمي هذا التصور الهش الخاطئ، سأكون سعيدًا عندما أتخرَّج، عندما أتزوج، عندما أمتلك بيتًا، عندما يكبر أطفالي، عندما أنشئ عملي الخاص، وعندما وعندما وعندما، إلى أن يصل الإنسان إلى حالة يؤجل فيها كل ابتساماته في انتظار لحظة لن تجيء.

نقض هذا التصوُّر يكون بإدراك أن الإنسان لن يصل أبدًا إلى نقطة لا يحزن بعدها، هذا السفر المتخيَّل هو سفر عبثي، لأنه حتى لو توفرت كل الماديات التي نظن أنها أسباب للسعادة، سيداهمك الحزن، بأي طريقة كانت، وبسبب أو دون سبب، لأن السعادة لم تكن قط بيتًا بقواعد راسخة، هي طيف، خيوط دخان في الهواء، تفاعل غير متزن، يظهر ويختفي

بسرعة، لحظات يسرقها الإنسان من زمانه في كلٍّ يوم، ويستمتع بها ثم تمضي كأن لم تكن.

إن استمتعتَ بوجبة ساخنة حصلتَ على السعادة، إن رافقتَ فتاة جميلة حصلتَ على السعادة، ملابس جديدة، نتيجة جيدة في امتحان، ركعتان في الليل، بل وفراش وثير حتى تتقلب فيه كقط، هذه هي السعادة، السعادة شيء يومي ولحظي وآني، يحدث الآن ويحدث هنا! قد لا يدوم سوى ساعات أو دقائق، لكن هذه هي السعادة في النهاية؛ تفاعل غير متزن، نستمتع به ما بقي.

طبعًا قد يقول قائل إن الدنيا دار ضنك وإن السعادة في الآخرة، وهذا صحيح فقط إذا ما تكلَّمنا عن السعادة المطلَقة، لكن بما أننا الآن على هذه الأرض، ويوجد بعض السعادة هنا، فلا يوجد ما يمنع أنه بين حزن وحزن، يمكننا الاستمتاع قليلًا.

التجوال

للمرة الألف بعد المائة، أناشدكِ بكل غالٍ عليك، أن تتوقفي عن هذا التجوال الليلي الماجن داخل أعصابي.

دعيني -ولو لمرَّة واحدة في العمر- أحظى بليلة هادئة، ليلة أنام فيها على سريري بسلام، دون أن تشتعل الوسائد والأغطية.

التحول

عندما يقرِّر الإنسان الطيِّب ألا يكون طيِّبًا بعد الآن، فإن الأذى الذي يصدر عنه تجاه الآخرين يكون عظيمًا وجارحًا فعلًا، ويفوق ما يمكن توقُّعه، ليس فقط لأن ردة فعله تكون قويَّة، بل لأنَّه أيضًا أكثر الناس معرفة بمواضع الألم، وأكثرهم خبرة بما يحطِّم النفس من الداخل.

وبعكس أولئك الذين قد يؤرِّقهم الندم، فلن يشعر هذا الإنسان بالندم أبدًا تجاه ما يقوم به، بل بالرضا عن النفس، وبدء مرحلة التعويض، والتعطُّش للمزيد.

وبطبيعة الحال فلن يكون من الممكن أبدًا أن تحيله إلى طيبته علَّه يتوقف، لأنَّه هارب منها أصلًا، وسيكون أي كلام منك له عن قسوة ما يفعله كدغدغة ومديح له، وتأكيدًا على نجاحه في تقمُّص شخصيَّته الجديدة.

عندما يقرِّر الإنسان الطيِّب أن يتخلَّى عن طيبته، فإنَّه لا يصبح عاديًّا أبدًا، ولا شرِّيرًا، بل وحش يمشي على قدمين، لا تتغيَّر ملامحه البشرية، لكن إن دقَّقتَ جيدًا، سترى الحجارة الباردة تملأ قلبه وعينيه.

اختَر الجوع (مقال)

جالسٌ في البيت، تمضي مساءً هادئًا مع عائلتك، يلعب أطفالك من حولك، بينما تتجاذب مع زوجتك أطراف الحديث، فجأة تصل رسالة إلى هاتفك من زميلك في العمل، يخبرك فيها بأن أخبارًا سيئة وصلته، مفادها أن الشركة التي تعملان بها بصدد تسريح عدد من الموظفين، وأنَّه يخشى أن اسمك قد وُضِع على تلك القائمة.

مرة أخرى أنت في البيت، تمضي مساءً هادئًا مع عائلتك، يلعب أطفالك من حولك، بينما تتجاذب الحديث مع زوجتك وتخبرها بحماس عن العمل الجديد الذي ستنتقل إليه، وحماسك الشديد لتقديم استقالتك غدًا.

في الحالتين، ما سيحدث معك في الصباح هو نفسه، ستترك عملك، لكن الفرق شاسع بين شعورك في كل حالة، في الحالة الأولى لن تنام الليل وأنت قلق بشأن مستقبلك، بينما في الحالة الثانية ستنام وأنت متحمِّس جدًّا لهذا المستقبل، وهذا بالضبط ما تفعله بِنَا البنوك طوال الوقت، تدمِّر نظرتنا نحو المستقبل.

لفهم هذا الأمر بشكل أوضح، يلزمنا أولًا أن ندرك حقيقة في غاية الأهميَّة، وهي أن جملة «فلان اقترض مالًا من البنك» هي جملة خاطئة تمامًا، أنت لا تقترض هذه النقود من البنك، أنت تأخذها من ذاتك المستقبلية، والبنك هنا ما هو إلا وسيط في هذه العملية، والدليل هو أن معظم إجراءات البنك في حالة القروض تكون لضمان أن ذاتك المستقبلية تملك تلك النقود لتقرضك إياها.

إذن ما يحدث على أرض الواقع، عندما تقترض من البنك، هو أنَّك تحكم على ذاتك المستقبلية بالدخل القليل، أي أنَّك أضعفت مستقبلك وأفقرته

قبل أن يبدأ حتَّى، وهذا بالضبط هو سرُّ الهمِّ الذي يلازم المدينين في كل ليلة، وهو سرُّ حلم المدين الدَّائم بأن يعود لمرحلة الصفر، لا له ولا عليه، أي بمعنى آخر، أن يتعافى مستقبله تمامًا.

وطبعًا ما يزيد الطين بلَّة، أنَّ في حال عجز هذا المستقبل المسكين لأي سبب كان عن دفع الأقساط التي ورَّطته بها، يتم عقابه بفرض الفوائد المركَّبة على المبلغ الذي هو أصلًا عاجز عن سداده! وهذا يشبه بالضبط أن شخصًا ما مطلوب منه أن يجري بسرعة معيَّنة، وإذا توقف عن الجري لأنه متعب يكون الحلُّ بضربه بالكرباج على ساقيه ليركض بسرعة أعلى! وتظل هذه الفوائد تتراكم وتتراكم وتزداد صورة المستقبل قتامة وقتامة حتى لا يستطيع الإنسان حتى النظر إليها، فيبدأ بإهمال الأوراق والرسائل التي يرسلها له البنك بغضِّ النظر عمَّا فيها، وهذا طبيعي، فالمستقبل ملقى على الأرض من التعب، والبنك لا يكفُّ عن جلده بالسياط، فمن يرغب في مشاهدة منظر كهذا؟

والسؤال هنا: هل هنالك فعلًا ما يستحق أن يضع الإنسان نفسه في هذه الورطة من أجله؟ أي هل يحصل المدينون على المتعة التي اقترضوا من أجلها؟ الجواب: بالطبع لا، ذلك ببساطة لأن متعة امتلاك الأشياء هي ناتج طبيعي لعملية المبادلة، أنا أبادل نقودي (جهدي) بشيء ما أشتريه، أبادل مائة دولار مثلًا بأريكة جميلة، عندما يحدث هذا الأمر وفور عملية الدفع، أنسى تمامًا النقود التي دفعتها، ويتحوَّل كل تركيزي نحو البضاعة التي اشتريتها، فتحصل المتعة، لكن في حالة أنني اشتريت هذه البضاعة ببطاقة ائتمان أو بنقود القرض التي لا أملكها فعليًّا، فعملية المبادلة نفسها لم تحدث، وبالتالي لا يشعر الإنسان بفرحة امتلاك الأشياء، ويبقى ذهنه مشغولًا بالنقود التي يتوجب عليه دفعها مقابل هذه البضاعة، فترى البضاعة بين يديه، لكنه يحس من داخلها أنَّه لا يملكها! ببساطة لأن عملية التبادل لم تتم.

لماذا نقترض؟ لماذا ننفق عبر بطاقات الائتمان؟ خطأ، الإجابة التي فكَّرت بها خاطئة، نحن لا نقترض لأننا لا نملك المال، نحن نقترض لأن عاداتنا في إنفاق المال خاطئة، نقترض لنشبع شعورًا ما في داخلنا، لأن

هنالك نقصًا ما في داخلنا، نقصًا من نوع ما نحاول قتله وملأه بالإنفاق، والاقتراض هي أسهل وسيلة لذلك، ما علينا سوى توقيع بعض الأوراق، وتصبح النقود ملكنا، ننفقها فنملأ ذلك النقص بالإنفاق الزائف عوضًا عن مواجهة أسبابه الحقيقية، متى نفهم أنَّه زائف؟ في الليل، عندما يغيب الناس أو تغيب الظروف التي أنفقنا المال من أجلها، عندما يختفي الدافع، عندها فقط ندرك فداحة ما فعلناه.

لهذا السبب نقترض، لا لنقص في الأموال، لكن لنطعم النقص في داخلنا، والدليل أن نسبة ضخمة جدًّا من المقترضين لو تم تصفير حساباتهم ليبدؤوا من جديد فسيعودون للاقتراض مرة أخرى، ستعيدهم ذواتهم المرتبكة إلى ذات الداء وذات الدواء، الداء هو عدم القدرة على الحياة ضمن المتاح، والدواء هو إنفاق كل قرش يمكنهم الوصول إليه، ملكهم كان أم لا.

في الختام، ربما أخطر ما يتسبب به موضوع القروض والديون هو القلق الدائم الذي يعتري الإنسان وانعدام قدرته على التخطيط لأي شيء في مستقبله، وهذا منطقي جدًّا، لأن هذا المستقبل مرهون للآخرين، هو لا يملكه، وبالتالي لا يمكنه تخطيطه أبدًا، فترانا ونحن مدينون دائمو القلق حتى دون سبب مباشر للقلق، وردُّنا الدائم على أي سؤال يتعلق بما نريد فعله في المستقبل هو «فيما بعد، ليس الآن»، وبينما يخطط الناس لبناء مستقبلهم ويرسمون خطوطًا واضحة له ويراكمون إنجازاتهم، ننشغل نحن بمحاولة إنقاذ هذا المستقبل المسكين الذي دمَّرناه.

من أجل ذلك كلِّه لطالما آمنت بالمقولة الخالدة لجاكسون براون: «إذا كان عليك أن تختار بين الاقتراض والجوع، فاختر الجوع»، والسبب الأساسي لحكمة اختيار الجوع في رأيي، هو أن الجوع مهما قسا على الإنسان فإنَّه يسلمه إلى النوم في النهاية، ستنام حتى وأنت تتضور جوعًا، لكن كيف ينام المديون؟ حتى لو أغمض عينيه وسمع الناس شخيره، فهو لا ينام، شيء ما في داخله يرفض أن ينام!

من قصاصاتي (9)

- أتحسس من أن يشارك الإنسان تفاصيل حبِّه على الملأ، قد يحتفل الناس بالعاشقين، لكن بعد أن تهدأ آهات الإعجاب وتغيب الابتسامات، يكتشفان أن شيئًا ما في حبِّهما قد خُدِش.
- الحبُّ جنَّة سحرية، مخصصة لاثنين فقط، وفِي كلِّ مرة يُفتَح بابها للناس تفقد جزءًا من سحرها.
- أمقت الخوض في جدالات، لا رغبة لدي بالدفاع عن أفكاري، ولا إقناع الناس بها، يكفي أنَّها تعجبني أنا.
- حتَّى عندما أرغب في تغييرها، فإنني أفضِّل أن أقرأ، أن أستمع لما يقوله الناس مكتوبًا على ورقة، في الوقت الذي يروقني، والمكان الذي يروقني، وعلى مهل، أبني عقلي على مهل.
- المدُّ في القرآن كأنَّما يخرِج الهمَّ من الصدر.

يا سيييين، والقرآن الحكيييم.

- ككل شيء آخر، أبدو من بعيد أجمل بكثير مما أنا عليه في الواقع، وعلى من يقترب أن يفهم أن لذَّة القرب في أحايين كثيرة، قد تخالطها مرارة الحقيقة!
- قديمًا كنت أستغرب كيف يجمع رجل مثل الفراهيدي بين اللغة والرياضيات، أو كيف جمع الجزري بين الموسيقى والفيزياء، ودافنشي بين الفن والهندسة.

ثم اكتشفت أن «الذكي» في مجاله، هو بالضرورة ذكي في أي مجال آخر، الذكاء عابر للتخصصات، لكن المعرفة مقيدة.

الحب لا يمنع الخلافات بين العاشقين، على العكس؛ تحدث كثيرًا، لكنه يمنعها من أن تخزَّن في الذاكرة، أيام فقط بعد الخلاف، ويبذل العاشقان جهودًا مضحكة لمحاولة تذكر ماذا كان سبب الخلاف بينهما ولا يفلحان، ذاك أن القلب يرفض أن يرى المحب كمذنب، يمحو ذنبه كأن لم يكن.

- إن كان ولا بدَّ لنا أن نؤمن بالتطوُّر، فلا يمكن أن يكون أسلافنا قردة، بل ذئاب.

هذا هو الشيء الوحيد الذي قد يفسِّر ما أحسُّه تجاهك، تلك الرغبة الجامحة في الافتراس التي تعتريني، كلَّما لمحت ضحكتك البريئة.

الظروف... (قصة قصيرة)

فتاتان عشرينيتان تقفان على سطح بناية من طابقين وترتكز كلٌّ منهما بيديها على السور الأسمنتي للسطح وتنظران نحو مغيب الشمس، على السطح عدة خزَّانات ماء حديدية وأخرى بلاستيكية ترتبط مع بعضها بعضًا بشبكة مواسير قديمة، في الركن يظهر ما يبدو أنَّه بيت خشبي فارغ سكنه الحَمام يومًا ما، وتتناثر على السطح بعض قطع الأثاث التالفة، بقايا ملاقط غسيل، وخردوات أخرى.

يطل مشهد وقوف الفتاتين على قطعة أرض فارغة تحولت بفعل الإهمال إلى ما يشبه مكب القمامة ومخلفات البناء، يليها شارع قديم مزقته الحفريات المتتالية حتى عاد كالثوب المرقَّع، ويلعب فيه بعض الأطفال الحفاة كرة القدم بينما يحاولون تفادي سيلًا من مياه الشطف التي تعلوها الرغوة قادمة من مكان ما، وفِي الأفق بنايات متهالكة شاحبة الطلاء من أربعة أدوار، مرصوصة بقرب بعضها بعضًا، في مشهد حافل باللون الغباريِّ الباهت الكئيب.

تنظر إحداهما طويلًا نحو الأفق ثم نحو رفيقتها وتقول:

- عارفة يا غادة؟ يمكن فش كذبة بالحياة أكبر من إنه اللغة هاي وسيلة تواصل، عشان نتشارك المعاني والأفكار.

- ولا هي شو لكان؟

- وسيلة خداع، أداة رهيبة جدًّا للتعمية والجهل.

- كيف يعني؟ ما فهمت!

تنظر مرة أخرى نحو الأفق وتقول:

- أنا بقول لك، قبل كورونا، روحت مرة من الجامعة عند رؤى، كنَّا بدنا ندرس لامتحان البيولوجي، قعدنا في غرفة في بيتهم، واجهتها كلها قزاز وإلها باب بفتح على بلكونة، مش راح تصدقي الإطلالة يا غادة، شو ما وصفت لك ما راح تصدقي، إشي فوق الوصف، قدام بيتهم في هيك حديقة ضخمة ضخمة، من ضمن البيت يعني، إلهم هاي الحديقة، كلها شجر كبير كبير وأخضر، وشو صوت العصافير، برد الروح، وحواليهم فلل فلل فلل، إشي بجنن، وعلى مد نظرك بتشوفي عمَّان كلها، من فندق الرويال لأبراج السادس، إطلالة ولا في الخيال.

- الله يرزقنا يا رب.

- صعب بس آمين، المهم مش هون الفكرة، الفكرة إنه رؤى لما تقول لك أنا بحب عمَّان، لفظ عمَّان عندها بعني لها في عقلها هداك المنظر، عمَّان اللي بتشوفها من غرفتها، عمَّان الشجر والخضار وبركة السباحة والأبراج اللي قدامها، بينما عمَّان بالنسبة إلي أنا هي...

يشتم أحد الأطفال في الشارع رفيقه بعورة أمِّه بصوت عالٍ جدًّا يخترق آذان الفتاتين.

تضحك الفتاة بأسى.

- شايفة؟ هاي عمَّان بالنسبة إلي، المشوهين هدول، والمزبلة اللي قدَّامك، وأبو صبحي تبع الدكان المتحرش، والبنايات هاي اللي كأنه صايبها سل وجذام وطاعون، هاي عمَّان اللي بعرفها، هاي دلالة اللفظ في عقلي، فمن هون بتشوفي إنه اللغة كذابة، صحيح هي بتعطينا نفس الألفاظ، بس الدلالات مختلفة، المعاني الكامنة في أرواحنا لما نسمع اللفظ نفسه مختلفة، أداة زي اللغة هون، كيف بتقدري تقولي عنها أداة تواصل؟ ما نقلت المعنى أبدًا، بالعكس، عمِّت عليه، غيَّبته ورا لفظ مشترك.

تصمت غادة وكأنها تفكِّر، فتكمل الفتاة:

- واللي بنطبق على عمَّان بنطبق على كل كلمة ثانية، يعني رؤى لما تقولك إنها مشتاقة للمدرسة وأيام المدرسة، أكيد أكيد ما بكون قصدها رابعة العدوية، ولما تقول المستشفى ما بتقصد البشير، أكيد مدرستها غير، والمستشفى عندها غير، والعطلة غير، ورمضان غير، كل شي غير، إحنا بنشترك مع الناس بالألفاظ بس الدلالات والمعاني لا، كل واحد فينا عنده دلالاته ومعانيه المختلفة.

تتنهد غادة وتقول:

- أنا معك سماح، ظروف الإنسان أكيد بتعرِّف دلالات الألفاظ عنده، لكن...

- لا لا غادة، مش بس الدلالات، الدلالات أهون شي بتعرِّف لك إياه ظروفك، ظروف الإنسان بتعرِّف أفكاره حتى، تنشئة وتغيير.

- كيف يعني؟ مش فاهمة!

- أنا راح أفهمك، واحدة من أهم أفكار الإنسان هي قيمته في نظر حاله، شو اللي بقبل فيه على حاله وشو اللي ما بقبل فيه، الستاندراردز اللي عايش ضمنها خلينا نقول، هاي فكرة جوهرية من أفكار الإنسان، وبتأثر كتير على حياته واختياراته، مع إنه قلال جدًّا الناس اللي بتخطر على بالهم أصلًا.

- برضه مش فاهمة.

- راح أعطيك مثال، جيراننا، دار أبو هاني هدول، جوزوا ولادهم الاثنين السنة الماضية، واحد منهم أخذ بنت أبو إسماعيل الجزار، والتاني أخذ بنت يافاوية بعيدة، الولدين نور زي أبوهم، من أول سنة بلشوا ضرب بزوجاتهم، بنت الجزار ما عملت شي، ليش؟ لأنها جاية من بيئة شبيهة جدًّا، أبوها كان يصبِّحهم بكتلة ويمسيهم بكتلة، هي وإمها وخواتها وكلهم، فهي متعودة عالجو هاد، قيمتها بنظر حالها

أصلًا منخفضة، وبالتالي ما شكل لها صدمة الموضوع، تحرد ساعة ساعتين وينتهي الموضوع، اليافاوية لأ، أبوها كان مدللها كثير، فقيمتها في نظر حالها عالية كثير، لأنه أهلها هيك كانوا يعاملوها، وبالتالي لما ضربها المحروس ما سكتت، سحبت حالها على بيت أهلها، وما رجعت إلا بجاهة كبيرة من أهله، وتهديد من إخوانها إنه لو لمسها مرة ثانية راح يكسروا إيده.

فهل أفكار بنت الجزار عن حالها جاءت نتيجة شعور كامن بالدونية؟ هيك عقلها دلها يعني؟ مستحيل، هي ظروفها طحنتها لغاية ما شافت إنه الاعتداء هاد طبيعي، وإنه أكيد هي غلطت ولا ما كان ضربوها، لأنه قيمتها بنظر حالها هيك، وهاد شي أهلها زرعوه فيها، مش نتاج عقلها الحر، ويمكن صعب يتغير حتى.

- فهمت عليكِ، فعلًا.

- ومش بس هيك، حتى أفكارنا اللي وصلنا لها نتاج تفكير حر واختيارات واعية ممكن ببساطة الظروف تغيرها، شوفي خالتو رقية مثلًا، هل كان ممكن يكون هيك موقفها من الإسلام لولا إنه جوزها أو طليقها خلينا نقول، كان عامل حاله شيخ؟! وكان يغلف كل شي عمله معها بغطاء ديني؟

- هلأ هو آذاها كثير، بس يعني...

- آذاها؟ ولَك على أتفه سبب كان يمسكها يظل يضرب راسها بالحيط لغاية ما دمها يعلم عالحيط! ويخليها تشطفه كمان! وكله بحجة طاعة الزوج وطاعة أبصر مين، والرجال قوامون والرجال سفاحون، واضربوهن واصلبوهن والديباجات هاي كلها.

- اسمحي لي، هاد فاهم الدين غلط، عمره الدين ما كان هيك.

- صحيح، بس هاد هو الدين اللي شافته خالتو رقية، هاد الدين اللي جابت لها إياه ظروفها، وعشان هيك أنتِ شايفيتها هيك هلأ، لأن

ظروفها غيرت تفكيرها نفسه، فكرك لو إنها كانت تجوزت واحد تاني غير هداك الغضيب كان تفكيرها صار هيك هلأ؟ مستحيل! بتعرفي أصلًا شو قالت لي ماما عنها مرة؟

- شو؟

- إنه خالتو رقية نفسها اللي شايفيتها هيك هلأ، كانت وهي بصف تاسع يمكن حافظة عشر أجزاء من القرآن، وإنه لما كانت تقرأ قرآن في الغرفة اللي جوًّا، كانت العصافير تيجي توقف عالشباك، كأنهم قاعدين بسمعوها، حتى سيدو أبو منصور كان يقول هدول العصافير هم الملائكة، وشوفي هلأ شو صارت.

- يا ربي كيف الدنيا!

- فهلأ هل أفكار خالتو رقية هلأ هي فعلًا أفكارها؟ ولا هاي انحيازاتها المتطرفة؟ حاولي اقنعيها بشي عكس اللي براسها، مستحيل، راح تظل مصرة إنه الإسلام دين قمعي ضد النساء وإنه ربنا نفسه متحيز ضدهم، مهما جبتِ حجج ومنطق عالفاضي، لأنه أنتِ ما عم تناقشي أفكار مجردة، أنتِ قاعدة بتناقشي دمها اللي كان عالحيط، وبالتالي الحل الوحيد لتغيير أفكارها هو إنك تغيري ظروفها نفسها، وهاد مستحيل.

يقطع حديث الفتاتين طفل في الخامسة من العمر، يصعد للسطح عاريًا من نصفه السفلي وينادي:

- خالتو ثماح، خالتو ثماح، تيتا بتقول لك تعالي.

تبتسم له سماح.

- طيب يا حبيبي، قول لها هيها جاي.

ثم تلتفت لرفيقتها وتكمل:

- فالظروف يا عزيزتي يا غادة أقوى بكثير من الإنسان، شو ما نظَّرنا وحكينا إنها مجرد عامل من العوامل اللي بتشكل شخصية الإنسان، وممكن بشوية جهد نتغلب عليها، بنكون غلطانين، أثر ظروفنا في حياتنا كبير جدًّا جدًّا، زي الحبر، بتصبغنا كلنا من جوا، بحيث بيبطل الإنسان يعرف، هل هو هذا الشخص فعلًا؟ ولا هاي ظروفه؟ اللي بحكي على لسانه هذا دماغه ولا هاي ظروفه؟

تصمت غادة، وتتنهد تنهيدة طويلة.

- بتعرفي شو اكتشفت أنا كمان؟ شو كمان بتغير ظروف الإنسان؟ أكثر من دلالاته اللغوية وأفكاره الهشة؟

- شو؟

- عالمه نفسه، عالمك نفسه، بتحدده ظروفك.

- كيف يعني؟

- هلأ إحنا كلنا عايشين بعالم واحد، صح؟ والمفترض انطباعاتنا عن العالم هذا متشابهة نوعًا ما، صحيح؟

- إلى حدٍّ ما صحيح، مع وجود اختلافات فردية.

- هيك المفروض، بس الحقيقة لا، الحقيقة إنه الشي المشترك الوحيد بيننا هي الحقائق الفلكية، الشمس بتطلع عنا كلنا بنفس الوقت، والمطر بنزل علينا كلنا بنفس الوقت، غير هيك كل واحد فينا بشوف العالم من منظور مختلف تمامًا، وبشكل أدق، بخلق عالمه الخاص فيه، المختلف عن عالم الآخرين.

- كيف يعني؟

- يعني الإنسان بشكل واعي ولا واعي ببدأ ينتقي من العالم الخارجي كل شي بناسبه، وبعطيه مساحة أكبر في حياته، وأهمية أكبر مما هو عليه بالواقع، وبنفس الوقت، بصير يستبعد أي شي ما بناسبه،

ويعطيه أهمية قليلة، ويوم عن يوم، وبتكرار عملية الاختيار والاستبعاد هاي، بصير الإنسان ما يشوف بالعالم الواسع هاد، إلا اللي هو بده يشوفه، بخلق نسخته الخاصة من العالم، اللي مش بالضرورة تكون حيادية وممثلة حقيقية للعالم الخارجي، وراح أعطيك مثال.

- قولي.

- مجدي أخوي، عالمه وحياته كلها بتدور حوالين كمال الأجسام، صحيح؟

- آه هو بهتم فيها كثير.

- لا، مش بهتم فيها كثير، هي عالمه كله، ليش؟ لأنه مجدي ما نفع بالمدرسة، قدراته العقلية ما ساعدته، وصولاته وجولاته بالمدارس كانت كلها هزائم متتالية، ولأنه ما قدر يسوي شي تجاه هذا الموضوع، اتجه لمجال بقدر يسوي فيه شي، مجال بقدر ينافس فيه ويفوز، كان بحاجة إنه يفوز، وهلأ عنده استعداد إنه يحمل حديد عشر ساعات ورا بعض، مش مهم، بضغط على جسمه، بس المهم إنه هذا هو المجال اللي بفوز فيه، وعليه استبعد مجدي كل شي من حياته ما بتعلق بكمال الأجسام، وقلل من أهميته، وركز بس على كمال الأجسام وكل شي متعلق فيها، فهلأ هذا الشي هو عالمه، ما بشوف من العالم إلا كمال الأجسام، روزنامة حياته نفسها قائمة على هالشي، نظرته للناس قائمة على هالشي، بقيم أي حدا بشكل جسمه، وقوة عضلاته، هذا عالمه، ماما نفسها، شو عالمها؟

- الطبخ؟

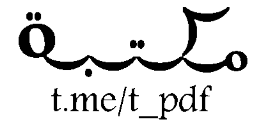
- بالزبط، لما أنتِ تقارني ماما بخالاتي مثلًا، ما راح تقدر يصير معها فلوس زي خالتو رهف، ولا إلها بسكة الثقافة والكتب زي خالتو رحمة، وأكيد مش راح تطلع ملحدة زي خالتو رقية، بشو ممكن تتميز لكان؟ شو الشي السهل اللي ممكن تعمله وتنجح فيه ومتوفر في بيئتها؟

الطبخ، هون ممكن تفوز، عشان هيك ماما عالمها الطبخ، حكيها عن الطبخ، البرامج اللي بتشوفها عن الطبخ، نسختها المصغرة عن العالم هي الطبخ، وطبعًا هي ممكن تقول للناس إنها بتحب الطبخ، وإنه عشقها الأبدي، وممكن تقول لحالها هالحكي كمان، بس أنا تعلمت إنه الإنسان كثير مرات بخلط بين إنه بحب الشي هاد فعلًا وبين إنه هاد هو اللي بقدر عليه، وما لم يوضع فعلًا في ظروف مختلفة ما راح يقدر يجاوب هاد السؤال، وأنا وأنتِ مش استثناء، لو نراجع حياتنا بحيادية، يمكن كثير نكتشف كم الأشياء اللي حطيناها بالواجهة لأنها سهلة، وكم الأشياء اللي أخفيناها عشاننا مش شاطرين فيها، كيف خلقنا نسختنا الخاصة اللي بندعي زورًا إنها «العالم».

- ضروري يعني وجع القلب هاد؟

- لا والله مش وجع قلب، بس الفكرة إنه ما دامنا إحنا اخترنا هذا العالم وشكلناه بإيدينا عشان يعطينا أكبر قدر من الانتصارات، أو أقل قدر من الهزائم خلينا نحكي، من باب أولى نخفف شكوانا منه، لأن هاي أسهل نسخة ممكنة من العالم.

تمّت



شجاعة المعارضة

إذا كان أطفالك لا يستطيعون معارضتك في أمر ما، ويخافون من عواقب ذلك، مع أنَّك -افتراضًا- آخر شخص في العالم من الممكن أن يؤذيهم، فكيف تتوقع منهم أن يواجهوا الآخرين؟ أولئك الذين لا يعرفونهم ولا يحبُّونهم ومن المحتمل أن يؤذوهم؟ ما الذي سيُكسر في العالم حين تمنحهم القليل من صبرك وتفهُّمك عندما يقولون رأيًا مختلفًا؟ وماذا يساوي القليل من كظم الغيظ في مقابل بناء شخصياتهم؟ دقائق لسماع رأيهم؟ القليل من الصبر في سبيل تعليمهم؟ مساحة يقولون فيها ما يعتقدونه وإن كان خطأً؟

شجاعة المعارضة، هي أهمُّ صفة يمكن للإنسان أن يكتسبها في حياته، وإذا حُرِم منها في بيته، تحت أي حجة واهية كالاحترام أو التربية أو خلافه، فقد ضاعت منه إلى الأبد، ولربَّما لن يتمكن أبدًا من الحصول عليها، لأن الشبل الذي لا يعلِّمه أبوه القتال ويتحمَّل خرمشاته الصغيرة، لن يجرؤ أبدًا على مهاجمة أي حيوان آخر، لن يتعلَّم الصيد أبدًا، وسيموت من الجوع لاعنًا أباه.

التعاطف أو الصمت

أحاول دائمًا ألَّا أتورَّط بالحكم على أحد، والأمر لا علاقة له أبدًا بأخلاقي، أو بفكرة أنني إنسان جيِّد أم سيئ، إنَّما المسألة متعلِّقة بحقيقة أنني لن أعرف أبدًا ماهيَّة الظروف التي مر بها الشخص الذي أمامي، وكيف حكمت ظروفه قراراته.

وحتى لو حدث وأخبرني بتلك الظروف، فلن يكون بإمكاني أبدًا أن أضع نفسي مكانه، الأمر معقَّد جدًّا، وأجهل تمامًا خلفياته الثقافية والنفسية، وكيف شكَّلت فكره، أو مدى تأثيرها عليه، لذلك سأظلُّ دائمًا عاجزًا عن فهم الأسباب الحقيقية التي دفعته لفعل ما فعل، تمامًا كما لن يفهم الناس أبدًا ما يدفعني لفعل ما أفعل.

فالأمر كله متعلِّق إذن بالمعلومات اللازمة للحكم، وبما أن معلوماتي ستظل دائمًا ناقصة، فلن أصدِر أحكامًا أبدًا، التعاطف أو الصمت، هذه خياراتي، لا أكثر.

كيف يمكن للبسبوسة
أن تنقذ الشرق الأوسط؟! (مقال)

لو أن شخصًا فضوليًّا سألنا سؤالًا بسيطًا مثل: ما هي البسبوسة؟ فستكون الإجابة أنَّها حلوى مصرية شامية، تتكون بشكل أساسي من السميد المخبوز مع السُّكَّر السائل، الجواب صحيح ومقنع، لكن السائل الفضولي لم يكتفِ بهذا، فسأل عن المكوِّنات وطريقة العمل بدقَّة، فشرحنا له كيف تمزج الطحين والسميد والزبادي والزيت النباتي... إلخ مما نعرفه عنها، ومن وحي إجاباتنا عن أسئلته، بدأ يسأل أسئلة مثل: هل يضاف السُّكَّر السائل ساخنًا أم باردًا؟ هل من الممكن استبدال ماء الورد بالفانيلا؟ لماذا تُضاف الفانيلا أساسًا؟ هل من الممكن مزج مبشور قشر البرتقال؟

وهكذا، نرى أنه بعد ساعات طوال، كيف أنه وبدءًا من سؤال بسيط واحد، تكوَّن لدى السائل بناء معرفي كامل عن البسبوسة، وبنفس هذا المثال يمكن لنا فهم كيف تراكمت المعرفة البشرية عبر القرون، وكيف أن الحضارة الإنسانية ليست في الحقيقة إِلَّا سلسلة طويلة وضخمة وممتدة من الأسئلة البسيطة والإجابات المتراكمة.

إذا فكَّرنا بهذه الطريقة، ستبدو الحياة لنا أكثر منطقية واتساقًا، فمثلًا يمكننا فهم لماذا القراءة هي شيء مهمٌّ جدًّا، لأن الكتب في النهاية ما هي إلا إجابات عن أسئلة قد توجد لدينا، ولذلك لا يمكننا أن نطلب من الآخرين أن يُرشِّحوا لنا كتبًا لنقرأها، ببساطة لأن أسئلتهم غير أسئلتنا، ولماذا التفكُّر أهمُّ من القراءة؟ لأنَّه يعلِّمك طرح أسئلتك الخاصَّة.

المهمُّ أنَّ أهمَّ شيء نريد فهمه هنا، عبر التفكير بطريقة البسبوسة هذه، والمتعلِّق باليومي والحياتي هو لماذا نحن متخلِّفون عن الناس؟ وتكون الإجابة هي لأننا ببساطة لم نطرح أسئلة كافية ولَم نجب عن أسئلة كافية، بينما هم فعلوا ذلك، لم نسأل: كيف يمكننا تبريد الجو؟ كيف يمكننا حفظ أطعمتنا بشكل أفضل؟ تربية أطفالنا؟ صناعة أثاثنا؟ الانتقال من مكان لمكان بصورة أسرع؟ هل يمكن نقل الصوت عبر الأسلاك؟ نقل عضو من إنسان لإنسان؟ إلخ، لكن مرة أخرى، لماذا لم نسأل أسئلة كافية؟ الجواب -عندي- له ثلاثة فروع: الاستعمار، والإسلام، والدكتاتورية.

يقول عبد الرحمن منيف: إنَّ أحد أهم مآسينا الحضارية هي أننا نستورد التكنولوجيا مجسَّمة، ولا نستورد العلم الذي صنعها. أي بلغة المقال، نستورد الإجابات جاهزة، كيف يمكننا التحدث مع الآخرين عن بعد؟ تفضل هذا الجهاز، كيف يمكن غسيل الكلى؟ ادفع ثمن هذا الجهاز، هذا الفكر حوَّل عقولنا نفسها، فصرنا لا نسأل كيف يمكنني صناعة شيء ما؟ بل كيف يمكنني شراؤه؟ وهذا ليس على مستوى الدول فقط، بل على مستوى الأفراد أيضًا، نحن كأفراد لا نكلِّف أنفسنا عناء فهم كيف تعمل الأشياء أو كيف يمكن صنعها، أو مما تتكون، نودُّ فقط أن نشتريها ونمتلكها، وهذا الفكر زرعه فينا المستعمِر، وبقي حتى بعد رحيله، لأن الهدف كان أن تظلَّ سوقًا له ولمنتجاته، أن تشتري إجاباته الجاهزة المعلَّبة عن أسئلتك، دون أن تحاول أنت الوصول لإجاباتك الخاصة، وهذا طبعًا ما لم يحدث في بدايات حضارتنا في العراق والشام والأندلس، وقتها لم نستورد إجابات من أحد، بل صنعنا إجاباتنا الخاصة وأسئلتنا الخاصة.

الأمر الثاني الذي كان سببًا في تيهنا هذا، هو الفهم المعاصر للإسلام، وبالأدق الفهم السلفي له. الإسلام دين عظيم، وقدَّم لنا أجوبة لأسئلة وجودية حيَّرتنا طويلًا، لكن المشكلة كانت أنه وبدافع من التقديس العظيم لهذا الدين فهمنا أن هذه الأجوبة قاطعة مانعة شافية وافية حاسمة ونهائية، وبالتالي لا يتوالد عنها أي أسئلة أخرى، تقتنع بها وانتهى الأمر، هذا الفكر

الأعوج الخائف المهتز صار ينظر إلى أي أسئلة داخل الإسلام على أنها كفر، وظهرت مقولات مثل باب الاجتهاد أُغلِق، وإلجام العوام عن علم الكلام ولحوم العلماء مسمومة، حتى ترسخ هذه التوجُّهات، ولا نخوض هنا ولا نخوض هناك، حتى تحوَّل الإسلام إلى كتلة جامدة، اقبلها كما هي أو اتركها وادخل النار، مع أنَّ القرآن الكريم يعارض هذا الفكر تمامًا، والله نفسه لم يقل عن إجاباته أنها نهائية وقاطعة ولا ينتج عنها أسئلة، بل في الحقيقة طلب منا أن نبحث فيها! الله -عز وجل- في سورة العنكبوت آية تسعة عشر يقول: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، أي يقول لك إنَّه هو من بدأ الخلق، وفِي الآية التي تليها تمامًا يطلب منك ألا تكتفي بهذه الإجابة، ابحث فيها، دع أسئلتك تتوالد، فيقول: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾. كيف بدأ الخلق تعني: اطرحوا أسئلتكم وابدؤوها بكيف، كيف حدث هذا؟ كيف حدث ذاك؟ الحاصل أن الجمود الفكري الديني هذا الذي امتدَّ أيضًا للعادات والتقاليد، ساهم بشكل كبير ليس فقط في إيقاف سيل أسئلتنا وبالتالي تطوُّرنا، وإنما جعلنا مؤمنين ساذجين ومتشددين نجيب عن عموم الأسئلة ونقف، مقتنعين أننا بهتنا الذي سأل، كيف نحكم بَعضنا؟ بالشورى، وأمرهم شورى بينهم، طيب كيف نختار أهل الشورى؟ وأمرهم شورى بينهم، نختارهم بالانتخابات مثلًا؟ لا، بالشورى، وأمرهم شورى بينهم، الأمر الأخير، الذي دفعنا في دوامة الجهل التاريخية هذه هو الديكتاتورية، الحكم الجبري، لا أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، وطبعًا من نافلة القول أن الأسئلة في أوطاننا مقدَّمة في التحريم على المخدِّرات وتجارة الأعضاء، لأن الأسئلة بطبيعتها كاشفة ومضيئة، والحاكم الجبري لا يريد هذا الأمر، لا يريد منك أبدًا أن تزعجه، ولا تسألني عن شيء وَلَن أحدث لك منه أمرًا، لأنه يعرف ببساطة أنه متى ما فتحت ماسورة الأسئلة هذه، فلن تتوقف، ولربما يأتي من يسأل هذا الحاكم الجبري سؤالًا بسيطًا مثل: من وضعك في هذا المكان؟

البناء المعرفي للبسبوسة هو من سينقذنا، الأسئلة والكثير من الأسئلة هي ما ستنهض بِنَا من كبوتنا الطويلة هذه، وما لم ندرك هذا الأمر فسنظل ندور في هذه الحلقة المفرغة من الجهل والجوع والخوف، وهو ما يبدو مقصودًا بالمناسبة، يبدو أنه من مصلحة طرف ما أن يكون السؤال الوحيد الذي يسأله العربي لنفسه كل ليلة هو سؤال «كيف سنأكل غدًا» أو في أحسن الأحوال «ماذا سنأكل غدًا؟» أي أسئلة أخرى ممنوعة.

وكذلك اليوم تُنسى...

بعيدًا عن الشوكولاتة والملابس والطعام والسفر، وكلٍّ تلك المتع التي تشتريها العملات المعدنية، فإن أكثر ما يُفرِح الإنسان حقيقة في هذه الدنيا، هو أن يتمَّ الاعتراف بأنَّه جزء مهم من هذا الوجود الإنساني، الاعتراف بالمساحة الخاصة التي يشغلها ولا يشغلها غيره، تقدير الحيِّز الذي يملؤه، تمييزه عن الآخرين والامتنان لكونه هو هو، وليس شخصًا آخر.

هذا القرب هو ما يأسِر أرواحنا عندما نحسُّه في خطاب الله -عزَّ وجلَّ- مع أنبيائه: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [سورة طه]، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [آية 48، سورة الطور]، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [سورة النساء].

على الجهة المقابلة، فلا شيء يمزِّق روح الإنسان أكثر من أن يكون نكرة، مجرَّد رقم عابر، خانة يملؤها هو أو يملؤها غيره لا فرق، مجرَّد وجه بين الوجوه العديدة، يستوي غيابه مع حضوره.

لذلك فمن الآيات القاسية فعلًا في القرآن آية: ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [سورة طه]. هكذا بكل بساطة، تُنسَى وسط الزحام، لستَ جزءًا من الحدث، أنت لا أحد، وضئيل وتافه وغير موجود لدرجة أنَّك تُنسَى.

اذكروا الله يذكركم يوم ينسى الناس.

السراب

من التشبيهات العبقرية والمرعبة في القرآن الكريم، للدنيا وعلاقتنا معها هو تشبيه السراب في سورة النور.

العبقري في هذا التشبيه، أن كشف حقيقة السَّراب يقتضي بالضرورة جهد المسير إليه، فبعكس الخدع الأخرى، أنت لا تدرك خدعة السَّراب حين تراه لأول مرة، بل تحتاج إلى إدراك حقيقته أن تحثَّ الخطى باتِّجاهه، مؤمنًا وراغبًا فيه، ومقتنعًا تمام الاقتناع أنَّ ما تراه وتمشي إليه هو الماء الذي فيه خلاصك، مهما قال لك الآخرون عكس ذلك، وتمشي وتمشي وتمشي، حتى تصله في النهاية فتُفاجأ بالكارثة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا﴾ [آية 39، سورة النور].

هكذا ببساطة، بعد كل تلك الجهود التي بُذِلَت والعمر الذي ضاع، تكون النتيجة «لم يجده شيئًا»، ويضاعف تلك الحسرة طبعًا أن يكون وقت الإنسان وجهده قد استُنزِفا تمامًا خلال الرحلة، فلم يعد هنالك أي قدرة لمحاولة أخرى، ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ [سورة النور].

اللهم إنَّا نعوذ بك من أن تضيع أعمارنا في مطاردة السراب، وألَّا نجد شيئًا في نهاية الرحلة، فنلقاك ظامئين مخذولين مرعوبين مسكونين بالحسرة.

ما هي القوامة؟ (مقال)

تقول الآية المعروفة في سورة النساء: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [آية 34]. ، طبعًا قراءة تفسير هذه الآية من مراجع قديمة كتفسير ابن كثير مثلًا، كافية لإخراج أي امرأة من الملَّة دون أدنى جهد، لذلك سنحاول أن نقرأها قراءة حديثة لنفهمها بشكل جيد ومنطقي.

بداية القوامة جاءت من الفعل قام، قام قائم قوَّام وقيُّوم، والله قيُّوم السموات والأرض أي القائم بهما، وبالتالي فالقوامة هنا بمعنى المسؤولية، الرعاية، الحماية والاهتمام، هذه هي القوامة، ولأنَّها مسؤولية كلَّف الله الرجل بها، كان من الضروري شرح سبب هذا التكليف، كإجابة عن سؤال مفترَض يقول: «لماذا يتوجب عليَّ كرجل أن أقوم على خدمة المرأة؟» فكان الرد: «بما فضَّل الله به بعضهم على بعض»، والتفضيل هنا ليس كاملًا ومطلقًا كما فهمه شيوخ السلفية، بل هو تفضيل جزئي ونسبي، جزئي بمعنى أنَّه كما فُضِّل الرجال في أمور معينة، فُضِّلت النساء في أمور أخرى، فكما أُعطي الرجال مثلًا القوة الجسدية، وُهبَت النساء القوة العاطفية والتماسك تحت الضغط... إلخ، ونسبي بمعنى أنه حتى في جزئية كالقوة الجسدية أُعطيَت بعض النساء أكثر مما أُعطي الرجال، وبالتالي قد تجد امرأة أقوى جسديًا من كثير من الرجال، وقد تجد رجلًا يمتلك من مميزات المرأة العاطفية ما يفوق الكثير من النساء وهكذا، باختصار، هذا التفضيل لا يعني بالضرورة ما تم فهمه سابقًا أن أصغر رجل هو أفضل من

أكبر امرأة، وأن الطفل الذي بلغ للتوِّ يكون وليَّ أمر أمِّه لأن الرجال قوامون على النساء وأفضل منهن، هذا هراء، التفضيل جزئي ونسبي ومتبادَل، لكن بمجموع الناس وبالنظر إلى الصورة الكبيرة وكقانون عام، قرر الله خالق الجنسين أن يكلِّف الرجال بمهمة القوامة.

طبعًا قبل أن يقول أحد إن هذا الكلام مبتدع، نحيلك إلى تفضيل آخر في القرآن الكريم ذُكِر في السورة نفسها: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥﴾. التفضيل هنا مطلَق وليس نسبيًّا، أي أن أصغر مجاهد أفضل عند الله من أكبر قاعد، وليس هذا هو الحال في موضوع تفضيل الرجل على المرأة، لأن اللفظ نفسه المستخدَم في آية القوامة يفيد التبادل، «بعضهم على بعض» أي بعض الرجال على بعض النساء وبالعكس.

ولتصور أفضل عن هذا التفضيل، تخيَّل أنَّك مدرب لكرة القدم، ويقع عليك تشكيل فريق من المواهب الموجودة لديك، مجموعة تمتاز بالسرعة والمراوغة وحسن التسديد، مجموعة تمتاز بالتمرير الجيد ورؤية الملعب والكرات العرضية، ومجموعة تمتاز بضخامة الجثة وحسن استخلاص الكرة، لا شكَّ أنك ستختار المجموعة الأولى للهجوم والثانية للوسط والثالثة للدفاع، لأنك قد رأيت أن هنالك تفضيلًا جزئيًّا ما بينهم، لكن هل هذا يعني أن المهاجم أفضل بالمطلق مِن لاعب خط الوسط؟ أو هل المدافع أفضل من حارس المرمى؟ بالطبع لا، كلهم لاعبون ممتازون لكن كلًّا منهم يمتلك ميزات جزئية تناسب موقعه، من هنا تبدو بعض الدعاوى مثل «المرأة يمكنها العمل كميكانيكي»، «الرجل يمكنه العمل كمربية»، دعاوى ساذجة، وهي تشبه أن نقول للمدرِّب إنَّ المدافع أيضًا يمكنه تسجيل الأهداف، ليلعب في خط الهجوم، وبالطبع سيقول لنا إنه يعرف أن المدافع يمكنه تسجيل الأهداف، والمهاجم يمكنه أيضًا حراسة المرمى، وهذا ما سيفعله الفريق كله في حالة الأزمة، لكن في الوضع الطبيعي، فلكلٍّ مكانه، والمطالبة بأن

يلعب المدافع في خط الهجوم ليست فقط محاولة غبية لمساواة ليست في مكانها، وإنما تخفي في باطنها أيضًا احتقارًا لدور المدافع، فطلبك المساواة مع شخص ما، تفترض بالضرورة أنَّك ترى نفسك أقلَّ منه.

المهم أن هذا التفضيل النسبي والجزئي والمتبادل إذا أردنا النظر إليه بكل تجرُّد فهو يتعدى القوة الجسمانية والقدرة على الولادة والإرضاع وكل هذه الاختلافات الجسدية إلى شيء ما عميق في تركيبة الرجل والمرأة النفسية. هنالك حاجة عميقة في نفسية كل رجل تدفعه لحماية امرأته، للذود عنها، للعناية بها، لإحضار الأشياء لها، وبالمقابل هنالك حاجة عميقة أيضًا في داخل كل امرأة لأن يحتويها رجلها، يعتني بها، يغار عليها، يحميها من الآخرين، وهذه بالضبط هي خلطة القوامة التي تحدث عنها الله -عز وجل-، وهكذا ترى أن اختيار الله الرجل لهذه المهمة، ليس لأن الله -عز وجل- هو ذكوريٌّ -حاشاه- فليس الرجال ولا النساء سوى خلق من خلقه، ولا ينحاز لأي منهما ضد الآخر وإنَّما لمعرفته التامة بخلقه، وتقريره أن هذا ما يصلح للجنسين اللذَين خلقهما باختلافاتهما الطبيعية.

الجزء الأخير من الآية والذي يشرح مكوِّن القوامة الثاني هو «وبما أنفقوا من أموالهم» أي الكسب المادي، بمعنى، أن الرجال مكلَّفون بالقوامة لأنهم أيضًا يعملون ويكسبون، وبالتالي فهذه الميزة استوجبت تكليف الإنفاق، طبعًا هذه الجزئية خطيرة جدًّا، وفهمها ضروري، لأن العصر الحديث وإحلال الآلات مكان العضلات وتحول الوظائف بمجملها إلى وظائف مكتبية جعل المرأة تعمل أيضًا خارج البيت، وبالتالي تكسب رزقها كما يكسبه الرجل، فهل في هذه الحالة تسقط القوامة؟ عند الكثير من الناس، الإجابة هي نعم، إذا عجز الرجل عن الإنفاق لأي سبب، تسقط قوامته مرحليًّا، ويعلو صوت زوجته على صوته، واتهامها له بأن الرجل الذي لا يكسب، ليس رجلًا، لكن الإجابة الصحيحة هي لا، لا تسقط قوامته حتى مع خسارته جزئية الإنفاق هذه، لأن الكسب من عدمه هو أمر خارج عن طبيعة الإنسان، أي أن الرجل لا يفقد مميزاته كرجل عندما يخسر كسبه

لسبب ما، يظل رجلًا، قد تتأثر صورته عن نفسه قليلًا، وقد يعاني نفسيًا جراء ذلك، لكنه يجب أن يظل رجلًا في عينه وعين زوجته أيضًا لأن داخله كرجل لم يتغير، والرسول -عليه السلام- نفسه قد تزوج من هي أغنى منه، فهل أفقده هذا قوامته؟ بالطبع لا، وطبعًا غني عن القول هنا أن الآية الحاكمة في علاقة الرجل والمرأة هي ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آية 228، سورة البقرة]، أي أن الأصل سواء كان الرجل ينفق أو المرأة أن تكون المودة والرحمة هي أساس العلاقة، لكن في حالات بسيطة جدًّا عند حدوث خلاف، تكون الكلمة للرجل بعدِّه القوَّام المسؤول.

هذه هي القوامة باختصار، تفضيل نسبي وجزئي ومتبادل، وأي تحوير لهذه الحقيقة من رجال أو نساء، إنما يقوم به أصحابه لمصلحتهم، لكن الله وكتابه ودينه منهم براء.

من قصاصاتي (10)

- أعمق درجات الأذى تحدث عندما يبدأ الإنسان بلوم نفسه على ما تسبب به الآخرون له، هنا يكون الأذى قد عبر إلى داخله فعلًا، ووقف بينه وبين روحه، في تلك المساحة المقدَّسة الخاصَّة، وغيَّر حتى نظرته لذاته.
- تشكلت لديَّ قناعة أن كل أزمة مررت بها، كانت ضرورية نوعًا ما لإخراج شيء ما جميلٍ في داخلي، شيء ما كان ليخرج دون تلك الأزمة، فكرة أشبه بعصر الليمون لإخراج ما فيه، ولا مشكلة لدي في هذا التصور، إنما تكون المشكلة في تلك الأيام التي أعيشها كليمونة معصورة، قبل أن أمتلئ مرة أخرى.
- أول خطوة لتصل إلى ما تريد، هي أن تجبر نفسك على فعل ما لا تريد.
- كُسرَت يدي، ومع ذلك أستطيع أن آكل بيد واحدة، وأن أرتدي ملابسي بيد واحدة، ويمكنني أيضًا أن أحلق لحيتي، أن أستحم، أن أستخدم هاتفي، بل وأن أقود سيارتي أيضًا بيد واحدة، كل هذا ممكن ومقبول ومحتمل، لكن كيف لي أن أحتضنك بيد واحدة؟ نصف حضن؟ مجرَّد تربيت على كتفك كالتربيت على أكتاف الغرباء؟ هذا فوق احتمالي.
- ذكر الله في أولى لحظات الصدمة والرعب، يعطيني انطباعًا قويًّا عن إيمان الشخص، هذا التهليل (لا إله إلَّا الله) وإن بدا عفويًّا ولا

إراديًّا، إلَّا أنه يكشف لك فعلًا ما هو موجود في عمق قلب هذا الإنسان، ما هي الفكرة الأهم التي آمن بها طوال حياته، واسترجعها عقله فورًا في لحظات الرعب.

ولعلَّ هذا يفسِّر حديث النبي -عليه السلام-: «من كان آخر كلامه لا إله إلّا الله دخل الجنَّة»، لأنَّ الأمر ليس سهلًا أبدًا بالمناسبة، ولتتمكن من قول هذه الجملة في آخر لحظات حياتك وأصعبها، يتطلب بالضرورة أن تكون هذه الجملة هي مرجع عقلك الأول طوال عمرك، يجب أن تعيش عليها لتموت عليها.

- كم هو ساذج تصوُّري أنني لو كنتُ قد فعلتُ كذا وكذا، لنجحت في مسعاي، مشكلة التصوُّر السخيف هذا أنه لا يضع في حسبانه أي عقبات كانت ستواجهني في مساري الآخر الذي لم أتخذه، وكأنه مسار مكفول النجاح، ولا عيب فيه إلَّا أنني تركته، ومع يقيني بتهافت ذلك التصوُّر، فإنه يعذبني.
- صغيرٌ حزني بمقاييس هذا العالم، لكنَّه يملأ قلبي كلَّه، عالمي كلَّه.

أهل الغرام (قصة قصيرة)

مطبخ صغير في زاوية أحد المكاتب، يقف فيه شاب في أواخر الثلاثين مرتديًا معطفًا جلديًّا أسود ببطانة صوفيَّة بيضاء، وبنطالًا رماديًّا مخملي الملمس، يرتكز بيده اليسرى على خزانة المطبخ العلوية وينظر بصبر جميل إلى سخَّان الماء الكهربائي الموضوع على الرخام لينتهي من عمله.

يُسمَع صوت رجل مذعورٍ من داخل المكتب.

- وصل مصطفى يا جماعة؟ وين مصطفى؟ احكوا معه بسرعة! البرنامج راح يبدأ يلَّا.

يخرج مصطفى مبتسمًا من داخل المطبخ الصغير ممسكًا بكأس الشاي الذي عمله للتوِّ، ويردُّ على المخرج مقلِّدًا صوته المذعور:

- وصل مصطفى يا أبو راكان، وصل، بس كان بعمل كاسة المزاج تبعته، ما أنت عارفه! مزاچنچي!

يضحك المخرج من تقليد مصطفى له ويقول:

- طب يلَّا يا أخوي يا مزاچنچي، يلَّا، أهل الغرام بستنُّوا.

* * * *

غرفة معزولة الصوت في إذاعة محلِّية صغيرة، تشير ساعة الحائط فيها إلى تمام العاشرة، يجلس مصطفى فيها على كرسِّيه الجلدي، يضع سماعات الأذن، يتأكد من المايكروفون، يتفحَّص الأجهزة وقراءاتها أمامه، يطمئن أنَّ كل شيء على ما يرام، ثم يشير بإبهامه للمخرِج الواقف خلف

الزجاج بأنه جاهز للبدء، ينتهي الفاصل الموسيقي، وبصوته العميق يبدأ مصطفى بالكلام.

- أعزائي المستمعين والمستمعات، الحيرانين منكم والحيرانات، العاشقين منكم والعاشقات، والأحياء منكم والأموات، مساء الخير عليكم جميعًا، وأتمنى تكونوا كلُّكم بألف صحَّة وعافية، أنا مصطفى العلي وبرحِّب فيكم بحلقة جديدة من برنامجكم الإذاعي «أهل الغرام» اللي بنتلقًى فيه اتصالاتكم وأسئلتكم فيما يخص شؤون القلب، وكالعادة، فيكم تستمعوا للبرنامج على تردد قناة مودي أو تتابعونا على البث الحي على حساباتنا في فيسبوك وانستغرام ويوتيوب، وما راح أقولكم اعملوا إعجاب ومشاركة للصفحة، لأنه الشي لو ما كان طالع من القلب ماله معنى، والاهتمام ما بنطلبش، ومعانا أول اتصال من عزيزتنا داليا، وباسم الله نبدأ... مساء الخير يا داليا.

- ألو.

- ألو، معك يا داليا، مساء الخير.

- مرحبا أستاذ مصطفى كيفك؟

- تمام والله، نحمد الله ونشكره، هاتي قولي لنا، شو محيَّرك بالغرام يا داليا؟

- ما في كثير شي محيَّرني، أنا طالبة في الجامعة سنة أولى، وبصراحة هيك في شاب دفعتي تعرَّفنا على بعض وحبّني، واعترف لي يعني.

- سنة أولى؟ ما شاء الله، بضيعش وقت.

- ومع الوقت أنا كمان ملت له شوي يعني وحبيته، وبما إنه إحنا لسه طلَّاب، ومش جاهزين، عرض علي إنه أستناه وأظل معه لغاية ما ظروفه تسمح، ويصير في خطبة وزواج.

- آها، اللي هو بعد التخرُّج يعني؟

- آه بعد التخرُّج، وأنا بصراحة فكَّرت بقلبي وعقلي ولقيت إنه هذا الخيار الصحيح، ووافقت، لكن مع هيك محتارة، ومش عارفة إذا اللي عملته صح ولا غلط.

تصمت الفتاة قليلًا...

- هممم، خلَّصتِ يا داليا؟ ولا في شي بدك تحكيه كمان قبل ما أحكي أنا؟

- خلصت أستاذ مصطفى، خلصت، بسمعك.

- شوفي يا ستِّي، قبل ما نحكي عن الحب هذا، ونميِّز بين الحب والحاجة للحب، بدي أسألك سؤال؛ أنتِ قلتِ إنك فكَّرتِ بقلبك وبعقلك؟ كيف الإنسان بميِّز إذا كان بفكِّر بقلبه ولا بعقله؟ بتعرفي؟

- ممممم، بصراحة لأ.

- القلب يا داليا ما بتعامل إلا بالمشاعر، هاي هي العملة اللي بفهمها، وبالتالي هو بحكم على الناس من نواياهم، والكلام اللي بقولوه، فلمَّا قلبك حس إنه نوايا الشاب هذا طيبة وارتاح لمشاعره، وافق عليه، وهذا هو اللي أنتِ عملتيه واللي اسمه التفكير بالقلب، العقل من جهة ثانية ماله علاقة بالنوايا، هو بتعامل بالقدرات، بالأرقام، بالحقائق، فلمَّا عقلك شاف إنه قدرات هذا الشاب مش كافية لإتمام متطلَّبات الزواج رفض الدخول أساسًا في هاي العلاقة، رفضها من البداية، لكن بما إنه القلب هو العضو الأقوى بجسمنا، قام قال للعقل أنت ما لك دخل، أنا المدير هون وأنا شايف وفاهم كل شي، واللي بقوله هو اللي بصير، قام العقل زعل وحرد، وقال اعملوا اللي بدكم إياه يا جماعة بس راح تندموا، وزعلة العقل هاي هي بالضبط الحيرة اللي أنتِ شاعرة فيها، وهي اللي بسببها سمعنا صوتك النَّدي اليوم.

- (تضحك داليا بخجل) يمكن، آه صح، بس يعني هو طالب لسَّه، أي قدرات بدها تكون عنده؟ إنه يعني كيف بده العقل يقتنع؟

- داليا، هون بنيجي للموضوع الثاني، اللي هو، هل هاد حب ولا مش حب؟ الحب يا داليا اختيار من متعدد، بتعرفيه الاختيار من متعدد؟

- آه بعرفه، زي أسئلة الامتحانات هيك.

- بالزبط، اختيار من متعدد يعني أنا بشوف أكثر من حدا قدامي، وبعرفهم، بشكل مبدئي على الأقل، وعندي فرصة معهم أو عرض منهم، مش بشوفهم من بعيد وخلص، ومن مجموعة الخيارات المتاحة هاي، بختار واحد منهم لاقتناعي فيه وميل قلبي إله، هاد هو الحب، اختيار من متعدد، لكن اللي في حالتك أنتِ مش هيك، مش هيك تمامًا، أنتِ بنت مبارح خلصت ثانوي، وكنت بمدرسة بنات وبالتالي تعاملك واختلاطك مع الجنس الآخر محدود جدًّا، ويمكن هذا الشاب هو أوَّل شاب بتحكي معه جملة أطول من صباح الخير، فاللي بتحسِّيه مع هذا مش حب، هاي حاجة للحب، لأنه مش اختيار واعي من متعدد، وصاحبك نفس الشي، جاي من مجتمع شبابي كله خناشير، وتعامله مع الجنس الآخر محدود، لذلك أول بنت قعد جنبها بالمحاضرة قال لها بحبك، كمان مرة، حاجة للحب، مش حب، والحاجة للحب هاي على فكرة شغلة منيحة يعني، صحيح إنها مَش حب حب، بس إلها نفس الطعم، فبتبسط الواحد كثير يعني، المهم، هو عشان ما يخسر هذا الشعور الحلو الجديد إنه في بنت بحياته لأول مرة، ولأنه عارف وضعه وعارف إنه لسه بوخد مصروفه من أبوه، قاعد بحاول يعطيك ضمانات بالشي الوحيد اللي بملكه، نواياه ومشاعره الحالية تجاهك، وأنتِ كمان لأنك مبسوطة على المشاعر الجديدة هاي، قاعدة بتحاولي أنتِ وقلبك تقنعوا عقلك بالضمانات الباهتة اللي الشاب قدَّمهم، وعقلك مش راضي يقتنع، وبحاول يقول لك إنه هاي حاجة للحب بس، شعور لحظي، بتروح مع شوية صبر ونضج عاطفي ومرور للزمن، فهمتِ علي يا داليا؟

- فهمت أستاذ، بس يعني...

- يعني شو؟ قولي، بسمعك.

- يعني مثلًا مثلًا لو ضلينا هيك بالجامعة، لغاية ما يتخرج، إنه شو بخسر؟ مش يمكن بعد ما يتخرج نخطب جد ونتزوج وتكون نهاية سعيدة؟

- منطقيًّا الاحتمال شبه معدوم، لكن رياضيًّا ممكن، مع هيك، أنا دائمًا بقول إنه النوع هذا من العلاقات بتمدَّد لغاية ما يقتل نفسه في النهاية، وراح أقول لك كيف... (يتنهَّد مصطفى).

- سامعتك، معك.

- كل علاقة اجتماعية يا داليا إلها إطار، زي إطار الصورة هيك، وهذا الإطار بحدِّد حجم العلاقة، وشو الأشياء اللي ممكن تبادلها من الطرفين وبالاتجاهين، الأخذ والعطاء، فمثلًا، علاقة الزمالة اللي كانت بينكم في البداية، واللي موجودة بين طلاب وطالبات كثير بالجامعة، علاقة إطارها ضيق، يا دوب بتسمح للشاب يحكي للبنت، صباح الخير، صباح النور، متى الامتحان، ممكن أصور المحاضرة... إلخ، إطار ضيق جدًّا، ما بسمح بتبادل أكثر من هيك، لكن إذا تطوَّرت العلاقة بين زميل وزميلة للصداقة مثلًا، هذا الإطار بيتسع، بصير بسمح بتبادل جُمَل أطول وحوارات أوسع ووقت أكبر، وممكن يصير فيه تبادل أرقام التليفونات، وممكن حوار عن أشياء برَّه الجامعة من هوايات واهتمامات وغيره، إطار الحب أو «الحاجة للحب» عشان نكون دقيقين أوسع بمراحل من إطار الصداقة، إطار بسمح بمرور وتبادل أشياء كثير غير، ومع الوقت بتوسع أكثر وبتصير الأشياء المتوقع تبادلها نتيجة للتوسُّع الطبيعي للإطار كبيرة، ويمكن لا أنتِ ولا هو قدَّها ولا قد تبعاتها، لكن كون الإطار المسموح لكم أمام الجميع هو إطار الزمالة الضيق، فهون انتو راح تكونوا عايشين

بتناقض فظيع وضاغط عالأعصاب، علاقتكم بتتطلب تبادل أمور كثير، لكن الإطار المسموح فيه مجتمعيًّا ضيق جدًّا، وهون إما بتنتهي الأمور نهاية سيئة بمعنى سيئة، وإما العلاقة بتصير ضغط هائل عالجهتين وبتتفقوا في اللاوعي إنكم تنهوها، وبتختاروا هيك خلاف بسيط وبتاخدوه حجَّة لإنهاء العلاقة، اللي راح تقولوا بعد ما تحطوها في خزانة الذكريات إنها كانت علاقة متسرِّعة، وغير ناضجة.

فترة صمت من الطرفين، يتخللها تنهيدات عميقة من داليا التي تلاحظ الصمت الغريب أخيرًا فتقرِّر كسره وتقول بكلمات متقطِّعة:

- شكرًا أستاذ مصطفى، شكرًا كثير إلك، شكرًا.

يشير مصطفى بيده نحو المخرِج فيقطع صوت داليا، ويقول مصطفى:

- الشكر إلك يا داليا، وإن شاء الله تكون الأمور توضحت عندك، بناخد فاصل وبنرجع ناخد اتِّصال آخر.

بينما تُعزَف أغنية «أهل الغرام يا جميل ياما لاموني»، يخلع مصطفى سماعات الأذن ويعيد رأسه للوراء، ويبدأ بالتدخين من سيجارته الإلكترونية منتظرًا أن تنتهي الأغنية.

* * * *

تنتهي الأغنية أخيرًا، يضع مصطفى سيجارته جانبًا، يثبِّت السماعات ويبدأ بالكلام:

- أعزَّائي وعزيزاتي، رجعنا لكم ببرنامج أهل الغرام وناخذ اتصال ثاني ومعانا، مريم، مساء الخير يا مريم.

- مساء الخير أستاذ مصطفى أتمنى تكون بخير.

- لله الحمد والمنَّة، خبريني يا مريم، شو سؤالك؟

- مش سؤال هو، هي مشكلة كبيرة وأنا وقعت فيها، وبدِّي تساعدني بحل لو سمحت، لأني بطَّلت أعرف أنام الليل.

- كل مشكلة وإلها حل يا مريم، لا تقلقي، قولي بس أنا معك وسامعك.

- أنا مشكلتي باختصار شديد، إني تورطت والسبب اللي ما يتسمى الحب، أنا بنت وصلت الثلاثين، وزي ما بقولوا هون تقريبًا فاتني قطار الزواج، والفرص كتير كتير قلَّت، طبعًا ما بدِّي أنبش الماضي وأقول إنه إجتني فرص أو ما إجتني، جلد الذات هلأ مش وقته، المهم إنه في عز أزمتي النفسية هاي، والجفاف اللي كنت عايشة فيه شفته، أكبر مني بسنتين، مش متعلِّم قدِّي، يعني معه دبلوم، بس شغِّيل ومعه فلوس، وأنا نفسي مش محتاجة فلوس، معي الحمد لله، فتغاضيت عن جزئية التعليم هاي، وقلت مش مشكلة وفتحت له قلبي، وشوي شوي تعلقنا ببعض، أنت معي أستاذ مصطفى؟

- معك مريم معك، كملي لو سمحت.

- أوك، المهم تعلَّقنا ببعض، صحيح في بيتنا اختلافات كبيرة كانت، ويصدمني بكثير تصرُّفات، بس إنه أنا عقلت ووقَّفت زمان أستنى يجي الشخص اللي راسمته في عقلي وخيالي، لأني تأكَّدت إنه الرجل الكامل اللي مرسوم في خيالي ما راح ألتقيه أبدًا، ببساطة لأنه مجرَّد خيال أنا رسمته، أمنية يعني، وعشان هيك الأفضل إني أتعامل مع الواقع الموجود والرجال الموجودين فيه.

- حكمةٌ بالغة.

- المهم تعلقنا ببعض زي ما قلت لك، وصار بيننا تلفونات وطلعات وروحات وجيَّات، بس بحدود المعقول، وكل ما ألمِّح من مكان بعيد لموضوع الخطبة والزواج، ما كنت أطلب والله، تلميح بس، يتعصب ويقول لي إنه إمه كتير مريضة هلأ، وإنه مش ناقصه شي، حتى شقَّة عنده، وباللحظة اللي بتخف فيها إمه راح يجيبها ويخطبني، وهي كانت مريضة فعلًا، ودخلت المستشفى أكثر من مرَّة ووصيت عليها صاحبة إلي ممرضة، المهم إنه بعد كم شهر تقريبًا وإحنا

نحكي، صار يطلب مني صور وأشياء يعني، مخلَّة شوي، بدعوى إنه بحبني، وإني مرته على اعتبار ما سيكون يعني، ومن هالكلام، وأنا أولها رفضت، لأنه مش من طبعي أبدًا هذا الشي، ولا تربِّيت عليه ولا احنا هيك بالمرَّة، بالعكس، كنت دائمًا أحتقر البنات اللي بعملوا هيك، وأقول عنهم مجانين، لغاية ما صرت مجنونة زيهم.

- بعتي له يعني؟

- مع الضغط الشديد، آه بعتت.

يتنهَّد مصطفى فتكمل الفتاة:

- مصطفى، اسمح لي أقول لك مصطفى حاف، أنا عارفة أكثر من أي حد إنه اللي عملته غلط، بس الأمور ما كانت أبدًا بالبساطة هاي، أنا كنت أنام وأنا ببكي في كل ليلة أبعت له فيها صورة أو فيديو، كنت فعلًا خايفة على حالي وسمعتي، لكن كنت خايفة أكثر يروح من إيدي، ما كنت راح أستحمل خسارة جديدة بحياتي، ما كنت راح أتحمَّل أشهد موت أمل جديد، تعبت كثير من إني أشوف آمالي بتموت واحد ورا الثاني على مدى هالسنين، صرت زي الأم اللي كل ما تحمل وتخلِّف ولد بموت، فقررت بالآخر إنِّي بدِّي أحميه لهالأمل الأخير اللي عندي، لو برموش عيني راح أحميه، مش بس بشوية صور.

هنا يتهدَّج صوت الفتاة وتبدأ ببكاء بالكاد يُسمَع.

- معلش يا مريم معلش، كمِّلي لو سمحتِ.

تأخذ الفتاة عدَّة أنفاس لتستطيع إكمال كلامها، ثم تقول:

- ولا شي، بعدها بطَّلت تكفيه الصور والمكالمات، وصار بده نروح على مكان خاص، عشان ناخد راحتنا قال، ولمَّا رفضت بشتَّى الطرق إنه هذا الشي يصير، ويئس من إنه يقنعني فيه، انقلب شخص ثاني تمامًا، وصار يقول لي إنه كان مفكِّرني مختلفة بس طلعت زيي زي البقية، وإنه مش لازم أمثِّل عليه أكثر من هيك لأنه بعرف البنات اللي

زيي منيح، وكلام كثير يعني أمَر من العلقم، وبالآخر بس أصرِّيت على الرفض، صار يهددّ في بالصور، تخيَّل، الشخص اللي كنت مستعدة أدافع عنه بكل ما أملك، صار يهدِّدني بأغلى ما أملك، واللي كنت مستعدَّة أقدِّم له حياتي كلها صار ينعتني بأبشع الصفات، وهيني، عايشة تحت تهديده اليومي لغاية ما قرَّبت أنتحر وأحط حد لهالحياة الملهاة المأساة اللي عشتها، بس قلت قبل ما أنتحر، إجاني هاجس أتصل فيك، كبارقة أمل أخيرة، قشَّة أخيرة أتعلَّق فيها، واتصلت وأنا مقتنعة مليون بالميَّة إنه راح يكون الخط مشغول، لكن عكس الحظ اللي لازمني طول حياتي، لقط الخط.

نَفَس صغير من مصطفى وكأنَّه ابتسامة متكلِّفة لكنها ضرورية كمجاملة للدعابة التي قالتها مريم، ثم يقول بصوته الهادئ:

- شوفي يا مريم، أول شي الحمد لله إنه الخط لقط، لأنه حياتك وحياة أي إنسان، أكيد إنها أغلى من إنها تضيع هربًا من تصرفات سيئة لإنسان سيئ، فبخصوص هاد الشاب، حلها سهل هاي المشكلة، هلأ وفي التو واللحظة، بس نطلع تحت الهوا راح أوصلك بالنقيب محمد من الجرائم الإلكترونية، وتحكي له بالزبط عن هذا الشاب، وتعطيه رقمه ورسائل التهديد وكل شي، والنقيب محمَّد بدوره راح يحل الموضوع بكل سرية وأمان، وبدون حتى ما توصلي المخفر، هاي سهلة.

- تمام، شكرًا إلك والله، شكرًا كثير، من كل كل قلبي، شكرًا.

- الله يسلمك لكن الأهم يا مريم، إلك ولكل حدا قاعد بسمعنا اليوم، تكمن في طريقة التفكير اللي بتقودنا في العادة لهيك مشاكل، واللي هي بتتلخَّص برأيي على الأقل في حالتك أنتِ، هي في طريقة تعاملنا مع الخوف، يعني راح أطرح مثال غريب شوي، إنَّما واقعي، أنا في كل يوم جمعة تقريبًا بروح عند أهلي وبنجتمع كعيلة وشباب، وبنلعب طرنيب، لعبة في ورق الشدَّة.

- آه بعرفها الطرنيب منيح، بلعبها.

- ما دام بتعرفيها ممتاز، فمن كم سنة يا مريم، ما بتذكر إني رجعت يوم من بيت أهلي مغلوب، دائمًا أنا وشريكي بنفوز، وخصومنا هم اللي بخسروا، مش لأنَّا لاعبين لا يشق لهم غبار لا، لكن لأنه خصومنا بفكروا زيِّك، بحكمهم الخوف من الخسارة، فلمَّا نقرب الطرفين على نقطة الفوز بخافوا، بقوموا بخاطروا، فبخسروا، وأنا بفوز، يعني بمعنى آخر، خوفهم من الخسارة هو اللي بخلِّيهم يخسروا، بخليهم يتجاوزوا قواعد اللعبة ويخاطروا، فبخسروا.

- معك حق، أنا عملت هيك من الخوف.

- بالزبط، خوفك من فقدان الشريك المحتمل هذا، أو أملك الأخير زي ما بتقولي، مع إنه مش الأخير أبدًا، خلَّاكِ تخلِّي بقواعد اللعبة، وتخسري في النهاية، عشان هيك بحياتك يا مريم، ما تخلِّي الخوف يحكمك، لا في الغرام ولا في غيره، ما دام بتلعبي حسب قواعد اللعبة، لا تخافي من الخسارة، ولو وصلت المَي لرقبتك، لا تخافي، تمسَّكي بأصول اللعبة، ولو خسرتِ حتَّى لا تندمي، يمكن تخسري مرَّة، بس أكيد راح تفوزي باللي بعدها واللي بعدها، فهمتِ علي؟

- فهمت عليك، والله يجزيك الخير يا رب، مش عارفة كيف أشكرك والله.

- الشكر لله يا مريم، وبتمنى لك يوم سعيد، فاصل ونتلقى اتصالنا الأخير.

* * * *

يريح مصطفى رأسه مرَّة أخرى، بينما يبدأ كاظم الساهر بأغنية «لجسمك عطرٌ خطير النوايا» وما إن تنتهي الأغنية حتى يفتح الخط في اتصال جديد.

- مرحبا يا علياء.

- ألو مرحبا أستاذ مصطفى، كيف حالك؟

- تمام ماشي الحال، أنتِ خبريني عنِّك يا علياء، كيف أمورك وإن شاء الله ما في شي متعِّبك؟

- آااه يا أستاذ مصطفى آااه، قلبي والله اللي متعِّبني ما حدا غيره، قلبي، ترك كل عزَّاب الأرض وحب واحد متزوِّج، ويشهد الله قبل أي حدا إنِّي قاومت هذا الشعور قدر استطاعتي، بس هو لحقني في كل مكان، وبالنهاية ما قدرت، استسلمت لمشاعري، لأن كل شي تمنِّيته بحياتي في رجل لقيته موجود فيه، كامل والكمال لله، وشو ذنبي طيب لو طلع متزوج؟ شو ذنبي إذا شاف مرته قبل ما يشوفني؟ ما كان القدر يعني بقدر يستنى شوي؟ أو يعني يعطي مرته حدا ثاني وآخده أنا؟

- كم سنة إلك بتحبيه يا علياء؟

- ثلاث سنين، أحلى ثلاث سنين بعمري.

- وثلاث سنين على وعد بالزواج ولا على وعد بشو؟

- لا، عارفة من الأول إنه ما راح يتزوجني، هو قال هالشي بوضوح، ومع هيك قبلت.

- وتركتوا يعني هلأ ولا لساتكم سوا؟

- انفصلنا خلص، من شهر تقريبًا مرته عرفت كل شي وصار مشاكل كثير بينهم، فتركنا.

- شو طيب لازم أقول لك هلأ يا علياء؟ يعني وين سؤالك بالزبط؟

- السؤال هو، كيف قدر يتركني؟ كيف ثلاث سنين كاملين بحلوهم ومرهم هيك هانوا عليه بلحظة؟ كيف قدر يرمي كل شي ورا ظهره ببساطة؟ كيف راح تمر عليه الأيَّام بدون ما يصبِّح علي وأصبِّح عليه؟ كيف راح يقبل بعالم أنا مش جزء منه؟ كيف يا ربي كيف؟

واللي كان بيننا هاد كله شو كان؟ خيال؟ حلم؟ تسالي؟ حدا بتسلى بقلب حدا ثلاث سنين هيك؟

- شوفي يا علياء، بداية، الحب مش هدف بحد ذاته، مهما مجَّدوه الشعراء وكتبوا عنه الكُتَّاب، هو شيء جميل ورائع، لكن بدون عمل حقيقي والتزام وحياة مشتركة بين العاشقين وإطار قانوني واجتماعي بجمعهم، فهو عبارة، عن مجرد وهم، تمثال عظيم وجميل ورائع، لكن من دخان، أو من عطر يا ستِّي إذا بدِّك، إنَّما هبِّة هوا بسيطة بتلغيه، وبالتالي، فالحب هو مقدمة لشيء بحفظه وبحميه وبحوله من مجرد دخان هش ومؤقت لشي حقيقي وصلب وإله جذور وموجود على الأرض، واللي هو الزواج طبعًا، أو الإطار القانوني والشرعي للعلاقة، وهاي غلطتك الأولى والأساسية وغلطة كل بنت بتسمح لمشاعرها تتعلَّق برجل هي مدركة استحالة أو صعوبة إقامة علاقة قانونية معه، وغلطة كمان كل شخص ببني قلعة رملية على الشاطئ وبعتقد إنها راح تعيش وتظل.

- بس...

- ما في بس يا علياء، صدقيني ما في، هذا الشي ماله عذر، لأنه حتى لو كان العذر هو صعوبة مقاومة هاي المشاعر في البداية، فالاستسلام إلها بخلِّي مقاومتها مستحيلة في النهاية، الموضوع بسوء ما بتحسَّن. من ناحية ثانية، وهي الأهم تقريبًا، إنه أنتِ وبنات وشباب كثير، ما بفهموا الآلية اللي بشتغل فيها الحب، بحبوا يتطلَّعوا عليه كصندوق سحري لذيذ، مستمتعين فيه وبوجوده، لكن ولا مرة فكَّروا كيف هذا الصندوق العجيب بشتغل.

- وشو هي هاي الآلية طيب؟ كيف بشتغل هذا الحب؟

- الآلية اللي بشتغل عليها هي الآلية اللي ماشية عليها الدنيا كلها، الأخذ والعطاء، بمعنى، أنتِ لو سُئِلتِ عن علاقتك بهذا الشخص، راح تقولي

بنحب بعض، في بيننا حب، بس أنتِ شو بتعطي وشو بتاخدي؟ ما سألتِ حالك؟

- كنت أنا روحه وهو روحي.

- كلام نصفه فقط صحيح، يمكن هو كان روحك فعلًا وحياتك كلها، لكن أنتِ أبدًا ما كنتِ روحه، لأنه أي واحدة بتحب واحد متزوج يا علياء لازم يكون عندها الذكاء الكافي لتعرف إنه كل اللي بتعطيه اياه ما بشكِّل بحده الأقصى عشرين بالمية من احتياجاته العاطفية، الثمانين الباقية من احتياجاته مغطاة مسبقًا من زواجه، بتوفِّرهم زوجته، فهو ناقص عليه بس العشرين بالمية هدول، هذا اللي محتاجه منِّك بس، شوية رومانسية مفقودة يمكن نتيجة طبيعة الزواج العملية اللي بتطغى فيها المسؤوليات مرَّات على الرومانسية، خصوصًا لمَّا يكون في أطفال بالموضوع، وبالتالي، لمَّا عرفت مرته، وصار في احتمال إنه الثمانين بالمية يروحوا مقابل عشرين بالمية، أخذ القرار اللي بياخذه أي إنسان خلَّص رياضيات صف ثاني، اختارها هي طبعًا، وتركك أنتِ، والعشرين بالمية تبعونك، اللي بقدر بكل بساطة طبعًا يعيش بدونهم، أو تعوضه عنهم زوجته...

- هذا كلام كثير قاسي ومش حقيقي، الموضوع عمره ما كان هيك...

- الموضوع عمره ما كان إلَّا هيك يا علياء، والحقيقة قاسية بطبعها، بس إذا بدنا نتوقع خطوات الناس حوالينا، لازم وضروري نكون فاهمين موقعنا إحنا بالحياة وين، شو بناخذ وشو بنعطي، وشو قيمة اللي بناخذه، وقيمة اللي بنعطيه.

يُقفَل الخط.

- ومع علياء اللي زعلت من الكلام، لكن أكيد راح تقدره وتفهمه بعدين، بنيجي لختام حلقتنا اليوم، في اتصال أخير بقول لي المخرج؟ نعم يبدو في اتصال أخير، ألو ...

- ألو مساء الخير، أم يزن معك يا مصطفى.

- مساء الأنوار يا أم يزن، أهلًا وسهلًا.

- أهلًا فيك، طبعًا أنا ما عندي سؤال ولا مشكلة ولا شي، لكني متابعة جيدة لبرنامجك من البدايات، وبستفيد منه عشان أحاول أقرب لبناتي وأفهمهم، لكن بعيدًا عن ذلك، عندي سؤال محيِّرني، وقلت يمكن أنت تجاوبني عليه.

- ولو، تفضلي أم يزن، والله يقدِّرني وأقدر أجاوبك.

- شكرًا إلك، سؤالي هو، مع الكم الكبير هذا من المشاكل بين الشباب والبنات اللي بنشوفه وبنسمع عنه كل يوم، سواء في برنامجك أو غيره، واللي ضحيته غالبًا بكونوا البنات، إنه متى ممكن نتوقَّع هاي المشاكل تنتهي أو تخف؟ ليش البنت بتكون سمعت عن عشرين بنت تمشكلوا قبلها وبرضه بتمشي بنفس الطريق وبتوقع نفس الوقعات وبتيجي تشكي وتبكي؟ انه معقول في نوع من السذاجة العاطفية الفطرية موجودة عنَّا كبنات؟ بحيث ما واحدة فينا بتتعلم من الثانية ولا كيف؟ شو اللي بفسِّر الاستمرارية الهائلة هاي من الأخطاء؟ هذا سؤالي.

- والله سؤالك منطقي يا أم يزن، وأنا للأمانة فكَّرت فيه كثير، لكن قبل ما أعطيك إجابتي خليني أقول لك إني بعترض شوي على جزئية السذاجة العاطفية الفطرية، لأنه التعبير قاسي شوي، ومتحيِّز ضد النساء إلى حدٍّ ما، لكن كبداية خلينا نتِّفق إنه الانجذاب بين الشباب والبنات في مجتمعنا وغيره طبعًا هو انجذاب فطري وطبيعي، وبالتالي ما بنقدر، ولا لازم نحاربه بدعوى الفضيلة أو أي دعوة ثانية، لأنه شو البديل يعني؟ ننجذب للجنس نفسه؟ ما بصير، فبنقدر بس نقنِّنه، أو نوجِّهه في الاتِّجاه الصحيح اللي بثمر عائلات في النهاية، يعني الحب بحد ذاته مش شي سيئ أبدًا بضمان قوننته في نهاية الأمر، وهذا اللي

أنا عم بحاول أعمله في برنامجي هون، وغيري بحاول في مكان آخر، وكل أب وأم بحاولوا يعملوه في بيتهم، ومع أولادهم، ونأمل مع تكرار هذا الكلام، ونشره على نطاق واسع، إنه يدخل ضمن ثقافتنا الشعبية ويصير جزء من معرفتنا الجمعية البَدَهية. أما بخصوص السذاجة العاطفية عند البنات، فزي ما قلت لك أنا برفض تسميتها سذاجة، لأنه السذاجة بتتطلَّب غياب التفكير والمنطق والحس السليم، وهذه أشياء كلها موجودة عند البنات مش غايبة، لكن بما إنه صوت القلب أعلى من صوت العقل زي ما أسلفنا، فهو اللي بحكم في نهاية الأمر، عشان هيك لو بدنا نقول في سذاجة في الموضوع، فخلينا نتفق إنها سذاجة متعمَّدة، هذا رأيي بكل صراحة ووضوح، وبالنهاية خلينا كمان نتفق إنا إحنا بطبيعتنا كبشر خطَّائين، يعني كلنا مثلًا بنعرف إنه السرعة في السواقة بتسبب حوادث، لكن هل شفت الحوادث في يوم وقَّفت؟ أكيد لا، بتخف نسبتها مع التوعية أكيد، بس هل بتنتهي؟ لا، لأنه كل واحد منَّا مؤمن بخصوصية تجربته وصوابية حكمه، كما إنه المعرفة بالضرورة ما بتمنع الخطأ، وهذا شي مش بالهوى بس يا أم يزن، إنما بكل شي آخر تقريبًا. وأتمنى يكون كلامي هذا جاوب سؤالك، وبشكرك أنتِ وجميع المستمعين والمستمعات، وإلى لقاء آخر في الأسبوع القادم إن شاء الله.

تعزف موسيقى النهاية، بينما يلملم مصطفى أغراضه ويغادر الأستوديو.

* * * *

يوقِف مصطفى سيارته أمام البناية التي يسكن فيها، وقد قاربت الساعة على الثانية عشر ليلًا.

يخرج هاتفه من جيبه، فتظهر على الشاشة رسالة تقول: «كلِّمني قبل ما توصل البيت، ضروري جدًّا». ينظر إلى أضواء شقَّته في الطابق الثالث

فيجدها كلها مطفأة، يفتح الهاتف ويضرب رقمًا هاتفيًا من ذاكرته، ولا يكاد الهاتف يرن حتى يفتح الخط على صوت أنثوي رقيق.

- بدون سلام ولا كلام! شو هاد اللي قلته بالحلقة؟

- شو قلت؟

- هلأ أنا طلعت عشرين بالميَّة من حياتك واحتياجاتك؟ وبتقدر تستغني عني وترميني بأي وقت؟ هاي آخرتها؟

يضحك مصطفى ضحكة خفيفة:

- عرفت والله العظيم وأنا بحكي هالكلام إنك راح تسمعيه وتزعلي، لا طبعًا حبيبتي شو عشرين بالمية وستين بالمية؟ وك أنتِ قلبي، وقلب قلبي، وقلب قلب قلبه لقلبي، أنتِ بدك حدا يقولك يا لارا أنتِ شو بحياتي؟ بس يا حبيبتي هذا كلام عمومي أنا مضطر أقوله بالبرنامج وأنتِ عارفة هالشي، يعني واحدة متصلة في بتقول لي بتحب واحد متزوج، شو أقول لها؟ برافو عليك؟! خير ما عملت؟! استمري؟! ما بقدر طبعًا، لازم أعاتبها وأقول لها هيك، بس هل أنتِ نفسك كلارا عندي هيك؟ لا طبعًا، عمري أنتِ، عمري، ومع إنك مرات كثير بتكوني نصَّابة ومحتالة زي هلأ، بس بحبك، الموضوع مَش بإيدي شو أعمل؟ الله وقَّعني بحب واحدة نصَّابة.

- أنا النصَّابة؟ وك والله ما حدا بهالدنيا محتال ونصَّاب وبيَّاع كلام قدَّك! قال عشرين بالمية قال، وقال شو، يعرف الواحد شو يعطي وشو ياخذ، هاد اللي طلع معك؟ أي أنا بدِّي آخذ روحك هلأ، إي والله والله والله لو إنك قدَّامي هلأ إلَّا بأسناني آكلك!

- وأنا هيك بقول برضه، فعلًا لازم تاكليني بأسنانك، وبدون ملح، خلص تعالي هلأ خدي حقِّك ثالث ومثلَّث.

- فش! فش إلك ولا شي، العشرين بالمية تبعوني فش فيهم هيك شي، فش فيهم شي أصلًا، يا دوب حكي، ولا حتى حكي ما فيهم، قال

عشرين بالمية قال، أصلًا أنا ليش لسه قاعدة بحكي معك؟ خلص اللي بيننا كله انتهى، بكره بترجِّع لي رسائلي ودباديبي، وبترجِّع لي كمان...

يقاطع مصطفى غضبها المصطنع بإرسال قبلة لها على الهواء، ويهمس لها «اشتقت لك» فتصمت لارا فجأة، ثم تتنهَّد تنهيدة طويلة وتقول باستسلام كبير:

- والله إنَّك أنت الهوا اللي بتنفسه يا مصطفى، بحياة أغلى شي عندك بحياتك ما تتركني، والله العظيم بموت لو تركتني، وما بدي منك شي، لا خطبة ولا زواج ولا شي، وخليك مع مرتك وولادك واللي بدك إياه، بس خلي لي مطرح صغير جوًّا قلبك.

- لا مش جوًّا قلبي، أنتِ قلبي نفسه يا لارا.

تتنهَّد لارا مرة أخرى:

- حبيبي أنت، نفسي نظل نحكي للأبد، بس عارفة إنك تعبان، خلص بديش أأخرك، اطلع نام وارتاح، وبكره بنحكي.

- الله لا يحرمني منك يا رب، وتزعليش من كلامي في البرنامج، هاي ضرورات الشغل أنتِ عارفة.

- عارفة والله، الله يخلي لي إياك، خلص حبيبي روح أنت ارتاح هلأ، والصبح بس توصل الشغل ابعت لي، عشان بدي أبعت لك صباح حلو مخصوص عشانك، من صباحات زمان.

- «كانت وايت»، يلا تصبحي على خير يا قلبي.

- وأنت من أهله يا كل خير شفته بحياتي.

يغلق مصطفى الهاتف، يأخذ نفسًا طويلًا، يلغي المكالمة من سجل المكالمات، يمسح رسائلها كلها، يتأكد أنَّ كل شيء على ما يرام، يغلق الهاتف، ينزل من سيارته، ثم يتجه بخطوات ثابتة باتجاه المنزل.

تمّت

المواجهة...

يكتم الإنسان غضبه في قلبه، ويظن أنه اختفى، فيظهر فجأة في الوقت الخطأ وللأسباب الخطأ، وللناس الخطأ، الذين لا ذنب لهم فيه.

رذيلة عدم خوض المعارك في وقتها.

يومًا ما...

يومًا ما سيقف الإنسان بين يدي الله، وستُجاب كل أسئلته إجابات مقنعة وحقيقية في خمس دقائق فقط، وبعد لحظات الاستيعاب والتنهُّد، وتقليب العينين يمنة ويسرة، سيبدو السخط الذي أمضى عمره فيه شيئًا في غاية السخافة.

ميثاقًا غليظًا! (مقال)

الطرح القائل بأنَّ على الزوجة أن تظل دائمًا في أبهى حُلَّة كي لا ينظر زوجها إلى غيرها، هو طرح دنيء وسام على عدة مستويات...

لأنه وفي اللحظة التي يتم فيها عقد القران، وتوقيع الميثاق الغليظ، الأصل أن قلق المنافسة مع الآخرين على قلب الشريك ينتهي ويزول، لتحل محله سكينة التملُّك، السكينة التي ذكرها الله -عز وجل- في كتابه حين تحدث عن الزواج، بل وعدَّها هي الزواج نفسه، وبالتالي فالطرح السام السابق ذكره، يهمل جزئية السكينة هذه بالكامل، ويريد للمرأة أن تعيش عمرها على أطراف أصابعها خوفًا من أن يهجرها الشريك، وهذا خطأ جسيم لأنه يحمِّل المرأة ما لا يجب أن تحمله، عدا طبعًا عن احتمال استخدام هذا «الإهمال في المظهر» لاحقًا كتبرير للخيانة.

إخلاص الرجل لزوجته (والمرأة لزوجها) ليس منَّة من أحدهما على الآخر، وليس جائزة يومية تستحقها المرأة لو تجمَّلت، وتخسرها لو زاد وزنها قليلًا، هذا الإخلاص هو التزام تعاقدي فرضه الميثاق الغليظ، وإن كان هنالك من تجمُّلٍ تقوم به الزوجة للزوج أو الزوج للزوجة، فهو تجمُّل طوعي، ودافعه إسعاد الشريك بحبٍّ وامتنان وليس خوفًا من فقدانه.

وعليه، فالزواج الذي لا يضمن فيه الإنسان بقاء شريكه في حياته ولو خسر أطرافه الأربعة، لا يسمى زواجًا، السكينة وعدم المنافسة مع الآخرين هي شرط الزواج الوجودي، الذي لا يقوم دونه، ولا يجوز أبدًا المساس بهذا الشرط أو إهماله تحت أي مسمى، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

استمري في الكلام !

تحدَّثي، عن أي شيء، عن كلٍّ شيء، وعن اللاشيء حتَّى، المهم ألا تتوقفي عن الكلام!

لا أريد لنبع العذوبة هذا أن يتوقف، وبشكل أكبر، ترهبني تلك المواجهة الصامتة مع عينيك السحريتين.

وهم المقارنة

لا تقارن نفسك بالآخرين، ليس لأن هذا يزعجك ويؤذي مشاعرك، مشاعرك غير مهمة في الحقيقة، لكن لأن هذه المقارنة غير منطقية فعلًا.

لا تقارن نفسك بالآخرين، لأنه حتى وإن بدا لك للوهلة الأولى أن مسارك متشابه مع مساراتهم، وبالتالي يصلح للمقارنة، فإنه في الحقيقة مسار مختلف ومتفرِّد، هنالك ألف عامل وعامل يتحكمون بشكل خفي في مسارات الناس، وبلا شك أن العوامل الخفية التي تتحكم في مسارك مختلفة عن تلك التي تتحكم في مسارات الآخرين، من هنا تكون المقارنة باطلة.

المقارنة المنطقية هي تلك التي تقارن فيها بين وضعك قبل عام مثلًا، وبين وضعك الآن، هذه مقارنة منطقية، لأن العامل الأساسي -وليس الوحيد- هنا هو جهدك وعملك.

باختصار، عليك نفسك، اعمل من أجلها، وارضَ عنها أو اسخط عليها، ودَعِ الناس وما هم عليه.

أمره كله خير (مقال)

هنالك حديث غريب وملغِز وعبقري للرسول -عليه الصلاة والسلام- يقول فيه: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحدٍ إلَّا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له».

طبعًا هذا الحديث طُحِنَ وعُجِنَ وخُبِزَ ملايين المرَّات، وكرره الخطباء والوعَّاظ في باب الحث عَلى الصبر في المصائب حتى حفظه الجميع، لكنني -مع كلِّ ذلك- أعتقد أن فكرته الجوهرية لم تُمَس بشكل كافٍ بعد.

ما فعله النبي الكريم هنا ببساطة، هو أنه قلب تعريفي الخير والشر تمامًا، فما تعتقد أنت أنه خير، من رزق وأموال وزوجة وبيوت ومزارع وسيارات ونجاح وظيفي، سمَّاه النبي الكريم ببساطة «سرَّاء»، أي أشياء تسرُّك، تسعدك، كما تسعد اللعبة الطفل الصغير، لكنها بحد ذاتها ليست خيرًا أو شرًّا، هي سرَّاء فقط.

وما تعتقد أنت أنه شر، من فقر وعوز واحتياج وموت أحبة وخسارة ممتلكات ومرض، سمَّاه النبي الكريم «ضرَّاء»، أي أنها أشياء تحزنك وتكدِّرك، لكن هل هي شر أو خير؟ لا شيء، في حد ذاتها لا قيمة لها، هي مجرَّد ضرَّاء.

أين يكمن الخير والشر إذن يا رسول الله؟ أين يكمن ربح الإنسان وخسارته؟ في ذاته، في داخل ذاته وليس خارجها، يقول النبي إنَّ الخير يكون في الرضا والشكر، والشر في الكفر والسخط، أي أن ربحك وخسارتك هي أشياء متعلِّقة بذاتك أنت، وليس بما تملك أو تخسر من ماديات وبشر وعلاقات ومناصب.

لكن لماذا يقول النبي هذا الكلام؟ لماذا يخالف تعريفنا الأزلي للخير والشر؟ لأنه ببساطة رأى ما لم نرَه، وسمع ما لم نسمعه، رأى الجنة والنار، رأى نهايات الأشياء، وعرف أنه كل ما نسميه خيرًا ورزقًا الآن، فهو زائل ولا قيمة له، وكل ما نسمِّيه شرًّا الآن، فهو أيضًا زائل ولا قيمة له.

وبالتالي، ففي رؤية النبي الكريم، يكمن الخير (الربح) في الحسنات، لأنها باقية، ويكمن الشر (الخسارة) في السيئات لأنها أيضًا باقية، وهذه بالضبط هي العملة التي يتعامل بها الله -عز وجل- معنا، هكذا يتم تقييمنا في نهاية المطاف، بما في دواخلنا وليس بما نمتلكه أو نخسره.

إعادة تعريف الخير والشر هذه، هي الحل الوحيد للقلق الدنيوي الدائم الذي تعيشه، أنت تقلق لأنك تقيس حياتك بالعملة الخطأ، بالدنانير والدراهم، فإن صعدت عملتُك، عددتَ ذلك ربحًا ورضيت، وإن قلَّت عددتَ ذلك خسارة وحزنت، وبما أن الدنيا نهر مائج صعودًا ونزولًا، فلن تعرف الراحة أبدًا، لأنه بمقاييس هذه العملة، فهنالك خسارة وخوف من الخسارة بشكل يومي، لذلك ستظل دائمًا قلقًا متربصًا على مستوى عملتك الخاطئة!

أما النبي هنا (الشخص الذي رأى نهايات الأشياء) فيريحك من هذا القلق، يمنحك السكينة، ويقول لك ببساطة شديدة، يا عزيزي لا تفكر بهذه العملة، ستتعب كثيرًا، وما تحسبه خيرًا أو شرًّا سيمضي ويزول، هذا قلق مجاني وبلا قيمة، وكل هذه الأشياء من سرَّاء وضرَّاء، مؤقتة فحسب، هي فقط ظروف لامتحانك، لمعرفة ما في داخلك، هذه السَّرَّاء وَالضَّرَّاء هي أسئلة الامتحان فقط! وليست الإجابات، أي أنها في حد ذاتها لا قيمة لها، وليست خيرًا ولا شرًّا، وستُرمى في نهاية الامتحان كأي ورقة أسئلة أخرى!

أمَّا نتيجة الامتحان وما سيبقى فعلًا فيكمن في داخلك أنت، في تعاملك الحكيم مع هذه الأسئلة، هذا فقط ما سيجعل رصيدك من العملات (الحسنات) في ازدياد دائم، وسواء صعد السوق أم نزل، فأنت تكسب، أنت في خير، بالمعنى الحقيقي والدائم للخير، وبالعملة الحقيقية له.

وعجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كلَّه خير!

من قصاصاتي (11)

- عن ذلك الشيطان الذي لا ينفك يهمس في أذني، بأنَّ وعيي بالأشياء وإدراكي لها جاء متأخرًا عشر سنوات على الأقل.
- كطائرٍ علِقَ في شبكة صيَّاد، وكلَّما حاول أن يفلت منها، ورَّط نفسه أكثر، وزاد الأمر تعقيدًا، وهذه حالتي معكِ، كل محاولاتي للهروب منكِ، انتهت بالهروب إليكِ.
- الحمد لله على نعمة السرير والغطاء والسقف والجدران والباب والدفء والبصر والإدراك والقراءة والكتابة واليد والأصابع والحركة وكل نعمة أنعمت بها عليَّ، وأعمتني عن شكرها بعض المنغصات البسيطة.
- لقد انتصرتُ في كلِّ معركةٍ خضتُها، ومع ذلك، أحس بشكل أو بآخر، أنِّي قد خسِرت الحرب» هذا السطر يمثِّل تمامًا ما أشعر به الآن، كل الخطوات التي اتَّبعتها كانت صحيحة، لكن، ليس هذا أبدًا المكان الذي أردت الوصول إليه.
- تعجبني آية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [آية 131، سورة طه]. تمدَّنَّ هذه غريبة، وكأنك لطول النظر وطول التفكير تخرج عينك من مكانها وتمدُّها باتجاه ما لدى الآخرين تمنيًا للحصول على مثله.
- يومًا ما سندرك كبشر حجم الخطأ الذي ارتكبناه عندما قررنا بناء المدن، وكيف اخترنا طواعية أن نترك الحياة بين الأشجار

والحيوانات والسماء الصافية وينابيع المياه، لنتكدَّس فوق بَعضنا بعضًا في القطارات والسيارات والعلب الأسمنتية الباردة الموحشة المسمَّاة بيوتًا.

- ما شاءَ كان، لحظة صمت وتأمُّل، تذوقها وردِّدها، ما شاء كان، كل الخير الذي أراده كان، فهمته أم لم تفهمه، كان، وما لم يشأْ، لم يكن! الآنَ أغلق صفحة الماضي!
- مع أن أيَّامي تشبه بعضها بعضًا، وتمرُّ رتيبة دون تغيير يُذكَر، فإنني حين أدقق النظر، أرى أن المسافة بين ما كنته وما أصبحت عليه بعيدة جدًّا، كيف تغيَّرت كل هذا التغيير دون أن أشعر؟ يا نفسُ ما فعلت بكِ الأيَّامُ؟
- لتكون حبيبًا أو عدوًّا، ينبغي لك قبل كل شيء أن تكون ندًّا، الحب والكره وحدهما لا يكفيان، الندِّية هي الشرط الأساسي.
- مما وصف به النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- يوم الحشر قال: «ويأتي النبي وليس معه أحد»، أي لم يُؤْمن به أحد من قومه، تمسَّك برأيك ولو كنت الشخص الوحيد في العالم الذي يُؤْمن بهذا الرأي.

ثرثرة بسيطة بقرب مجموعة من الدجاجات (قصة قصيرة)

يرتكز الرجل بيديه على حاجز خشبي بسيط، بينما تقف زوجته بجانبه يراقبان مجموعة من الدجاج والصيصان التي تنبش الأرض بحثًا عن الحَبِّ.

- كتير مبسوطين الصيصان.

- أكيد، الحياة شغلة جميلة جدًّا لأي حدا مش فاهمها، رائعة ولطيفة.

- هيك قولتك؟

- طبعًا، يعني هاد الصوص مبسوط لأنه مش فاهم شي، بلعب وبروح وبيجي وإخوانه حوالين إمهم، وأكل ومي وعنده كل شي بده إياه، عشان هيك مبسوط، بس لو عرف يا ترى إنه هو عايش في مزرعة مملوكة لبشر، وإنه حياته السعيدة هاي ما هي إلا تسمين وتمهيد للذبح، بكون مبسوط فكرك؟ ما أتوقع، وحياتنا إحنا زي هيك، طول ما إحنا مش فاهمين، بنظل مبسوطين، عشان هيك أنا بس أشوف واحد بحكي الحياة حلوة وتفاؤل وإيجابية وشموع وورود، بكيِّف عليه، بعرف إنه ولا عارف وين الدنيا ووين أهلها.

- هيك يم؟ هيك طلع معك؟

- مش طلع معي، هي الحياة هيك.

- كيف يعني هيك؟!

يتنهَّد الرجل:

- أقولك شي، هلأ الحيوانات في الغابة، بعيدًا عن الدجاج هذا. كل يوم الصبح في الغابة، بتخوض تحديين أساسيين، تحدي إنهم يلاقوا أكل، وتحدي إنهم نفسهم ما يصيروا أكل، صحيح؟

- صحيح.

- إحنا البشر عشنا التحديات هاي فترة، بس تخطيناها بسرعة، لما اكتشفنا الزراعة وبنينا البيوت وصنعنا السلاح، خلص، بطَّل في داعي نصيد، لأنه صار غذائنا عنا، نزرعه أو نربِّيه، وبطَّلت الحيوانات المفترسة تأكلنا أو تهددنا، وبالتالي، كان لازم نرتاح، بس هل ارتحنا؟ لا طبعًا.

دخلنا في التحدي الكبير، اللي أصلنا إحنا مخلوقين عشانه، وهو إنه نقدر نعيش مع بَعضنا، متخيِّلة؟ يعني إحنا كبشر من القسوة بحيث الامتحان اللي ربنا حطنا فيه إنه نقدر نتحمل بعض، يعني أنت مش زي الغزال، بتاكل العشب وبتهرب من الأسد، لا، أنت معركتك مع جنسك نفسه، الضرر بيجي من ناس زيَّك، والبحث عن الرزق بكون برضه عند ناس زيَّك، هاي هي المنافسة الشرسة، وحقيقة إنه في فوارق فردية كبيرة بين الناس، بتعمل هالمنافسة أصعب وأصعب، هاد معه فلوس أكثر منك، هاي أحلى من هاي، هذا أقوى من هذا، هيك، فما في عدالة بتوزيع أدوات المنافسة، ومن هون بتيجي الصعوبة في الحياة، إنها منافسة شرسة ومستمرَّة لتحصيل الرزق والابتعاد عن الأذى بأدوات متفاوتة، فكيف بدها تكون سهلة؟ مش سهلة، مش سهلة أبدًا.

الحياة عند شخص متخرج جديد وإله سنتين بدوِّر على شغل سهلة؟ لبنت كبرت وما تزوجت سهلة؟ لشخص على كرسي متحرِّك؟ لحدا مش قادر يعالج ابنه... إلخ، عشان هيك لمَّا تسمعي حدا بقول عن الحياة حلوة وسهلة والدنيا ربيع والجو بديع اعرفي إنه في حدا في

الكواليس شايل هم الحياة عنه، حدا مجنِّبه -لأنه بحبه- إجابة الأسئلة الصعبة هاي.

فهاي كل الفكرة، وموضوع التفاوت غير العادل في الأدوات هذا، بعمل أزمة نفسية كبيرة عند الإنسان، يعني كمان مرة، إحنا مش زي الأسود كلنا عنا مخالب لا، في ناس عندها وناس ما عندها، طبعًا الدين حاول إنه يلاقي تفسيرات مقنعة لغياب العدالة هذا، بالقول إنه العدالة على الأرض منقوصة، وإنها منظومة بين الأرض والسماء... إلخ، وهي تفسيرات لها وجاهتها، ومقنعة إلى حد كبير.

لكن المعضلة إنه الإنسان بنحاز إلى حاضره ضد مستقبله، يعني بتعنيه كثير هاي الحياة الدنيا اللي شايفها وعايشها أكثر بكثير من حياة أخرى ينصب فيها ميزان العدل ومليئة بالمسرَّات... إلخ، من هذا الانحياز للحاضر في مقابل المستقبل بتلاقي السخط هذا اللي قد يقترب من الإلحاد ويلامسه في مراحل معيَّنة، لأن الإنسان كمان مش بس بنحاز لحاضره، وبنحاز لنفسه كمان، بتعز عليه نفسه، وانحيازه لنفسه هذا بكون في مقابل انحيازه للخالق، بمعنى لما يواجه الإنسان موقف صعب جدًّا عليه، بكون أمام خيارين، ينحاز لنفسه ومعاناته وسخطه، أو ينحاز لحكمة الخالق وتوزيع الأقدار والوعد بثواب الصابرين، وهون في الأغلب بنحاز الإنسان لنفسه، ومن هذا الموقف بالتحديد اجا تعريف الإسلام، أن تُسْلِم أمرك لله وتسلِّم له، فهمتِ علي؟ هذا جوهر الدين، التسليم لله في مقابل الانحياز للذات، ومن هون بتيجي فكرة إنه الإيمان نفسه كمان شيء صعب! وغير مستقر، ويمتحن ويتجدد ويتغير مع تغيُّر كل ظرف، كل دعوة للانحياز تجاه طرف ما.

لحظات من الصمت، يتخللها نقنقة للدجاج

- بتِّفق معك، الحياة صعبة، لكن برضه الأمل موجود، في إن الإنسان يطور من أدواته ويكتسب أدوات جديدة، ويحسِّن من وضعه بالحياة، بحيث يقلل المواقف اللي بتعرض فيها لاختبار الانحياز هذا.

- صحيح، بس برضه خلينا نفهم شو هو الأمل!

- شو هو الأمل؟ قول لي.

- الأمل هو رفاهية المجهول، يعني أنتِ مثلًا بتشجعي فريق معيَّن، وعندكم بطولة ذهاب وإياب، خسرتوا في الذهاب بهدفين، بتدخلوا مباراة الإياب وانتو عندكم أمل، صح؟

- صحيح، لأنه في فرصة للتعويض.

- بالزبط، لأنكم بتمتلكوا رفاهية المجهول، عندكم تسعين دقيقة مجهولين، مش معروف شو راح يصير فيهم، هذا هو الأمل، رفاهية المجهول، وكل ما مشيت المباراة بقل الأمل، لأنه بقل حجم المجهول، عشان هيك بتلاقي الشباب هم أكثر الناس أملًا، (افتراضًا يعني)، لأنه بعمرهم الصغير هم بمتلكوا أكبر قدر من المجهول، أما واحد زي حكايتي يعني، خلص ماظل عندي مجهول، اللي بدي أشوفه شفته، صفَّر الحكم وخلصنا، أمل بشو؟

- طول ما أنت بتتنفس، ما صفَّر الحكم لسَّه، لسَّه في مجهول وفِي أمل.

لحظات من الصمت، يتخللها نهدة كبيرة للرجل.

- بتِّفق معِكْ، لسَّه الحكم ما صفَّر، يمكن لسَّه في أمل.

تمَّت

الاختيار الصحيح

الموضوع ليس سحرًا ولا خداعًا ولا تلاعبًا بالكلمات، إنما الفكرة كلها تكمن في أنني لم أكن مخيَّرًا بين اليأس والأمل، وإلا لاخترت اليأس، هذا ما تقوله ظروفي وفرصي وواقعي وما أنا عليه، وهذا ما يناسب شخصيتي كإنسان.

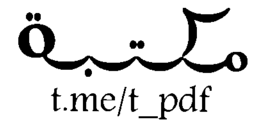
إنما كان السؤال: هل تثق بالله أم لا تثق به؟ هل لديك يقين أنه سيدبِّر الأمر بحيث تثمر مجهوداتك المتواضعة في نهاية الأمر؟ هل أنت مؤمن حقًّا أنه سيسهِّل لك الطريق؟ سيفتح لك الأبواب التي تبدو غير موجودة حتى؟! هل سيقودك من طرف خفي نحو ما ينفعك حقًّا؟! هل سيمد يده لك حين تصل إلى الحافَة؟ هل هو معك؟ وهنا كانت الإجابة نعم.

وآتى هذا اليقين ثماره فعلًا، ورأيته رأي العين مرة تلو مرة، هكذا تجاوزت الأمر، ووضعت كل تلك الأثقال عن ظهري، هكذا استطعت أن أنام.

الجاذبية

شرط الحب الأساسي هو الجاذبية، وشرط الجاذبية الأساسي هو الحضور الخفيف للروح، وشرط خفَّة الرُّوح قلَّة الكلام، ويتأتَّى هذا بشكل رئيسي من اكتفاء الإنسان نسبيًّا بنفسه عن سواها.

ولذلك، فمن ينالوا الكثير من الحب في هذه الحياة، هُم أولئك الذين لا يسعون للكثير منه، أو بمعنى أقصر وأكثر وضوحًا، ستصبح مثيرًا للإعجاب، عندما تتوقف عن محاولاتك لإثارة الإعجاب.



كيف باعتنا السلفية للنسويات؟ (مقال)

من يقرأ الإسلام من نصِّه التأسيسي الأول (القرآن الكريم)، يلاحظ ما بين السطور شيئًا جميلًا جدًّا، وهو أن الله -سبحانه وتعالى- وفيما يخص أركان الإسلام الأساسية وعباداته الكبرى، لم يمنح الدولة/ المجتمع أي سلطة تقريبًا على الأفراد.

فليس في القرآن مثلًا أي عقوبات تنظيمية لتارك الصلاة، ولا لمانع الزكاة أو مفطر رمضان أو تارك الحج، وبالتأكيد لا يوجد عقاب للمرأة التي تخلع الحجاب أو التي تقرر عدم ارتدائه أساسًا، وانعدام أي نص عقابي بهذا الخصوص، يعني بالضرورة أن الإنسان حرٌّ تمامًا (في الدنيا) في الالتزام بهذه الشعائر أو عدم الالتزام بها، ولا يمكن لا للدولة ولا للمجتمع ولا للعائلة حتى إجباره على الأمر، بالمقابل، فجميع العقوبات التي نصَّ عليها الإسلام كانت فقط في الحالة التي يؤذي بها الإنسان غيره بشكل مباشر ومقصود، وهنا منح المجتمع سلطة على الفرد، بل وجاء الخطاب مباشرة للمجتمع في آيات مثل: والزانية والزاني فاجلدوا، والسارق والسارقة فاقطعوا.

المهم، أنَّه في الوقت نفسه الذي حمى فيه الإسلام الفرد من سيطرة المجتمع والدولة عليه، وأعطاه حرِّيته هذه كاملة، فلم يتركه فريسة لأهوائه أو حكمه الشخصي على الأمور، بل ألزمه بميثاق أخلاقي خارج عن ذاته، وهو القرآن الكريم وتوصياته، أي بمعنى آخر، صحيح أيُّها الإنسان أنَّنا حررناك من سلطة الدولة والمجتمع، وجعلنا دورهم تذكيريًّا فقط ﴿فَذَكِّرۡ

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾ [آية 21، سورة الغاشية]، لكن في الوقت نفسه لا تتبع هواك يا إنسان فتردى، بل التزم بميثاقنا الأخلاقي الموجود خارج ذاتك فتنجو.

كل هذا جميل وطيب ومنطقي ومفهوم، وظل ساريًا في مجتمعاتنا الإسلامية العربية، حتى جاءت بدايات القرن الماضي ونشأت الدولة السعودية، واستلمت السلفية فيها مقاليد الأمور الدينية، ولأن السلفية كما أسلفنا تعيش في الماضي وتحاول قلب التاريخ، وفي محاولة بائسة منها لتجسيد تصوُّراتها المتخيلة عن المجتمع المسلم، ونقلها من صفحات كتب التاريخ إلى أرض الواقع، قامت أول ما قامت به، بمصادرة حرِّية الإنسان هذه التي كفلها له الله في كتابه، ولَم تقنع بدور التذكير الذي وضعه الله -عز وجل- سقفًا لنبيِّه الكريم، بل تجاوزته للعب دور الرقيب والوصي والمسيطر على الناس، وكله بهدف واحد «ظاهر» وهو بناء مجتمع مسلم قسرًا.

طبعًا نتيجة لهذا التوجُّه الذي بدأ قبل الصحوة حتى، أصبح هنالك ما يسمى بالشرطة الإسلامية، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تأسست سنة 1940 بالمناسبة، والتي لم تكتفِ فقط بمنع ومصادرة «المحرَّمات» بل وراقبت أيضًا الالتزام بتعاليم الإسلام، ففرضت العباءة والنقاب على الجميع، منعت التدخين، أقفلت المحلات وقت الصلاة، منعت سفر المرأة، فرضت الولاية، أغلقت السينمات، راقبت الأسواق، بل ووصل الأمر لوضع كشوف في المساجد لمراقبة التزام المصلِّين بصلاة الفجر، ومن عاش في السعودية في سبعينيات القرن الماضي فما فوق يعرف هذا الكلام جيدًا.

وطبعًا ساهم في انتشار هذا التيَّار، بزوغ التيارات المتشددة في باكستان وأفغانستان، وتزامن معه أيضًا انتصار الثورة الإسلامية وحكم الملالي في إيران، بالإضافة بالطبع لتمدد السلفية نفسها في بلدان أخرى

عبر التمويل ونشر الدروس وغيره، والهدف أو النتيجة (سيَّان) واحد؛ مصادرة إرادة الإنسان الحرَّة واستبدال سلطة سياسية أو مجتمعية بها في الحدِّ الأدنى، ففي دولة كمصر، حيث لم يكن من الممكن سن قوانين تجبر النساء على الحجاب وبالتالي اكتساب سلطة سياسية، تم خلق سلطة مجتمعية على الناس، وتمَّ استحضار حديث «الديوث» في غير موضعه، لوصم أهل الفتاة غير المحجبة، وتم تكرار هذا الخطاب مرارًا وتكرارًا على المنابر حتى خلق بالفعل سلطة مجتمعية أجبرت الكثيرات على الحجاب قسرًا بمجرَّد البلوغ، والأمر نفسه لم يحدث مع الصلاة مثلًا وهي أهم دينيًّا من الحجاب، فبحسب السلفية الأب الذي لا ترتدي ابنته الحجاب يكون ديوثًا، لكن ذلك الذي لا تصلي ابنته أو ابنه، فلا يُعَد كذلك، مع التأكيد طبعًا أن هذا لا ينفي بالطبع أنَّ نسبة كبيرة من الفتيات قد تحجَّبت طوعًا والتزامًا بتعاليم الإسلام، أو أن من أولئك اللواتي قد تحجَّبن قسرًا اقتنعن بالحجاب فيما بعد.

المهم، لأنَّ سنَّة الله في خلقه، أنَّ الزبد لا يمكث في الأرض، ولأن التوجه السلفي يعاكس توجُّهات القرآن نفسه وطبيعة الإنسان نفسه، فمع تغير توجهات الدولة السعودية وسحبها لسلطات السلفيين، نبذ الناس هذا الفكر تمامًا وراء ظهورهم، بل وصار مدعاة للسخرية والتندر واستذكار الماضي ببؤس ولعنات، لكن هذا التغيير جاء متأخرًا قليلًا، وتركت السلفية أثرين مهمَّين نعيشهما ونتعايش معهما بشكل يومي.

الأول هو أنَّه حتى مع انهيار سلطة الفكر السلفي وتبرؤ رموزه منه، فإن السلطة المجتمعية التي خلقها ذلك الفكر لا تزال باقية بشكل كبير، داخل وخارج السعودية (دولة المركز)، فلا يزال الوصم المجتمعي والتمييز الجنسي موجودًا ضد الإناث بشكل خاص في الكثير من الأسر العربية، وهو ما عبَّرت عنه فتاة سعودية بقولها: «بماذا تفيدني السعودية الجديدة وأهلي ما زالوا تحت الفكر القديم؟».

الأثر الثاني والأهم هو أنَّ السلفية لم تنتهِ قبل أن تسلِّم المجتمعات الرافضة لها لسطوة التيَّارات الفكرية الإنسانوية كالنسويَّة وغيرها، وهي

تيَّارات نجحت لأنَّها أعادت للإنسان حرِّيته التي وهبها له الله وسلبتها منه السلفية، وهذه نقطة تُحسَب لها حقيقة بغض النظر عن الدافع، لكن مشكلتها الأكبر أنَّها لم تكتفِ فقط برد هذه الحرية للإنسان، لكنَّها مشت خطوة إضافية ثانية، بأن حررته أيضًا من أي نظام أخلاقي فكري خارج عن نوازع ذاته.

التيارات الفكرية الإنسانوية الجديدة التي تنتشر بين الشباب العربي الآن ونرى آثارها واضحة في خطاباتهم، تقدِّس الإنسان حرفيًّا، بل وتعبده، وردُّها الوحيد على أي خطاب أخلاقي هو الإحالة إلى حرية الإنسان، بحيث يصبح الحكم الأخلاقي في أي مسألة هو قرار الإنسان نفسه، فإن أراد فعل الشيء كان الشيء طيِّبًا ومقبولًا، وإن رفضه كان الشيء سيئًا ومذمومًا، (الشذوذ كمثال) دون الرجوع لأي مرجعية أخلاقية خارجية، أي أن الحركات الإنسانوية التي تقودها النسوية، لم تكتفِ بحرية الممارسة للإنسان التي ضمنها له الإسلام مع إلزامه فكريًّا بنظام أخلاقي وعواقب أخروية، بل حررته من سلطة الدولة والمجتمع ومن سلطة أي نظام أخلاقي أو دين، أي أنه لا وجود لمفهوم الله هنا، الإنسان هنا هو رب نفسه، وهو من يحلِّل ويحرِّم لنفسه وعلى نفسه ما شاء.

باختصار، السلفية انتهت، لكن فكر «إلهه هواه» هذا الذي ينتشر الآن وبقوة بين المراهقين والمراهقات ستكون له عواقب وخيمة على الجميع، تفوق في أثرها ربَّما ما فعلته السلفية، وبنظرة تحليلية بسيطة تستطيع أن تراه بوضوح واقفًا خلف أي نقاش اجتماعي يدور اليوم من حولك أيًّا كان موضوعه.

والمشكلة الأكبر أنَّك لا تستطيع أن تحاجج هؤلاء الناس أبدًا، لأنَّ الواحد منهم لا يستند إلى أي منطق أو مصدر ثابت يمكن أن تحيله إليه سوى نزواته، أريد ولا أريد، فالمعركة محسومة سلفًا، وقال الله نفسه هذا الكلام: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الفرقان].

أشكو إليك

إنَّما أشكو بثِّي وحزني إليك، ليس فقط لقدرتك المطلقة، ولا لكونك الوحيد القادر على محو هذا الحزن من جذوره، لكن وبشكل أساسي، كونك الوحيد الذي يعلم وبدقة، كيف حدث هذا الشيء كله، وكيف آلت الأمور إلى ما آلت إليه.

لأنه وخلال هذا المشوار الطويل القلِق، أنت من كان معي خطوة بخطوة، ونفسًا بنفس، وتعلم جيدًا أنني بذلت كل ما في وسعي، ضمن حدود معرفتي وقدراتي لينجح الأمر، ومع ذلك لم ينجح، ستفهم أنت ذلك ولن يفهمه الناس.

لهذا تحديدًا أشكو إليك أنت، لأنه لا حاجة لي أمامك للشرح المستفيض المؤلم، ولا سَوق الأدلة والتبريرات المعرَّضة للتشكيك، ولأنك ستفهم كل ما في قلبي، سواء ما نطقه لساني، أو ما حبسته الدموع.

ولأني أعلم منك ما لا يعلمه الناس، أشكو بثِّي وحزني وما أنت أعلم به مني، إليك، فلا تردني خائبًا يا الله.

النظر بعين الإله

كبشر، غالبًا ما يكون لدينا نوع من المبالغة والتضخيم في قيمة الأشياء التي لم نحصل عليها، أو بشكل أدق، مبالغة في السعادة المتخيَّلة التي كنا سنعيشها لو حصلنا على تلك الأشياء، بالمقابل، لدينا نوع من الزهد والتقليل من قيمة الأشياء الرائعة الموجودة لدينا بالفعل، زهد يلامس

اللامبالاة بوجودها، وعدِّها شيئًا عاديًّا لا يستدعي الذكر.

لذلك فإن نظرت إلى الناس بعين الإله (تعبير مجازي يدلُّ على شمول النظر)، ستكتشف أنه وباختلافات بسيطة، فإنَّ الجميع يمتلك تقريبًا ذات القدر من السعادة الحقيقية (دعك من المتخيَّلة)، إنما بسبب ما سبق ذكره من تصوُّرات، فانعدام الرضا بالموجود، ومدُّ العين إلى ما يملكه الآخرون هو الشعور السائد.

الجميع متساوون تقريبًا في النِّعم، لكن كل شخص فيهم يحس أنه أكثر بؤسًا من الآخرين.

الوعي (مقال)

من الرياضات العقلية الممتعة التي أمارسها بين الحين والآخر، رياضة أن أعيد رسم ماضي حياتي في خيالي، مضيفًا إلى ذلك الماضي «الحزين» كل ما أعتقد أن القدر كان بخيلًا عليَّ فيه، ونقصني في مرحلة ما، وأستبعد منه كل ما نغَّص علي في مرحلة ما، وتمنَّيت لو عشت دونه.

في البداية، كان كل ما أضيفه أو أستبعده في ذلك الماضي يتلخص في أمور مادية، أن أكون أطول قليلًا، أنحف ببضعة كيلوغرامات، أعين أوسع، عضلات أكبر، فقر أقل، نقود أكثر، وغير ذلك الكثير مما يرغب فيه الإنسان عادة أو يمقته في نفسه، ولا أزال أضيف إلى لوحة الماضي شيئًا صغيرًا هنا، وألغي شيئًا بسيطًا هناك، حتى تصبح اللوحة غاية في الروعة، فأستمتع بها في خيالي ما شاء الله لي أن أستمتع، ثم أختم تلك الرحلة العقلية الممتعة بتنهيدة أقول فيها لنفسي: «آه لو أنني عشت تلك الحياة، لكنت سعيدًا فعلًا ولكان كل شيء حولي الآن قد اختلف».

مؤخرًا، ومع تكرار تلك اللعبة اكتشفت أمرًا مهمًّا جدًّا، وهو أن كل تلك الإضافات والاستبعادات ليست مهمَّة حقًّا، ولَم تكن قط هي الأساس، ولا العائق في سبيل سعادتي المتخيَّلة، وأن شيئًا أساسيًّا واحدًا فقط ربما كان ينقصني، ألا وهو القليل من الوعي.

لذلك قررت أن ألعب لعبتي تلك بشكل مختلف، وهذه المرة بإضافة الوعي فقط، دون تغيير أي معطى آخر، ودُهِشتُ حين اكتشفت أنه حتى ببقاء نفس الأحداث ونفس المعطيات، كانت حياتي لتختلف جذريًّا

باختلاف الوعي فقط، وأن الشيء المهم حقًّا لم يكن الحدث، بل رد فعلي على الحدث، والطريقة التي أتعاطى بها معه، واكتشفت كذلك أن كثيرًا من الأشياء التي طالما أرهقتني، إنَّما فعلَت ذلك لقلة وعيي آنذاك، وأنني لو امتلكت ربع ما أمتلكه من وعي الآن، لما فكرتُ فيها لربع ساعة حتى، وأن كثيرًا من الأشياء التي حلمت بفعلها وامتلاكها آنذاك، والتي بدت حينها بعيدة ككوكب في السماء، كانت بالفعل بين يدي أو لنقل قريبة مني إلى حدٍّ كبير، بل إن كثيرًا من الأشياء التي طالما تمنيتها وظننت سعادتي كلها مخبوءة فيها، لم تكن فعلًا بتلك الأهمية، لقد تراجعت قيمتها كثيرًا في وجود الوعي، وهكذا، وبإضافة مكون الوعي فقط إلى لوحة الماضي، أضحت حياتي المتخيَّلة أفضل كثيرًا وحتى أكثر واقعية من النسخة القديمة، وامتد تأثير هذا الإدراك العظيم إلى حياتي التي أعيشها الآن.

الآن أدرك أن الوعي هو أهم ما يمكن لإنسان على هذه الأرض أن يمتلكه، هو النور الذي يضيء لك الطريق، النار التي تشعل كل قدراتك لعمل أي شيء تريده، الدرع الذي يمكِّنك من التصدي لكل ما قد يحزنك، من داخل نفسك أو خارجها، الفضول المعرفي الذي يدفعك لتعلُّم الأشياء وعملها، الميزان الذي يساعدك في تنظيم حياتك وتنسيقها وتحديد أهدافها، الوعي، ولا شيء سواه، هو كل ما كنت أحتاج إليه.

ولذلك أقول الآن إن أغلى هدية يمكن أن تقدمها لإنسان يهمك، تكمن في منحه المزيد من الوعي، ولا تقلق بشأنه بعدها، سيتكفَّل ذلك الوعي بكل معاركه، لأن سر الحياة على ما يبدو، أن المهم فعليًّا ليس ما نواجهه، بل كيف نواجهه، نحن، وليس الآخر، مهما كان ذلك الآخر، ولو كان الدنيا كلها.

عابر سبيل

يدهشني الحديث الشريف «كن في الدنيا كعابر سبيل».

فكِّر فيها قليلًا، عابر سبيل، جاء من مكان آخر، ويمر من هنا مرورًا فقط، لا يمتلك هنا شيئًا، غريبٌ لا يعرف أحدًا، بعضه هنا فقط، خياله، صورة من ملامحه سرعان ما تُنسى، لكن روحه، وقلبه، وعقله، ومستقر خطواته ومنتهاها، في مكان آخر سحري بعيد، هناك تناخ راحلته، هناك يترجَّل الغريب، وهناك ينام، أمَّا الآن فهو مجرد مسافر غريب، مرَّ بالمكان في لحظة من زمان، ثم غاب.

لكم أتمنى أن يغمر هذا الشعور العظيم قلبي، وأن تملأ خفَّة الغريب هذه روحي وعظمي وعصبي، أن أمشي على الأرض دون أن أطأها، أن أنظر إلى الأشياء دون أن أتمناها، أن تحكمني هذه الفلسفة في كل صراع أخوضه، وأن أذكِّر نفسي كل يوم أنني لست سوى عابر سبيل؛ مؤقت، لحظي، عابر كنسمة عابرة، تحملها الريح قليلًا، ثم لا تلبث أن تزول.

استدراك مهم

على الرغم من اعتزازي الشديد بقدرتي العظيمة على الصمود في وجه العواطف، وعلى الرغم من اختياري دائمًا وأبدًا العقلانية على المشاعر، والنضج عَلى الصبيانية، ومع إدراكي التام والمميز والفريد لألاعيب الهوى وخدعه وأوهامه، وإيماني الراسخ والمطلق أن هذه كلها هي مجرد أخيلة وتصوُّرات، وأمور ينبغي للرجل الحصيف أن يكبحها ويسيطر عليها ويعمل بعكسها...

فإنني اشتقت إليكِ.

من قصاصاتي (12)

- هوسان يجب أن تتخلص منهما:

هوس إخبار الناس بما يجب فعله أو ما لا يجب فعله.

هوس إخبار الناس بأن ما فعلوه كان خاطئًا.

تعلَّم الاستمتاع بمراقبة الحياة، دون تقمُّص دور المعلِّم.

- واحدة من أرق آيات القرآن تتحدث عن الكلام اليومي الذي نقوله، الأحرف والأصوات، تقول أنت مثلًا بعض الكلمات الطيبة لشخص ما، فتفرِحه، يبتسم وتبتسم وينتهي الموقف بالنسبة إليكما، لكن الأمر فعليًّا لا ينتهي، أحرفك البسيطة هذه تعبر السموات وصولًا إلى الله، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [آية 10، سورة فاطر].

- علَّ أجمل لحظات سعادة الإنسان، هي تلك التي لم يرغب في أن يشاركه فيها أحد، ولعلَّ أثقل لحظات حزنه، هي تلك التي لم يشهد عليها أحد، الجزء الذي تراه من الناس لا يمثلهم، إنه فقط الجزء الذي شاؤوا أن يشاركوه.

- الحالة الوحيدة التي يمكن للإنسان فيها أن ينجو من وجود أعداء له، هي ألا يكون له رأي في أي شيء، أن يكون مجرَّد شجرة مثلًا، أو صخرة، أو كرسي خشبي في حديقة، في اللحظة التي تخلق فيها رأيك الأول، تبدأ بتخليق أعدائك.

- إن الهراوات يمكن لها أَن تكسر العظم أو تمزِّق اللحم، لكنها مهما بلغت من قسوة وعنف، فلا يمكن لها أن تكسر إرادة الإنسان، ذلك

أن إرادة الإنسان مخبوءة بعناية في صدره، حيث لا يمكن لأحد أن يمسَّها، آمنة وخالدة ومشتعلة وباقية حيث وضعها الله!

- صورتي الثابتة في مخيلتك صناعتك أنت، لكنني متغيِّر، أتغير في اليوم الواحد عشرات المرَّات، لا ثبات لشيء في داخلي، أفكاري الأساسية نفسها أو ما يمكنك تسميتها ثوابتي، ترقص في مهبٍّ الريح، هذا ما يخلق حيرتك، لكن هذا أنا، ولقد تجاوزت رغبتي في أن أكون ذاتي، رغبتي في إرضائك.
- لا يُقاس عمر الإنسان بعدد أولئك الذين يلتقيهم، بل بعدد أولئك الذين يودِّعهم، تُطوى أيَّام الإنسان في كل مرة يقف فيها أمام شخص ما، ينظر في عينيه وهو يعرف أنها المرة الأخيرة التي سيراه فيها، يبتسم ابتسامة حائرة، ثم يمضي، هكذا يراكم العمر، وهكذا تبدو البدايات بعيدة، هكذا نكبر.
- لقد خسرت الكثير من الأشياء، لا لسبب، إلَّا لأنني كنت خائفًا جدًّا من خسارتها، الطريقة التي تصرَّفتُ بها تحت تأثير ذلك الخوف، كانت هي السبب، الآن تعلَّمت أن ما هو مقدورٌ لك، فهو لك لا محالة، فتراني أطلب الأشياء بهدوء الواثق، أو أودِّعها بابتسامة.

كاظم (قصة قصيرة)

غرفة جلوس فارهة في شقة سكنية في أحد الأحياء الرَّاقية لمدينة عمَّان، يجلس الأب الخمسيني على إحدى الأرائك مرتديًا ملابس بيتية خفيفة ويقلِّب صفحات جريدته، بينما تجلس الأم على الأريكة المقابلة وهي تقلِّب في هاتفها، بينما تشير الساعة المعلَّقة على الحائط إلى الرابعة عصرًا، فجأة تندفع فتاة عشرينية غاضبة من إحدى الممرات باتجاه غرفة المعيشة وتظهر خلفها أختها الصغرى وهي تبتسم ابتسامة ماكرة.

تقف الفتاة أمام أبيها مباشرة وتنظر إليه بعينين مصعوقتين وتقول بصوت مرتعش:

- بابا! أنت ما عزمت عمو كاظم على خطبتي زي ما لينا بتقول؟ صح؟ لينا كذَّابة؟ صح؟ مشان الله قول لي إنك ما عزمته؟!

يرفع الأب نظارته الطبية عن عينيه، يحدق إلى ابنته التي تنتظر جوابه بفارغ الصبر، تلوح منه نظرة باتجاه أختها الواقفة خلفها فترفع حاجبيها وتميل رأسها وهي تبتسم ابتسامة المغلوب على أمره. يتنهَّد، ثم يجيب ابنته بصوت متعَب:

- أنا عارف بشو عم تفكري يا بابا، وأنا شخصيًّا والله ما بدِّي إياه يجي، بس ما لازم ننسى إنه هاد عمِّك بعد كل حساب، وأخوي الوحيد، وإذا ما عزمته، ما راح يمشي الموضوع بسهولة هيك، لكن أنا بوعدك...

تضع الفتاة يديها على فمها غير مصدقة لما سمعته للتو، وتبدأ بأخذ أنفاس متلاحقة وهي تتراجع إلى الوراء، ثم تنفجر مقاطعة كلام أبيها:

- أوه ماي جود! أوه ماي جود! أوه ماي فريكن جود!

تنسحب نحو غرفتها وهي تسب وتشتم بالإنجليزية وتتبعها أختها ضاحكة، ينظر الأب حائرًا نحو الأم التي تنظر إليه بعتب.

- الله يصلحك يا عبد الله، يعني أنت ناسي المشكلة اللي عملها أخوك في عرس أحمد؟ ليش هيك بتعمل؟ بدك تخرب خطبتها للبنت يعني؟

- ولا بدي أخرب خطبتها ولا شي، أنا بحكي معه لكاظم قبل العرس وبنبِّهه، وهو صحيح يعني عصبي شوي، بس قلبه طيب وبحبِّني، بحبِّني كثير.

* * * *

غرفة مكتب متواضعة جدًّا في شركة للمقاولات، بلاط بلدي وجدران صفراء شاحبة، أمام المكتب الحديدي طقم أرائك من الجلد الأسود الرخيص يجلس عليها رجلان في أوائل الخمسينيات، وعلى طاولة المنتصف الزجاجية الموضوعة أمامهما لوحة هندسية لمبنيين متجاورين ومنفضة سجائر معدنية مثلثة.

يشعل أحدهما سيجارة ويقول:

- أنت طبعًا فهِّمت صاحب الإسكان إنه أنا راح أشتغل عمارة وأنت عمارة؟

- قلت له يا زلمة أكيد والزلمة موافق، قلت له أنا راح أشتغل بناية وأبو رياض بناية، وصبحي بشتغل لنا الكهربا، وكاظم الصحِّي، وخلصت فكت، أربع شهور بتكون...

يقاطعه الرجل ضاربًا جبهته بيده وهو يقول:

- مين كاظم؟ ما غيره؟ لا حول ولا قوَّة إلّا بالله! يعني من كل مواسرجيَّة عمَّان، ما لقيت غير هالشرَّاني يجي يشتغل معنا؟ يا زلمة راح تدمرنا هيك يا صفوان! والله راح تدمرنا!

- ما في دمار ولا شي يا أبو رياض، أنا عارف إنك ما بتحب تشتغل معه، بس يعني شو بدنا نسوي، أبو ليلى طلبه بالاسم، نقول له لأ؟ بدناش نشتغل مع كاظم؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عمِّي أنا طلَّعني من القصة هاي كلها، أنا الشغل اللي فيه كاظم ما بدِّي إياه، لو بده يجيب لي مليون دينار.

- استهدى بالله يا أبو رياض، استهدى بالله، بتنحل يا زلمة، شو مالك؟ وهو يعني صحيح كاظم عصبي شوي، بس قلبه طيِّب والله، وإلك عليَّ أحكي معه وأخلِّيه يروق هالمرة، الزلمة صاحبي من زمان وبحبني، بحبني كثير.

* * * *

مطبخ قديم في أحد بيوت عمَّان الشرقية، تشير ساعة قديمة معلَّقة على حائط سيراميكي باهت تنقصه بعض البلاطات إلى تمام السادسة والنصف، بينما تشير العتمة الظاهرة من النافذة إلى أنَّ الوقت مساء، تجلس سيدة أربعينية على كرسي بلاستيكي بني اللون مرتدية يانس الصلاة، وبينما تقوم بتنقية بعض الفريكة الموضوعة على الطاولة أمامها، تشاهد في الوقت نفسه مسلسلًا رومانسيًّا تركيًّا يعرض على هاتفها الذي تثبته أمامها بشكل أفقي مستندًا إلى قارورة ماء، تسمع صوت خطوات تقترب منها، فتقوم بإغلاق الهاتف وتنظر باتجاه باب المطبخ المفتوح.

عند الباب، يظهر كاظم، رجل في أواسط الأربعين، ببنية قوية وملامح حادَّة، ولم يفلح شعر رأسه وذقنه المهمَلان واللذان يتناثر فيهما الشيب في إخفاء وسامته أو ما تبقَّى منها، يظهر مرتديًا شورتًا من الجينز الأزرق المتسخ وفانيلا قطنية سوداء بلا أكمام، وتتدلى من رقبته قلادة رفيعة من الكتَّان الأسود معلَّق بآخرها ناب عاجِّي كبير، يبدو أنَّه لحيوانٍ مفترس ما.

يبدو كاظم وكأنه لم يستيقظ تمامًا بعد، فيبدأ بهرش ذقنه وتحت أذنه بيده اليمنى، ثم يهرش كتلة من الشعر الأبيض والأسود تطل من فتحة فانيلته وهو يتثاءب. تقول زوجته له بهدوء:

- صح النوم.

ينظر بعينين نصف مغلقتين نحوها باستغراب، ثم يهز رأسه علامة الموافقة على ما سمع دون أن ينبس ببنت شفة، يتجه نحو الثلاجة، يخرِج كيسًا من الخبز، وصحنًا من الجبنة البيضاء المالحة، يبحث قليلًا داخل الثلاجة ثم يخرِج علبة من البيرة الباردة كانت داخل كيس ورقي بني اللون، يضع كل ما أخرجه على الطاولة، ثم يجلس إليها وهو لا يزال مكفهر الوجه، يبدأ بقطع لقمة كبيرة من الخبز البارد، يضع بداخلها قطعة صغيرة من الجبن، يقذف اللقمة في فمه، يمضغها على مهل ثم يشرب جرعة كبيرة من البيرة، بينما تقول زوجته:

- اتصل أخوك عبد الله وأنت نايم.

لا يبدو على الرجل المنغمس في طعامه أي رد فعل على كلام زوجته، لا ينظر نحوها حتى، فتُكمِل:

- قال لي إنه عايزك بموضوع مهم، وبده تتصل فيه بس تصحى.

يشتم الرجل بكل هدوء، ودون حتى أن يرفع رأسه عن طعامه.

ترفع الزوجة حاجبيها وهي مصدومة مما قال. تصمت قليلًا بينما يكمِل الرجل طعامه، ثم تقول بصوت هادئ وكأنها تفرِغ كل ما في جعبتها:

- وصفوان كمان اتصل، قال عنده شغل إلك.

يشتمه هو الآخر بذات اللامبالاة.

تصمت الزوجة تمامًا، يسكب كاظم آخر ما بقي من علبة البيرة في جوفه، ثم يسحق العلبة المعدنية بيده ويضعها بعنف على الطاولة، يتجشأ ويشعل سيجارة، يأخذ نفسين عميقين من سيجارته، ينظر نحو فتافيت الخبز والجبنة التي تتناثر أمامه، ثم يقول لزوجته وكأنما يخبرها باكتشاف مهم:

- عارفة يا سناء مين اخترع الجبنة البيضا المالحة هاي؟ يعني براءة الاختراع الشيطاني هذا بترجع لمين؟

تمر فترة صمت وجيزة، ثم تجيب الزوجة:

- لمين؟

ينظر الرجل باتجاه زوجته لأول مرة، ويقول بصوت جدي وهو يحرِّك يده التي يمسك بها السيجارة، وكأنَّما يشرح درسًا في الفيزياء:

- جدودنا، الفلاحين الفلسطينية الأوغاد، هذا الاختراع البخيل هو مساهمتهم في الحضارة الإنسانية، خلطوا شوال ملح مع كاستين حليب وسموا الناتج جبنة، وعدُّوا حالهم هيك حلُّوا معضلة الشبع، إنه لو أنت جوعان، بتقوم بتوكل لك رغيفين خبز مع رقاقة صغيرة من المزيج الشيطاني المالح هذا اللي اسمه جبنة، لو أكلت أكثر من رقاقة بتموت من العطش، فبتشبع بأقل التكاليف، واسمك بالآخر يعني أكلت جبنة، مش خبز حاف.

تبتسم زوجته من كلامه، فيكمل بنبرة متقطعة:

- بس ما حدا في جدودنا العظماء هذول فكَّر كم تنك بيرة راح يلزم حفيدهم كاظم بعد هيك وجبة، هاي خسارات ثانوية بالنسبة إلهم، ما فكَّروا فيها، مش مهمة!

تضحك زوجته من كلامه، وتقول بصوت حنون، وهي لا تزال تنقب الفريكة:

- الله يهديك يا كاظم.

* * * *

فتاة عشرينية هادئة الجمال تجلس في مقهى، وأمامها فنجانان من القهوة التركية، تنقر بإصبعها على الطاولة الخشبية بملل، بينما تمرر يدها اليسرى على شعرها القصير الشبيه بشعر صبي، يظهر رفيقها أخيرًا وهو خارج من دورة المياه، شاب طويل القامة ممشوق الجسد، أكبر منها قليلًا، وتبدو عليه الصلابة واللامبالاة في آنٍ واحد.

- تأخرت كتير حمودي، بردت القهوة!

يجلس الشاب إلى الطاولة وهو يضحك، ويقول وهو ينشف يديه:

- هسه صار اسمي حمودي؟

- آه حمودي، يا أخي أنا هيك بحب أسميك، حرَّة أنا، المهم ليش تأخرت؟ كل هاد بتغسل إيديك؟

- هاد يا ستي، مبارح كان عنا عزومة لنسايب أخوي عبد الله، وإمي الله يصلحها أصرِّت تعمل فوارغ وكرشات، فاضطريت أساعدها بالتنظيف، وعلقت الريحة بأصابعي، من مبارح لهسَّه وأنا بغسل فيهم ولسه الريحة ما راحت.

- لهلأ؟

يشم أصابعه مرة أخرى للتأكد.

- آه والله، تخيلي.

تضحك الفتاة.

- يييييي طيب شو بدَّك تعمل؟

- ولا شي، عملت كل شي ممكن ينعمل وعالفاضي، فش حل غير أقطعهم وأستنى للصيف ليردوا ينبتوا كمان مرة!

تضحك الفتاة ملء شدقيها، وتنظر له بحب شديد، وتقول بصوت لا يزال فيه رنين الضحك:

- طيب المهم يا سيدي، هاد مبارح وصلتني الرسالة اللي قلت لك كنت بستناها، بخصوص الامتحان اللي كنت قدمته، متذكر؟

- آه كأنك قلتي لي على شي زي هيك.

- كأني قلت لك؟ المهم.

تصمت الفتاة ثم تقول بلهجة احتفالية إعلانية:

- قبلوني في تخصص الجراحة، فأنت قاعد هلأ مع الجرَّاحة المستقبلية الألمعية مرح الخيَّاط.

- أوووووه! مبروك مبروك دكتورة جرَّاحة مرح الخياط.

تضحك مرح، وتمسك سكينًا من على الطاولة بيدها وتؤشر عليه بها كتخويف طفولي، وتقول محاولةً جعله مخيفًا:

- الله يبارك فيك يا عمري.

يأخذ نفسًا عميقًا ويقول:

- معنى هذا الكلام إنك بدك تطلعي على أيرلندا؟

- بالزبط، بس مش هلأ، بشهر 9 الجاي، ومش طالعة لحالي، طالعة أنا وجوزي، حمّودي باشا الحوت.

- آها، وكيف بدها تصير بالله هاي؟ إنه كيف بدنا نتجوز من هون لشهر 9؟

- سهلة حبيبي، زي ما كل الناس بعملوا، أوَّل شي بتخلص حضرتك ماراثون الهندسة تبعك هاد بشهر 6، وبتجيب شهادتك، وبتيجي أنت وخالتو وبتطلبوني من أبوي، أولها يمكن نغلبكم شوي، ونقول والله البنت بدها تكمل دراستها، والشاب شكله مشكلجي ومش ولا بد يعني، بس انتو ما تيأسوا، عادي، حاولوا أكتر من مرَّة، آخرتنا راح نوافق، على مضض يعني، بس راح نوافق.

- على مضض قلتي لي؟

- آه، على مضض، ولا تفكرني ميتة عليك. المهم بس نوافق، بتجيب ناس كبار من عيلتك وبتيجوا تطلبوني رسمي، جاهة كبيرة هيك، كلها ختايرة مقدرين كبَّارية.

- ختايرة بدك؟ بنجيب لك خالي جمعة، مختار بيت محسير في المهجر والشتات.

- منيح، بس أهم شي يكون كبير بالعمر.

- قال كبير بالعمر! خالي جمعة يا آنسة شهد على صلح الحديبية.

- آه، ممتاز، جيبه لكان، وبيجي المأذون، بقول لي، شو رأيك يا بنتي بهالشاب؟ طالب إيدك على سنة الله ورسوله، بس أنا بصراحة ما

بنصحك فيه، يعني بتلاقي أحسن منه، شو قلتِ؟ بقول له موافقة يا سيدي الشيخ وأمري لله، شو بدي أسوي؟ مجبورة، بحب واحد ثاني بس أهلي جبروني، اهىء اهىء.

يضحك الشاب، ويمسك زجاجة الماء على الطاولة ويهم برشقها بها، تضحك هي، وتمسك يده الضخمة بيديها الاثنتين الصغيرتين وعيناها يغمرانه بالحب، وتقول بصوت يخرج من روحها نفسها:

- أنت حياتي كلها، وراح نتزوج بشهر تسعة يعني راح نتزوج.

* * * *

يتثاءب كاظم مجددًا، ثم يفتح عينيه على اتساعهما أخيرًا، ويقول لزوجته:

- شو وين مالك؟ مش سامع له حس.

- راح يصلي المغرب في المسجد، مع ولاد الشيخ رضا.

يقلب كاظم عينيه تعجبًا:

- همممم، يعني فوق ما الولد درويش بدك تدروشيه بزيادة؟ الولد اللي طلعت فيه من الدنيا يا سناء، هيك بدك تعملي فيه؟

- هلأ اللي بصلوا دراويش يا كاظم؟

- لا طبعًا، اللي بصلُّوا بطلعوا علماء ذرَّة، وخبراء في ناسا.

تمتعض زوجته من تعليقه، لكنَّها تكمل وهي لا تزال تنقي الفريكة:

- الولد مبسوط كاظم، خليه، مش مأثر عليك بشي.

في هذه الأثناء، يدخل طفل في الثامنة من عمره إلى المنزل، يشبه كاظم كثيرًا لكن تبدو عليه علامات البراءة الشديدة، وفي اللحظة التي يرى أباه فيها، يقفز في حضنه، يحتضن كاظم طفله بحب شديد.

- شو وين كنت يا شرير؟

- رحنا على المسجد بابا، البيت تبع الله يعني، بس الله ما كان موجود، كثير كان نفسي أشوفه، كثير.

يضحك كاظم من براءة ابنه.

- مهو عشان رحتوا بدون موعد، المرة الجاي احكي للشيخ رضا ياخد لكم موعد، وأكيد الله بستناكم وبكون موجود.

- عن جد بابا؟ عن جد؟

- آه طبعًا عن جد، الله بحب الولاد الشاطرين اللي زيك كثير، أصلًا هو بحبش غيرهم.

يفرح الولد كثيرًا، ويداعب كاظم ابنه، قبل أن يسأل زوجته:

- كأنه حرارته مرتفعة الولد؟

- لسَّه عنده حرارة؟ بس رجع من المدرسة أعطيته خافض حرارة ونام، فكَّرت إنه خلص، يي علينا، هذا بغلي الولد يا كاظم!

* * * *

مرح مع حمودي مجددًا، لكن هذه المرة يجلسان على رصيف شارع محوط بالشجر في حرم الجامعة الأردنية.

- قرأته الخطاب كله، بس قبل ما أقول لك رأيي فيه، بدي أسألك ليش؟ مهي العلَّة قبل الكيفية، فليش بدك تلقي خطاب زي هيك هلأ؟ بالتوقيت هادا بالذات.

- كيف يعني ليش؟ أنت بتحكي كأنك مبارح بتعرفيني!

- مش هيك، عارفة دوافعك طبعًا، بس الفكرة إنه كلها كم شهر وبنسافر من هون، والله بعلم نرجع نستقر هون مرة ثانية ولا لأ، فليش بدك هلأ تخاطر بحياتك وحياتنا ومستقبلنا عشان خطاب؟

- بخصوص مستقبلنا فما راح يصير علي ولا على مستقبلنا شي، مش راح أنحبس يعني، بطلت الأمور زي زمان، هلأ في شي اسمه ديمقراطية، ولو شكلية، إنَّما موجودة، يعني آخر شي ممكن يعملوا لي إياه هو شدة ذان، يوم يومين في المخابرات وبطلع، بس بكون حكيت اللي بدي إياه، وبريت ذمتي قدام التاريخ والوطن.

- برضه ما جاوبت على سؤالي، ليش؟ لمصلحة مين المخاطرة هاي؟

- كيف يعني لمصلحة مين؟ أنتِ مش شايفة الدنيا كيف ماشية حوالينا؟ والله يا مرح الطبقة الوسطى إلا تُسحَق سحق بعد هيك قانون، وحتى لو اتفقت معك إنه إحنا طالعين على أوروبا ومش راح يأثر علينا الموضوع، شو بالنسبة للناس اللي راح يظلوا هون؟ والله الأكل ما يلاقوا ياكلوه، وغير بدفعوا على الصحة والعلاج زي ما السايح بدفع بالزبط.

- طيِّب، بس الناس اللي راح يظلوا هون مسؤولين عن حالهم، أنت مش مَسؤول عنهم.

- مَسؤول أوعيهم على الأقل بالشي اللي بعرفه واللي لازم هما كمان يعرفوه عشان تتغير ظروفهم.

- حبيبي، أول شي أنت ما بتوعيهم، الناس اللي هدفك توعيهم ما راح يحضروا، اللي بحضروا محاضرتك ناس زيك، وناس بتترصَّد لك، وثانيًا وهو الأهم، إنه أنا عارفة ومدركة إنه العمل السياسي مش تجارة، يعني الخسارة فيه ممكن تكون أكثر من الربح، بس عارفة كمان إنه أوَّل شروط التضحية، إنه يكون في مكسب من وراها، لو ما في مكسب، بتكون تهوُّر وإلقاء للنفس في التهلكة بشكل مجَّاني، وهذا اللي أنت ناوي تعمله شكلك، عشان تقول كلمتين، مهمَّات وعظيمات ما اختلفنا، بس تأثيرهم راح يكون ضئيل، بدَّك تخاطر بمستقبلنا كله!

- بترجع تقول لي مستقبلنا؟ يا بنت الحلال بقول لك ما راح يصير شي، وكمان إذا أنا خفت على حالي وسكتت، وغيري خاف على حاله وسكت، وغيره وغيره وغيره، لكان مين بده يحكيها لكلمة الحق طيب؟ وكيف بده يصير التغيير؟

- بتنحكى كلمة الحق، بس ببطء وبحذر، وبتوخد وقتها الطبيعي والمنطقي لتنتشر وتنضج، ولمَّا يقتنعوا فيها عدد كبير من الناس وياخذ التاريخ وقته اللازم للتغيير، وتتهيأ الظروف إله، بصير

التغيير بسلاسة، ليش لتحرق حالك أنت عشان تسرِّع التاريخ اللي ما بتسرِّع؟ ليش لتضحِّي بحالك بشكل مجاني وتواجه سلطة سياسية كبيرة بشكل منفرد عشان مكسب يؤول إلى الصفر؟

- مرح، أنا عارف إنِّك خايفة علي، بس بأكِّد لك للمرة المليون إنه ما راح يصير علي شي، هاي مش أول مرة بحكي فيها أنا، ولا أول خطاب بحكيه، وعمومًا هذا آخر نشاط سياسي إلي هون، أنت فكرك يعني أنا ما قرفت هون؟ قرفت والله، ونفسي عن جد أطلع وأرتاح وأترك كل شي وراي، بس خلص، كلمة حق بدي أقولها وأسكِّر هالملف، وصدقيني لو ما قلتها لأظل ندمان طول عمري يمكن.

تتنهد مرح تنهيدة طويلة.

- الله يجيب العواقب سليمة.

* * * *

يظهر كاظم في مدخل طوارئ مستشفى حكومي، حاملًا ابنه بين يديه، يبدو على الصغير التعب الشديد، وبالكاد يستطيع التنفس، يقف أمام مكتب الاستقبال حيث تجلس موظفة ثلاثينية مقطبة الوجه، يفصل بينها وبين كاظم وابنه زجاج به ثقب نصف دائري من الأسفل، وتقول بصوت آلي:

- الهُوية.

يصرخ كاظم بها:

- هُوية شو أنتِ والولد بموت؟! أنا جاي آخذ مؤن؟

تصرخ الموظفة بدورها:

- ولشو بتصرخ حضرة جنابك؟ هو مستشفى أبوي؟ هيك القانون، فوت دخله على الدكتور بعدين تعال خلص الورق!

يدخل كاظم مستعجلًا، باحثًا عن غرفة الطوارئ، بينما تبقى زوجته لإعطاء موظفة الاستقبال تفاصيل عن الصبي، يجد كاظم غرفة كبيرة فيها

بضعة أسرَّة، ويجلس خلف الكاونتر ثلاثة من الشباب، يرتدي اثنان منهما رداء الطبيب الأبيض، بينما يبدو الثالث بملابس عادية.

- ابني تعبان كثير يا دكتور.

ينهض أحدهم من مكانه:

- دخله جوا على السرير أخي، هيني جاي.

يضع كاظم ابنه على واحد من الأسرَّة المتهالكة، وتكاد روحه تنفطر من ألمه عليه، يقترب الطبيب الشاب من الصبي، ويبدأ بفحصه فحصًا أوليًّا، قبل أن يشير إلى ممرض قريب أن يأخذ علاماته الحيوية، ويقول لكاظم:

- وين ورقته؟

- هيها دكتور.

تجيب زوجته من الخلف، فيمسك الطبيب الورقة ويكتب على ظهرها اسمًا لدواء، ويقول لكاظم:

- روح جيب هاي الإبرة من بره، وتعال خليهم يعطوه إياها.

- بره من وين؟ مش فاهم!

- من الصيدلية اللي بره، بس تطلع من المدخل على إيدك اليسار، جنب تبع القهوة.

- فش يعني دوا هون؟

- لا، خلَّص، جيبها من بره.

يذهب كاظم لإحضار الإبرة وهو يتمتم ببعض الشتائم.

* * * *

حمودي يقف أمام منصَّة خشبية في قاعة صغيرة، يرتدي بذلة سوداء مع قميص أبيض مفتوح بلا ربطة عنق، ويمسك بعض الأوراق، ويظهر أنه يلقي خطابه، بينما تظهر مرح في الصف الأول، والتوتُّر واضح على معالمها.

«لذلك وتعليقًا على موضوع الضرائب الذي يجري الحديث عنه هذه الأيام، فالدولة -كما أراها- لا يوجد بها ضرائب، على الأقل الدولة الحديثة،

هذا زيف وخداع وضحك على الذقون، الدولة هي كيان اقتصادي يُناط به إدارة الموارد العامة مقابل تقديم خدمات عامة، بمعنى أن الفرد العادي الذي لا يمكن له أن يقوم باستخراج حصته من ثروات ومعادن بلاده وبيعها لصالحه، ولا يستطيع في الوقت نفسه تعبيد شارع أو تدبير مطاعم أو إنشاء مستشفيات... إلخ، يقوم بتكليف الدولة بتحصيل ثرواته نيابةً عنه، وبناء خدماته العامة أيضًا نيابة عنه، هذه هي الدولة، وهذا هو شرطها الأساسي للوجود، وأي شيء آخر تقوم به لا يجب أن ينسينا الهدف الذي خُلِقت من أجله.

وطبعًا هذا هو الوضع الطبيعي وما يجب أن يكون، لكن يحدث أن تفشل هذه الدولة في إدارة الموارد كما نرى الآن، إما عبر إدارة سيئة، وإما عبر سرقة ونهب تلك الموارد، أو بيع تلك الأصول التي لا تملكها فعليًّا لمستثمرين أجانب بثمن بخس دراهم معدودة، هنا يختل الميزان الاقتصادي، وتصبح مصاريف الدولة أكبر من مداخيلها، مما ينعكس بشكل مباشر على جودة الخدمات التي تقدمها الدولة للناس، فما الحل؟ الحل طبعًا يكمن في إدارة جيدة للموارد وإعادة ما نُهِبَ منها لأصحابه الأصليين لتتوازن الكفة، لكن هذا لا يحدث، والذي يحدث للأسف هو فرض ضرائب أخرى على الناس، أي بمعنى آخر معاقبتهم هم على تفريط الدولة بمواردهم، وجعلهم هم يدفعون ثمن فاتورة التسيب والفساد والإهمال من جيوبهم ومن مستقبلهم ومن معيشتهم اليومية».

* * * *

يقف كاظم وزوجته قلقَين حول سرير الطفل في قاعة الطوارئ، بينما يراقب الممرض والطبيب شاشة جهاز تخطيط القلب الموصول بجسده الغض، يطبع الجهاز تقريره أخيرًا، فيمسكه الطبيب بينما يسأله كاظم:

- شو في يا دكتور؟ طمنِّي!

- لحظة يا أخي لحظة، إن شاء الله كل خير، لحظة.

يأخذ الطبيب نفسًا عميقًا ويقول:

- شوف يا أخي، الظاهر إنه مجرد التهاب بسيط بالحلق، بس في شي بتخطيط القلب مش مزبوط ومش مطمنِّي، هون طوارئ ما حدا راح يشخص لك إياها مزبوط، فبتحمل الولد هسه بس يخلص الإبرة، وبتطلع على مستشفى حمزة، عند الدكتورة شيرين أبو إصبع، وبتخليها تشوفه، هي راح تفيدك أكثر مني، وأنا هسَّه بعطيك تحويل هناك.

* * * *

حمودي مرة أخرى مستطردًا في خطابه، ويبدو عليه الحماس الشديد، بينما تبدو مرح في غاية الاضطراب والتوتر، ويلاحظ من يدقِّق فيها قليلًا أنَّها بدأت بقضم أظافرها، بينما يقول حمودي بصوته الجهوري:

«والسؤال هنا، هل هذا الأمر -أي فرض الضرائب- سيعيد توازن الكفة؟ مستحيل طبعًا، لأن السبب الأساسي الذي خلق المشكلة لا يزال موجودًا، وتنامي الضرائب من شأنه انكماش الاقتصاد، وانكماش الاقتصاد يعني نموًّا أقل وبطالة أكثر وفقرًا أكثر، أي باختصار، من يأكل من لحمه لا يشبع، بل يموت، وبين وعود هنا وكذب هناك، تستمر الدولة في هذا النهج السيئ حتى يصل المجتمع إلى قاع القاع، وهنا تفقد الدولة شرطها الأساسي الذي قامت من أجله، لكنها بكل بساطة لا تختفي. طبعًا هذا كلام سابق لأوانه، لأننا لم نصل إليه بعد، لكن إن تم فرض ضريبة المبيعات كما يُشاع، واستمرت الحكومة في نهج بيع مقدرات الوطن تحت اسم الخصخصة، فإن هذا المستقبل الأسود سيكون هو الشيء الوحيد الذي نراه، سيتدهور التعليم حتى يصبح في أسفل سافلين، وستنحدر الخدمات الصحية بحيث لا يجد المواطن من الطبقة الوسطى سريرًا يتعالج عليه، وسيأكل الفقراء من القمامة حرفيًّا، سترون هذا عيانًا أيها السادة، وفي المقابل، فإن أولئك الذين تقع عليهم خطيئة هذا الأمر سيعيشون في قصور مرفَّهة ومعزولة، هكذا سيعاقبنا التاريخ إن صمتنا على هذه المهزلة، وسترون».

* * * *

مستشفى حمزة، طبيبة في الأربعينيات، ترتدي نظارات طبِّية، وتظهر عليها ملامح وثقة الشخص الذي يتقن مهنته جيِّدًا، تجلس إلى مكتبها الذي تظهر عليه يافطة سوداء صغيرة كُتِب عليها بخط الرقعة الذهبي: د. شيرين أبو إصبع «أخصائية قلب وأوعية دموية»، تضع بعض الأوراق جانبًا ثم تنظر إلى كاظم وزوجته اللذَين يجلسان مقابلها ويكادان يتمزَّقان قلَقًا، وتقول بصوت هادئ:

- ما راح أخبي عليك أخي، ابنك عنده روماتيزم بالقلب، تطور من حالات الحمَّى اللي كانت تيجيه زمان، وأثر على صمامات القلب نفسه، ولازمه عملية بشكل مستعجل، بيتم فيها تغيير هاي الصمامات.

تعقد الدهشة لسان كاظم الذي لا يصدِّق ما يسمعه، فينظر باتجاه ابنه، وكأنَّه يحاول رؤية تلك الصمامات التي لا تعمل.

- طيِّب اعملي له إياها دكتورة، بأسرع وقت الله يخليك، والله إحنا يعني...

تبتسم الطبيبة محاوِلة طمأنة الأم، عندما يسأل كاظم فجأة:

- وكم بتكلِّف هاي العملية؟

تصمت الطبيبة صمت العارف بمغزى السؤال ثم تقول:

- كونه ما معكم تأمين، راح تكلِّف هون حوالي ثماني آلاف دينار، والمشكلة إنه بالحجز، يعني على حسب ما بعطوكم الموعد، وما أتوقع في موعد أقرب من ست شهور، عشان هيك أنا بنصح تعملوها بأي مستشفى خاص، صحيح بتكلِّف هناك أكثر، يعني حوالي خمسة عشر ألف، لكن أسرع، وحالة الطفل ما بتتحمَّل الانتظار، وبكل الأحوال، فيكم تقدموا على إعفاء من الديوان، وبتحطوا فيه التقرير اللي راح أعطيكم إياه هلأ.

يصمت كاظم وزوجته تمامًا، وكأن عقليهما لا يزالان يحاولان معالجة ما سمعاه للتو، ينتبه كاظم أخيرًا أن اللقاء مع الطبيبة انتهى، وأن عليهما الخروج الآن، فيتمتم بعض كلمات الشكر، ويأخذ زوجته الساهمة ويخرج من العيادة.

* * * *

حمودي ويبدو أنه ينهي خطابه، يضع أوراقه جانبًا. ثم يرتجل:

«وفِي الختام، لا يفوتني هنا أن أؤكد لهذه الحكومة ومن وراءها أن الحل لا يكون بفرض المزيد من السلطة، لأن السلطة هي مفهوم معنوي قبل أي شيء آخر، وليست مفهومًا ماديًّا، الشعوب لا تُحكَم بالقوة، بل باحترام الاتفاق الضمني بينها وبين الناس، وإن ظنت الحكومة جهلًا أن السلطة يمكن لها أن تسِكت الناس وتخرِس ألسنتهم فهذا هراء، السلطة ليست قبضة أبدية، ولا يمكن لها النجاح كأداة إذا رفضها طرف من الأطراف، الكأس الزجاجية التي تمسكها بيدك، لو ضغطت عليها أكثر مما يجب ستتنكسر لتجرحك، البالون لو نفخته زيادة عن الحد سينفجر في وجهك، حتى الجمادات لها طريقتها الخاصة في الإفلات من قبضة السلطة، ونحن لسنا استثناء، ولسنا جمادات، ولو بدا لكم أننا كذلك. سنقول ما نعتقد أنَّه الحقيقة والصواب ولو أزعجكم، لأننا موقنون ومؤمنون أن مائة شخص لو اعترضوا على هذا القانون فستسجنونهم، وإن اعترض عليه ألف شخصٍ فلربَّما ستحاكمونهم فقط، لكن إذا اعترض عليه عشرة آلاف فسيسقط القانون نفسه، وإن اعترضنا جميعًا عليه فسيسقطً وتسقطون معه! وهذا ما نعوِّل عليه، إذ لا يوجد لديكم سجون تكفينا جميعًا، ولا شرطة لاعتقالنا جميعًا، ولا مشانق تكفي لشنقنا جميعًا!».

هنا يلتهب الجمهور تمامًا ويبدأ بالتصفيق الحاد لحمودي، بينما يخرج فجأة من بين الحضور أربعة رجال بلباس مدني ويتجهون لاعتقال حمودي من على المنصَّة، تضج القاعة تمامًا بما حدث، ويعلو الصراخ والهرج والمرج، وبين محاولات الرجال الأربعة تكبيل حمودي وجره خارج القاعة، ومحاولات الحشد المحيط به تخليصه منهم، والضجة الناتجة عن التدافع، تضيع الصرخة التي أطلقتها مرح من أعماق قلبها «كااااااظمممم!»

* * * *

تدخل الشمس رويدًا رويدًا إلى فسحة صغيرة أمام منزل كاظم، فسحة لا تتجاوز مساحتها عشرة أمتار مربَّعة، مبلَّطة ببلاط بلدي قديم صغير الحجم، في طرفها الأيمن فرن خارجي حديدي مطلي بالأزرق، وبجانبه جرَّة

غاز متصلة به عبر أنبوب مطاطي أحمر اللون، وبقرب الجرَّة دراجة صغيرة خضراء صدئة وبعض الخردوات والدلاء وبعض ملاقط الغسيل الملونة المكسورة الملقاة على الأرض، وفِي الطرف الآخر من الفسحة مربع صغير من التراب، محاط بصف من طوب البناء، وتتوسَّطه شجرة تين صغيرة تظلل جزءًا لا بأس به من الفسحة، وفِي واجهة الفسحة المقابلة لمدخل المنزل، باب خارجي حديدي صغير أسود اللون ذو درفتين، تزين نصفه الأعلى بعض الزخارف الحديدية التقليدية وقطعة من الزجاج الضبابي.

يجلس كاظم أمام شجرة التين على كرسي بلاستيكي أبيض، بينما يضع كأس الشاي الضخمة على الطوبة، وينثر رماد سيجارته فوق التراب الذي تتناثر فيه قمع سجائر، تخرج زوجته من المنزل مرتدية يانس الصلاة، تنظر حولها لتتأكد أن أحدًا من الجيران لا يراها، ثم تسحب كرسيًّا وتجلس في منطقة ظليلة بقرب كاظم الذي يبادرها بالسؤال:

- نام؟

- آه قبل شوي.

- الحمد لله، طيب شفتِ حرارته؟ رجعت ارتفعت ولا كيف؟

- لا الحمد لله، ما ارتفعت، بس نفسه كثير تعبان يا حبيبي.

يصمت كاظم وكأنه يتفادى شيئًا ما، فتسأل زوجته:

- كاظم، شو بدنا نعمل؟ لازم نعمل له العملية، بلاش يروح من بين إيدينا الولد.

- راح نعمل له إياها طبعًا، هاليومين بدبِّرهن الفلوس، وحكيت مبارح مع لبنى بنت عم أبوي، سلفتها بشتغل بحمزة، وأعطيتها رقم الملف، قالت راح تخليها تقدِّم لنا الموعد.

- وأنا حكيت مع ميسَّر بنت خالي، قريب زوجها بشتغل بحمزة، وقالت راح تحكي له يشوف لنا واسطة يقدموا الموعد، ووعدتني خير.

- منيح، الله يجيب اللي فيه الخير.

فترة صمت، تقول بعدها سناء:

- كاظم، أنا عارفة إنك راح تأمن المبلغ، بس يعني كنت بقول، ليش ما نقدم على إعفاء من الديوان؟ يعني هظاك الموضوع قديم، وأنت طلعت من السجن خلص، وأكيد هم يعني عقلهم مَش صغير عشان...

يقاطعها كاظم بنبرة فيها الكثير من خيبة الأمل:

- عرفت والله غير تفتحي الموضوع، بس عشان أريِّح لك بالك، الموضوع ماله علاقة يوافقوا ولا عمرهم ما وافقوا، ولو جابوه لهون لدار الإعفاء، أنا مَش رايح أعالج ابني بفلوسهم، أنا اللي ما بدي أقدِّم، مَش خايف يرفضوني!

- وليش بالله؟

- رجعت تقول لي ليش؟! ولَك عشر سنين حبسوني! عشر سنين! عارفة شو يعني عشر سنين؟ وأخذوا شهادتي مني كمان! وبدك بعد هذا كله أروح أترجاهم يعالجوا ابني، وأقول لهم لو سمحتوا تكرَّموا علي أنا المواطن الفقير المسخم، وعالجوا لي الولد، بعقلك أنتِ؟ بعقلك؟

تصمت سناء قليلًا، لكن لا يبدو عليها أنَّها اقتنعت، فيستطرد كاظم:

- أنا طالع بعد شوي أحاول أبيع السيارة، وراح أمر على صفوان أحاول آخذ منه سلفة على سبة المشروع الجديد، وراح أشوف لي كم شب من الشباب اللي بعرفهم، وأئمن المبلغ، تقلقيش، هاليومين بأمنه، أنتِ بس تابعي لنا مع ميسَّر، بلكي قدرت تقدم الموعد، وتجيبيش سيرة الإعفاء مرة ثانية، قال إعفاء قال!

* * * *

تظهر مرح، وعيناها حمراوان كالدم، جالسة على سريرها تضم ساقيها إلى صدرها، ومرتكزة بظهرها إلى الحائط، بينما تجلس أمها الحائرة إلى جانبها.

- يمّا يا حبيبتي، والله اللي بتعمليه بحالك هذا مهو منيح، هذول ثالث ناس بيجو يطلبوك، وأنتِ بتقولي لأ، وما بترضي حتى تشوفيهم، طيب هو بصير هيك؟

ترد مرح بصوت متهدِّج:

- ماما، أنا قلت لك من زمان، غير كاظم ما راح أتجوز، أنتِ اللي مَش راضية تصدقيني، وقلت لك من الأوَّل، لمَّا يتصلوا الناس قولي لهم ما عنَّا بنات للزواج، أنتِ اللي بتصرِّي تجيبيهم لهون، وتحرجيني وتحرجي حالك.

- يا حبيبتي يا عمري، كاظم والله ما في أحسن منه، أنا متفقة معك، بس هو وين كاظم؟ مهو خلي مجنون يحكي وعاقل يسمع.

- راح يطلع كاظم ماما راح يطلع، أنا بستناه، عشرة عشرين ميت سنة، راح أستناه.

- يا إمي يا حبيبتي، أنتِ بتحكي هيك هسه، لأنه الجرح لسه جديد، بس أنا إمك وأوعى منك، بكره بس جرحك يخف، راح ترجعي لعقلك بس راح تندمي، لأنه الوقت بكون مر وخلص، وبتكوني ضيعتِ من إيديك فرص ما بترجع.

- ماما أنا...

تقاطعها أمها بحزم:

- ماما اسمعيني أنتِ، إحنا سمعناك كثير، وهسه صار وقت أنتِ تسمعينا، أنتِ ما قصَّرت مع كاظم أبدًا، أنتِ عملت كل اشي ممكن واحدة تعمله لحبيبها، بعثة التخصص تبعتك على أيرلندا اللي الناس بموتوا لتطلع لهم أجلتيها عشان تشوفي شو بده يصير معه، وسكتنا، وما حكينا شي، ولولا الجماعة الخواجات مقتنعين فيك كثير ما أجلوا لك إياها لسنة، وأنتِ عارفة هالحكي، وهي شو صار؟ هي حكموه سبع سنين، ومن وقتها وأنتِ بتزوريه كل أسبوع، أهله يمكن ما بزوروه قدك، طيب وآخرتها؟ بدك تستنيه سبع سنين يعني؟ بدك

تهدمي مستقبلك كله عشانه؟ بدك تضيعي أحلامك وأحلام أبوك وإمك وأيامك الجاية عشان شو؟ عشان بتحبيه؟ هو طيب بحبك هلقد؟ كاظم مظلوم ما اختلفنا، بس معك يا ماما كان ظالم، لأنه لو بحبك قد ما بتحبيه، كان ما عمل اللي عمله، كان خاف عليك، وكان خوفه عليك خلاه يخاف يحكي الحكي اللي حكاه، بس هو ما خاف من اشي، لأنه مش خايف على اشي.

تنظر مرح إلى أمها دون أن تحير جوابًا، فتكمل أمها:

- حبي كاظم زي ما بدك يما، خبيه جوا قلبك العمر كله، لكن لمَّا يجي الموضوع للخيارات اللي بدنا نوخذها بالحياة، لا تخليه يأثر عليك، الإنسان يما بقدرش يسيطر على اللي في قلبه، أنا معك، لكن هو كإنسان مش لازم يكون في خدمة قلبه، أنتِ يمَّا لا أول واحدة ولا آخر واحدة بتحب، ولو كل واحدة حبت واحد، عنَّدت وما رضيت تتزوج غيره، كان نص بنات البلد ظلن في بيت أهلهن، إنما في حياة يمَّا لازم تمشي، وجيزات بدها تصير، وبيوت بدها تنفتح، وولاد بدهم يجوا للدنيا، وبرجع بقول لك، حبي كاظم يمَّا، بس خلي اللي في القلب في القلب، هناك مكانه، هناك ادفنيه، وامشي.

* * * *

مكتب في معرض لبيع وشراء السيارات الفخمة يملؤه ضباب دخان السجائر، في نهايته مكتب خشبي ضخم لامع السطح، يجلس وراءه رجل سمين يوحي وجهه بالثراء والاحتيال في آنٍ واحد، ومقابل المكتب صفَّان من الأرائك الجلدية السوداء المريحة، تفصل بين كل مجموعة منها طاولات صغيرة زجاجية، يجلس على الأرائك عدَّة شباب يتحادثون ويضحكون، وفي منتصف الجدار المزين بورق حائط على شكل شرائح من حجر ملوَّن، تتربَّع لوحة كبيرة لمسجد قبة الصخرة، وعلى الجهة المقابلة هنالك صورتان ضخمتان للملك في شبابه وللشاب ولي عهده.

وبينما يدور صبي بصينية تحمل بعض أكواب الشاي الساخن، يقاطع الرجل السمين حديثهم بينما ينشغل في الوقت نفسه بكتابة بعض الأوراق.

- هسه قولوا لي، مين اللي مزعله للشيخ خضر؟

يقطع سؤال الرجل حديث الشباب، ويتطوع أحدهم للإجابة:

- أنا بقول لك معلِّم، هذا زكريًا.

يقاطعه زكريًا قائلًا، وهو يضحك:

- ولك خلص، تقولش، أنا براضيه معلِّم للشيخ خضر، لا تقلق.

ينظر الرجل السمين نظرة ذات مغزى للشاب الذي تطوَّع بقول القصة، فيكمل الشاب:

- هذا معلّم قبل يومين إجا الشيخ خضر هون عشان فاتورة المرسيدس، واستلمه زكريا، بموضوع الزواج من القاصرات، عشان الشيخ تزوج واحدة صغيرة، وهو يقوله، طيب شو رأيك يا شيخ بأكل الحصرم؟ يجوز؟ ولا لازم نستناه ليستوي؟

يبدأ جمع الشباب بالضحك، بما فيهم صبي الشاي، والرجل السمين الذي تبدأ لغاليغه بالاهتزاز، فيكمل الشاب مقلدًا صوت زكريا:

- طيب اللوز الأخضر؟ حلال ولا حرام؟

- الحاملة؟

ووسط اقتراحات الطعام المضحكة، يقول الرجل السمين وهو يضحك:

- لازم سألته على اللحمة النيَّة!

فيرد زكريا بسرعة:

- وأنت الصادق على الفخدة النيَّة!

ينفجر الجميع بالضحك بشكل هستيري، حتى ليخيل لأي شخص يدخل عليهم الآن أن الجميع تحت تأثير مخدِّرٍ ما، وفي تلك اللحظة بالتحديد، يُفتَح باب المكتب الزجاجي ويدخل كاظم.

خمسة أيام مرَّت منذ تشخيص ابنه وعزمه على تأمين المبلغ اللازم للعملية، ولم يفلح بعد في تأمين أكثر من خمسمائة دينار، أقرضه إياها صديق قديم لوالده، كل الباقين الذين طلب منهم تعذروا بأعذار شتى، وإذا أُضيف هذا المبلغ إلى ما جمعته سناء من بيع ذهبها كاملًا ومما كان موجودًا معهما كمصروف للبيت، فلا يصل مجموع ما قاما بتأمينه إلى ثلاثة آلاف، كان المشوار نحو الثمانية لا يزال طويلًا.

وليومين حاول كاظم بيع سيارته القديمة دون جدوى، إذ لا أحد يرغب في سيارة عمرها أربعون عامًا، وبالذات معارض السيارات، ومنذ الصباح وكاظم يجول بينها بلا جدوى، وها قد جاء مساء اليوم الثاني ولم يفلح، ووجد أمامه هذا المعرض الفخم الذي يبيع سيارات من طراز جاغوار ومرسيدس، ولربما أدرك كاظم أن مسعاه فاشل قبل المحاولة، لكنه مع ذلك قرَّر أنَّه سيتعلَّق ولو بقشَّة، وسيحاول حتى آخر رمق، فدفع الباب الزجاجي ودخل.

وسط الضحكات، لم يلاحظ أحد دخول كاظم، ولم يسمع أحد بالتأكيد السلام الذي ألقاه، واستمرت الضحكات قليلًا قبل أن ينتبه الرجل السمين لوجود كاظم ويقول بصوت لا تزال صدى الضحكات فيه:

- تفضل أخي تفضل.

يقترب كاظم من الرجل ليسمعه إذا تكلَّم، وقد أزعجته تمامًا تلك الأجواء التي رافقت دخوله، لكنه مع ذلك، رفع صوته المتعَب قليلًا وقال:

- في عندي سيارة بدي أبيعها.

هنا ينبِّه الرجل السمين الجمع إلى السكوت بنظرة جدية وإشارة من يده، فيصمِت بعضهم بعضًا، ويسأل كاظمًا بصوت جدي ليشيع جوًّا من الجدية في المكان، وللدلالة على انتهاء وقت الضحك وبدء وقت العمل:

- شو نوعها وأي موديل؟

يدرك كاظم الذي لا يزال يقف في منتصف المكتب أنه قد تورَّط، وأن عرض سيارة كسيارته في معرض كهذا قد يبدو شيئًا هزليًا، لكنه يتصنع جدِّية ضخمة كجدار واقٍ من السخرية المحتمَلة، ويقول بثقة مزوَّرة:

- فولفو، 1980، بس نظيفة.

ينظر الشباب نحو بعضهم بعضًا وكلٌّ منهم يحاول كتم ضحكته في صدره احترامًا للرجل السمين وما قاله، وشفقة على هذا الجاهل الذي يريد بيع سيارة من هذا النوع في معرض للسيارات الفخمة، وبينما يحاول الرجل السمين صياغة رفضه بأسلوب لا يجرح ولا يثير مزيدًا من الضحكات في الجو المشحون ضحكًا، يسأل زكريا كاظمًا باستغراب:

- إن شاء الله الفولفو الـ 244 الحمرا اللي عرضتها على أبو أحمد الصبح؟ 244 حمرا وضوَّها الأمامي محروق، هاي سيارتك صح؟

- آه هي.

يجيب كاظم بصوت مستسلم، بينما يترقب الجميع ما سيقوله زكريا.

يضحك زكريا قليلًا، ويقول لكاظم بلهجة ساخرة:

- يا زلمة شو اللي نظيفة؟ والله سيارتك عاملة زي خالد بن الوليد، ما ظايل فيها سانتي إلا ماكل ضربة بسيف أو طعنة برمح.

وهنا يرخي الجميع العنان لضحكاتهم المكتومة، وينفجرون بالضحك مرَّة أخرى، أكثر حتى من ذي قبل، حتى الرجل السمين الذي يحاول جاهدًا دفع نفسه لإسكاتهم، يجد نفسه يضحك ويضحك ويضحك، يفتح فمه ليقول شيئًا ما، فينهار من الضحك مرة أخرى على قفشة زكريا.

في ظروف أخرى، وفي سياق آخر، ما كانت السخرية بهذا الشكل من كاظم لتمر مرور الكرام، إذ على الرغم من تجاوزه الأربعين، ما كان لعدة رجال مهما كانوا، أن يسخروا من كاظم بأقل من هذا حتى، دون أن يدفعوا ثمن ذلك دمًا ودموعًا وعظامًا مكسورة، لكن في تلك اللحظة صمت كاظم، شيء ما قيَّده، أخرسه، هزمه من داخله، وجعله يقف بكل صمت دون حتى

أن يفكِّر في مغادرة المكان، لم يكن يسمع ضحكات الرجال قط، كان يراهم فقط، ويرى أجسادهم وهي تهتز، في مشهد بدا بلا نهاية.

يقف الرجل السمين أخيرًا، بعد أن امتلك من نفسه ما يؤهله للقيام من مكانه، يتجه باتجاه كاظم المتجمِّد، يمسكه من يده ويخرج به خارج المعرض ليرى السيَّارة، ليعود ويفتح الباب بعد قليل، طالبًا من أحد موظفيه إحضار ألف دينار ودفتر وصولات.

* * * *

غرفة معيشة بسيطة، فيها بعض الأرائك القديمة المغطاة بقماش أخضر، ويفصل بينها طاولات خشبية عتيقة، وعلى الجدار الباهت تطريز لآية الكرسي وصورة قديمة بالأبيض والأسود لفلاح فلسطيني يرتدي بذلة بسيطة ويضع على رأسه حطة بيضاء.

على أريكة يجلس عبد الله، الأخ الأكبر لكاظم، لكن هذه المرة وهو في ريعان شبابه، وبمقابله تجلس سيِّدة في الستين من العمر، ترتدي ثوبًا فلسطينيًّا أسود مطرَّزًا بخيوط حريرية حمراء وبيضاء، وتلقي على رأسها شالًا أبيض يظهر شعرها الأشيب من تحته. تقدِّم له الشاي وتقول:

- بدكاش يمَّا يا عبد الله تيجي معي تزور أخوك؟ صار لك من يوم ما انحكم ما شفته.

- لا يمَّا، ما بدي لا أزوره ولا يزورني، خلي كل واحد فينا بحاله.

- بصير هالحكي يمَّا طيب؟

- ليش يمَّا بصير اللي عمله كاظم؟ أنت واحد أخوك موظف بالأمن، وقاعد بتطور بشغله، بتقوم بتعمل عملة زي هاي؟ شو اللي بده إياه يعني؟ بده يخرب بيتي؟ وهو شو مفكر حاله ابنك أصلًا؟ جيفارا؟ بده يعارض الحكومة والنظام هيك وما حدا يقول له وين رايح؟ خليه يعفن بالحبس، بستاهل.

- يمَّا كاظم شاب صغير، وطايش، غلط هالغلطة وقاعد بدفع ثمنها، ما اختلفنا، بس يعني إحنا أهله نتركه؟ يعني فوق الحبسة والهم اللي

هو فيه نتركه لحاله؟ بصير هيك؟ هيك ربيتكم أنا؟ والله لو أبوكم الله يرحمه عايش ما يرضى بهالكلام.

- يمَّا، الله لحاله بعرف شو خسَّرني كاظم بعملته السودا هاي، خلص صارت نقطة سودا بملفِّي هاي، ومع كل ترقية جاي أو رتبة، راح يتطلعوا عليها، وفوق كل هذا بدك إياني هسه أرجع أزوره؟ بقدرش يمَّا، بقدرش، ابن الدولة أنا، كيف بدك اياني أزور واحد ضد الدولة؟

تنظر أمه عميقًا باتجاهه وتقول:

- بس أنت ابني، قبل ما تكون ابن الدولة.

- صحيح، ابنك وابن الدولة، ولأني ابنك أنا موجود هون هسه، ولأني ابن الدولة ما راح أقدر أزور كاظم.

* * * *

يخرج كاظم من معرض السيارات الفخم، وبعكس كل ما توقعه قبل الدخول فقد اشتروا سيارته منه، صحيح أنَّ الرجل السمين دفع ألف دينار فقط والسيارة تساوي أكثر من ذلك بقليل، لكن هذا أفضل من لا شيء، الممكن وإن كان قليلًا أفضل من المتوقَّع المشكوك فيه وإن كان كثيرًا.

لكن على الرغم من فرحه المرتبك ببيع السيارة المغموس بالشفقة ربَّما، إلَّا أن حزنًا طاغيًا هاجمه فجأة، لأن السيارة كانت أمله الكبير الذي يعوِّل عليه، والآن قد بيعت السيارة، وذهب الأمل الذي كان يحتمي به من الفشل، ومع ذلك لم يصل لنصف المبلغ المطلوب، فماذا سيفعل الآن؟

يقف وسط الشارع ضائعًا، بينما يلسعه البرد والجوع، يتذكَّر أنه لم يأكل شيئًا منذ الصباح، ويبدو الطعام في المطعم القريب لذيذًا، لكنه يقرِّر ألا ينفق أي نقود، سيعود للبيت الآن ويأكل مما هو موجودٌ هناك، يمد يده في جيبه ليخرج مفتاح سيارته، لكنه ما يلبث أن يتذكر أنه باعها، فيقرر المشي باتجاه المنزل، ثم يتذكر أنه لا يريد مواجهة سناء، لا يريد أن يعود إليها بفشله، فيجلس على حافَة أسمنتية على قارعة الطريق، يفكِّر فيما سيفعله.

لم يبقَ في جعبته الكثير من الحلول، باع كل ما يمكنه بيعه، ساعته، ولَّاعة سجائر قديمة كانت مرح قد أهدتها له، وأخيرًا سيارته، وأصلًا لا يملك في هذه الدنيا الكثير ليبيعه، هذا كل شيء، وحاول الاستدانة من كل شخص يمكن له أن يستدين منه، حتى صفوان طلب منه، لكن الكلب اعتذر أنه لم يقبض دفعة المشروع الجديد بعد، باستثناء أخيه، عبد الله وحده هو من لم يلجأ كاظم له.

يخرِج هاتفه من جيبه أخيرًا، يفتح سجل المكالمات، هذه هي المكالمة الفائتة من عبد الله، كل ما يحتاج إليه الآن هو الضغط عليها فقط، ضغطة واحدة وتُحَل مشكلة مالك، يدرك هذا جيدًا، مبلغ كهذا لا يعني لعبد الله شيئًا، لكنَّه يدرك أيضًا أن هذه المكالمة إن حدثت قد تكلفه احترامه لنفسه، مرة وإلى الأبد، يحدِّق إلى شاشة الهاتف مطوَّلًا، وتتراءى له صورة مالك في عيادة الطوارئ، وكلام الدكتورة شيرين، يحاول الهرب، ينظر حوله علَّ عجيبة ما تنقذه من هذه المصيبة، لكن لا شيء، ليل قاسٍ بارد مبهم بهيم، وهواء بارد يلفح وجهه، لم يحس كاظم بهذه الوحدة والضعف قط، ولا حتى في أقسى ليالي سجنه الطويل، يأخذ نفسًا عميقًا جدًّا، لكن وراءه مالك البريء وألم مالك وحياة مالك نفسها، يفتح الهاتف ويضغط على اسم عبد الله.

يرن الهاتف عدة مرات، ثم يظهر صوت عبد الله:

- مرحبا كاظم، ابن حلال والله.

يعيد صوت عبد الله كل ما في قلبه تجاهه.

- ألو، كاظم، ألو، ألو، ألو.

يغلق كاظم هاتفه ويمضي في طريقه.

* * * *

«أكره المقدِّمات، كل المقدِّمات كاذبة ومخادعة وخائفة ولا تصدر إلَّا عن جبناء، وأنا لست جبانًا.

لم تزرني أمي منذ شهرين، ولَا شك لدي أنَّها قد ماتت، وحده الموت من سيمنعها عنِّي، ولَم أستلم منكِ رسالة منذ أربعة أشهر، لكنني لا أستطيع قول الشيء نفسه عنكِ، أفضِّل وأعتقد بوجود احتمالات أخرى.

أمَّا أنا فلم أكن أستطيع أن أكتب لك شيئًا، لقد ضربت ضابط السجن في الشتاء، فاقتلعوا أظافري، وأضافوا أعوامًا إضافية إلى محكوميتي، والأسوأ من ذلك أنَّه كان عليَّ أن أنتظر عدة أشهر حتى تنمو أظافري مجددًا لأستطيع أن أمسك القلم، وأكتب لك، واليوم فقط تمكنت من ذلك.

الله وحده يعلم كم أحببتك، هذا شيء لا يمكنك ولا يمكنني أنا أيضًا تحديده وقياسه، لكنني اليوم أجد نفسي مضطرًّا أن أقول لك ألَّا تنتظريني، لا لشيء، إلَّا لأنني أنا نفسي قد اختلفت، كاظم الذي تعرفينه قد اختفى، تلاشى، وحلَّ محله كاظمٌ آخر، كنت أظن أن أسوأ ما في السجن هو فقدان الحرية، لكنني كنت مخطئًا، إنه الوقت، الوقت هو لعنة السجن، الكثير والكثير والكثير من الوقت، أضيفي الوحدة والصمت إلى ذلك، لقد اختلط كل شيء في داخلي، كل شيء، الأمر أشبه بعلبة من الألوان واختلطت كل ألوانها معًا، لتنتج لونًا واحدًا مشوَّهًا وقبيحًا، وهذا ما أشعر به الآن وفِي كل حين، التشوُّه والقبح.

لا أعرف الآن إن كنت أحبك أم لا، إن كنت سأكتب لك مجددًا أم لا، إن كنتِ موجودة فعلًا أم لا، ربما أنا لا أكتب لك أنتِ، لا أكتب لشخص معين، إنما للصورة التي في خاطري، أكتب لصورتكِ أنتِ، والتي ربما قد اختفت صاحبتها الآن كما اختفيت أنا.

الخواتيم كما المقدِّمات؛ كاذبة مخنّثة، وداعًا».

تتنهَّد منار، وتطوي الرسالة، وتقول لأمها:

– يا ويلي يمَّا شو بقطِّع القلب هالكاظم!

– هو لسه ببعت رسائل هالمسخم؟

– آه يمَّا، وصلت اليوم هاي.

- خلص يمَّا ابعتي له وقولي له ما يبعتش كمان مرة، قولي له مرح تجوَّزت وسافرت، وصار عندها بيت وجوز وولاد ومش فاضيتلك، يقطع الحب وسنينه، البنت صار ببطنها ولد من زلمة ثاني وهذا لسَّه داير وراها.

* * * *

كاظم جالس في فسحة منزله، بقرب شجرة التين، لكن على طوبة البناء هذه المرَّة، وقد جاوزت الساعة العاشرة ليلًا.

تقف زوجته على مدخل المنزل، وتنظر إليه، يبدو أنه فقد الكثير من وزنه وشحب لونه خلال عدة أيام فقط.

- أحط لك تتعشى؟ في مجدَّرة.



- لا لا بديش، مش جوعان.

تصمت قليلًا، ثم تقول له:

- الولد مش قادر يتنفَّس يا كاظم.

- بعت السيارة بألف ليرة، وهيك بكون ظايل علينا حوالي أربعة آلاف.

تصمت الزوجة لتستوعب خسارة السيارة أيضًا.

- وحكيت مع عبد الله؟

- حكيت معه، ما مشي الحال.

- وصفوان؟

- صفوان كمان اعتذر، قال ما أخذ الدفعة الجديدة لسه.

فترة صمت جديدة، ثم تكمل سناء بنبرة فيها القليل من الحدَّة والغضب:

- يعني إحنا شو نعمل هسه؟

- ولا شي، اللي بنقدر عليه عملناه، كمان شوي ببدأ الإسكان الجديد وباخد دفعة منه وبتتدبَّر، وبنعمل له العملية للولد.

- والله؟ وإذا صار في الولد إشي قبل ما يبدأ مشروعك الجديد هذا؟

- مش راح يصير إشي، تفاوليش أنتِ بس.

- يعني أنت بدك تعرِّض حياة ابنك الوحيد للخطر عشان بس ما تروح على هالديوان وتقدم للإعفاء اللي كل الناس بتوخذه؟

- الناس حرِّين يا سناء، أنا مش راح آخذه، وقلت لك هالحكي ألف مرة قبل هيك.

تصرخ سناء:

- وعشان شو كله هذا؟ يعني تارك الولد يتعذب بس عشان كرامتك ناقحة عليك!

يغضب كاظم كثيرًا، ويبدو الشرر يقدح في عينيه.

- الكرامة شغلة مش سهلة ولا بسيطة يا سناء، ودفعت حقَّها عشر سنين من عمري، والولد هذا زي ما حقه يتعالج، حقه كمان يعيش وأبوه كرامته محفوظة، فاهمة ولا مش فاهمة؟! وراح أجيب له الفلوس يعني راح أجيبها!

- بالله؟ وافرض مات الولد وهو بستنى فيك تجيب له الفلوس؟

- خليه يموت!

يصرخ كاظم.

يخرج مالك الصغير من باب المنزل الداخلي، ويبدو مريضًا جدًّا إذ إنه غير قادر على الكلام، تنتبه أمه لوجوده فتحاول الإمساك به لتعيده إلى سريره، لكنه يفلت يده من يدها ويذهب لأبيه، يحتضنه كاظم بقوَّة، ليدفئه من نسيم الليل البارد.

تتجمع الدموع في عيني سناء، وتقول لكاظم بصوت فيه الكثير من الضعف والتحدِّي:

- أنا عارفة وأنت عارف إنه أنا ست غلبانة ويتيمة، وإني لو طلعت من الباب هذا راح أموت من الجوع، بس واللي رفع السما بدون عمد يا كاظم، لو صار لهالولد إشي ما أنا قاعدة لك في بيت!

ثم تدخل إلى الداخل وتصفق الباب، يضم كاظم ابنه إلى صدره، ثم ينظر إلى السماء، ويخطر في باله حوارٌ مضى عليه أكثر من عشرين عامًا.

* * * *

كاظم شابًّا ومعه مرح، يجلسان على رصيف داخل الجامعة الأردنية، ويضعان أقدامهما على التراب، يمسك كاظم بإبرة من إبر شجر الصنوبر، ويتسلى بتحريك بعض التراب بها.

- يعني أنت مش مآمن بالله؟

- كيف يعني مش مآمن بالله يا مرح؟ ولا مين اللي خلق الكون هذا كله؟ أنا؟ مش هذا اللي بقوله أنا، أنا قصدي إني ما بعتقد إنه ربنا بتدخل في الكون بالطريقة اللي الناس معتقدينها، ولا حتى ما بتدخل أبدًا، خلص هو خلق الكون، وحط فيه سنن وقوانين، وهاي القوانين هي اللي ممشية الكون.

- كيف يعني بالطريقة اللي الناس معتقدينها؟

- يعني ما بصير تقول يا الله نجِّحني، يا الله اشفي أبوي، يا الله مش عارف شو، الله مش راح يتدخل بالطريقة هاي، أنت راح تنجح لو درست، لأنه هيك سنة الكون بتحكي، وراح تشفى لو أخذت الدوا وهيك، الله ما بتدخل بحدا، هي سنن كونية وقوانين، زي الجاذبية والقوى الكهرومغناطيسية والمنطق وهيك، هاي تدخلات ربنا، قوانينه، غير هيك فش إشي.

- لا لا لا لا، أنت هيك بتخبِّص حمودي حبيبي، مع احترامي إلك يعني، الله ما خلق الكون وتركه للسنن والقوانين لا، الله بتدخل بالكون، وبطريقتين، أول طريقة بتعارض وبتعطِّل السنن الكونية هاي، زي لمَّا قال للنار كوني بردًا وسلامًا، أو لما فتح البحر لموسى.

- هذا للأنبياء مرح، مفهوم هذا الكلام، أنا بحكي عنا إحنا، عن حياتنا، الله بتدخل بحياتنا؟ لا.

- أنت خليتني أكمل طيب؟ ما أنا بقول، أول طريقة تدخل هي للأنبياء، وهي اللي بتعارض السنن، بالنسبة إلنا البشر العاديين، الله بتدخل بحياتنا برضه، بس من داخل السنن نفسها وباستخدامها، يعني بغير معطيات النظام من داخل النظام، وبدون ما يبين أبدًا إنه في تدخل.

- تدخل الله في الحياة بعارض فكرة مشيئة الإنسان الحرة.

- يا بني والله ما بعارضها، بشتغل من جواها، بوجهها بشكل خفي من داخلها، بحيث ببين للإنسان نفسه إنه هو صاحب إرادته، وهي فعلًا بتكون إرادته، لكن في الوقت نفسه بتكون نفسها إرادة ربنا، يعني خذ قصة فرعون وموسى مثال، لما ربنا شق البحر لموسى، هذا تدخل مباشر بتعطيل السنن، لكن لمَّا فرعون لحق موسى جوا البحر الناشف، كان هذا تدخُّل برضه، بس من داخل السنن، يعني لمَّا فرعون لحق موسى، مش كانت هاي إرادة فرعون الحرَّة ولا حدا جبره؟ إرادته الحرَّة، بس بنفس الوقت هي إرادة الله عشان يغرِّقه، فهمت؟ يعني باختصار تدخل ربنا في حياتنا واضح، بس خفي بالوقت نفسه، إشي هيك زي السحر، ما بتشوفه بس بتشوف نتائجه.

- هلأ الله ساحر يعني؟ هذا اللي طلع معِكْ؟

- أستغفرك يا ربي بس، آه ساحر، ساحر كبير، افهمها هيك إذا بدك تفهمها، ويمكن أنا مش عارفة أشرحها كاظم، بس أنا عشتها، وبعرف كيف لمَّا تدعي الله من قلبك، ربنا بوجه كل سننه وكل خلقه عشان يساعدوك، وبتحقق أمنيتك ويمكن ما تشوف وين ربنا تدخل وكيف تدخل، بس بتشوف نتيجة تدخله، بتعرف إنه تدخل.

* * * *

غرفة معيشة باذخة، تتوزع فيها أرائك ضخمة مغطاة بقماش كتَّاني أبيض، وتتناثر عليها مساند مريحة مخيطة من صوف الغنم الأسود الطبيعي، حول الأرائك طاولات خشبية بديعة، تزيِّنها بعض التحف

والنباتات النادرة ومصابيح إضاءة نحاسيَّة، وعلى الحوائط بعض اللوحات المشغولة يدويًا وصور سعيدة للعائلة في مدن وأماكن مختلفة.

في الركن موقد للنيران، يستلقي بقربه قط فارسي على سجادة فارسية صغيرة، وفي الوسط سجادة عاجية اللون بوبر كثيف، يجلس عليها الزوج الدكتور سامر، رجل أربعيني ناعم الوجه واليدين ويرتدي نظارة طبية صغيرة، وهو من ذلك النوع من الناس الذين يهيأ لك حين تراهم أنَّهم لم يواجهوا في حياتهم مشكلة واحدة، وأن السعادة والسعادة فقط هي من لازمتهم.

يسند الدكتور سامر ظهره إلى الأريكة، بينما يلعب لعبة إلكترونية لكرة القدم على التلفاز الهائل أمامه، على يساره تجلس زوجته الدكتورة مرح على أريكة واسعة، وتظهر مختلفة قليلًا عمَّا كانت عليه وهي شابَّة؛ طال شعرها، انتفخت خدودها قليلًا، بينما زاد وزنها، لكنها مع ذلك كله محتفظة بجزء كبير من جمالها السابق، وبالنظرة الذكية في عينيها.

يرن هاتف مرح، فتترك كتابها الذي تقرأ منه.

- مرحبا مرح.

- أهلًا شيرين، كيفك؟

- تمام والله، طمنيني عنك وعن الولاد وسامر؟ إن شاء الله الكل بخير؟

- بخير والله حبيبتي، أنتِ كيفك وكيف علاء والولاد؟

- نحمد الله، حبيبتي بديش آخد من وقتك كثير، بس في موضوع هيك كنت بدِّي تساعديني فيه لو أمكن.

- ولو يا عمري، بتؤمري.

- هاد يا ستي، قبل حوالي أسبوع، إجت عندي حالة لولد صغير معاه روماتيزم بالقلب، ووضعه تعبان كثير، فقلت لأهله إنه لازم يعملوا له تغيير صمامات بسرعة.

- آها، آه هدول لازم بسرعة.

- المشكلة يا ستي إنه أهله ما معهم فلوس، ولسبب ما، مش راضيين يقدموا عالإعفاء.

- أوف! غريب والله، ليش طيب؟

- ما أنا استغربت زيِّك بالزبط، لكن يبدو المشكلة مع أبوه للولد، هو اللي رافض تمامًا فكرة الإعفاء، وإمه مسكينة كل يوم بتتصل فيِّ تترجاني أشوف حل، وهُم بيني وبينك وضعهم على الله، والست خايفة ابنها يموت، وهو راح يموت فعلًا لو ما عملت له العملية.

- لا حول ولا قوة إلَّا بالله، شو هالأب العقدة هاد؟ طيب حبيبتي كيف بقدر أساعد هون أنا؟ مش فاهمة.

- أنا قلت لو إنك بتعرفي حدا يساعدهم، أو إذا عندكم بالمستشفى فيه مجال لشي زي هيك، بتكسبي فيهم أجر.

- والله ما أنا عارفة شو أقول لك شيرين، قصة غريبة، هو عنا ما في شي زي هيك يعني، بس أنا ابعتي لي وراقه أشوف، يمكن أشوف حدا من هون ولا من هون يساعدهم، منال بتشتغل مع الجمعيات الخيرية ممكن نلاقي لهم حل.

- طيب حبيبتي، دقيقة ويكونوا عندك عالواتس.

تغلق مرح هاتفها وهي متعجبة تمامًا مما سمعته، بينما زوجها منغمس في لعبته.

- مالها شيرين؟

- ولا شي حبيبي، حالة إنسانية بس غريبة شوي، شوي حبيبي، هلأ بقول لك القصة، لحظة، شيرين بدها تبعت لي شي.

تبدأ الرسائل من شيرين بالتدفُّق، يظهر تقرير الطفل أولًا، ثم تخطيط لقلبه، وصور طبيَّة لقلبه، تمر عليها مرح مرور الكرام بحكم عملها كاختصاصية جراحة قلب أطفال، الحالة كما توقَّعتْها تمامًا، ثم تظهر رسالة أخرى من شيرين.

- وهاي صورته حبيبي، صوَّرته عندي بالعيادة، شوفي ما أزكاه.

تحدِّق مرح قليلًا إلى صورة الطفل، يبدو عليه البراءة والجمال فعلًا، ثم تنزاح عينها لترى والديه الواقفَين بعيدًا عنه وعن الطبيبة، وتحس فجأة ببرودة شديدة تغطِّي ظهرها كله، كاظم نفسه، بشحمه ولحمه، الرجل الذي أحبَّته أكثر من روحها، ها هو أمامها في صورة، بعد عشرين عامًا من الفراق، تنزاح عينها نحو الاسم لتتأكد، فتقرأ اسم الطفل، مالك «محمد كاظم» سعيد الحوت، هو ذاته، وبلا وعي منها تبدأ دموعها بالانهمار، وتخرج منها «يا الله» حزينة جدًّا.

ينظر زوجها باتجاهها، ليجدها تبكي فيفزع، يوقف اللعبة ويذهب باتجاهها:

- مرُوحة حبيبتي شو في؟ مالك بتبكي؟

تمسح مرح دموعها، وتستعيد السيطرة على نفسها بسرعة.

- ما في شي حبيبي، ما في شي، لا تقلق أنت.

يبدو زوجها قلقًا ومنزعجًا، ويظلُّ واقفًا فوق رأسها.

- كيف ما في؟ شو هاد اللي بعتته شيرين؟

- حبيبي والله ما في شي، اقعد بس هلأ بحكي لك.

يجلس الزوج على الأريكة القماشية المقابلة لها.

- قولي مرح.

تستجمع مرح نفسها مرة أخرى وبطرف ابتسامة تقول:

- هادي يا سيدي، حالة إنسانية بعتت لي إياها شيرين، ولد بده عملية مستعجلة بالقلب.

- آه سمعتكم بتحكوا عن شي هيك، طيب؟

- بس إيش قال، أهله رافضين يقدموا يجيبوا إعفاء من الديوان.

- أوف، ليش؟

- ما أنا هاد اللي سألته، فقالت لي أبوهم رافض، قلت لها ابعتي لي التفاصيل، وبس بعتت طلعوا ناس بعرفهم، كانوا جيران أهلي بالمخيَّم زمان.

- طيب؟

- أبوهم هاد اللي رافض يقدم عالإعفاء كان مسجون سياسي.

- آها.

- كان شاب منيح يا سامر، وكان يشتغل ويدرس ويساعد إمه، وكان يدرس هندسة حتى، يعني كان قدامه مستقبل كويس، بس لما دخل في مجال السياسة، ضيَّع حاله، صار يكتب ويلقي خطابات ضد الدولة، اتهموه إنه بده يعمل ثورة وإنه مأسي حرب وكم تهمة يعني، وانحكم سبع سنين، وراحت عليه الشهادة طبعًا، وهيه هلأ زي ما أنت شايف، حالتهم بالويل، ابنه بده يتعالج وما معه فلوس، فلما عرفت إنه هاد هو نفسه أبو الولد، قلبي انقبض، إنه كيف بعمل الزمن بالناس، وشو كان ممكن يصير هالشاب وكيف انتهى، فبكيت، ما بعرف ليه، بس كثير الموضوع وجَّع لي قلبي.

ينهض زوجها من مكانه، ويعود إلى حيث كان يجلس، وهو يقول:

- يا شيخة وقعتي لي قلبي أنتِ كمان، فكَّرت حدا صار له شي لا سمح الله.

تنظر مرح باستغراب نحو زوجها الذي يمسك بيد اللعبة مرة أخرى، يستأنف لعبته ويقول وهو ينظر إلى الشاشة:

- عارفة يا مرح؟ الله يشفيه طبعًا للولد، هاي روح بالنهاية، ما فينا نحكي شي، ولو بتقدري تساعديه ساعديه، بس أهله، وخصوصًا أبوه، هدول الناس بالذات هُم اللي ما لازم حدا يساعدهم، لا أنتِ ولا غيرك.

- وليش عاد يا سامر؟

- ليش؟ لأنهم بستاهلوا اللي صار فيهم، وبستاهلوا يصير فيهم أكتر من هيك كمان، أي واحد مش فاهم طبيعة الأشياء وكيف بتمشي الدنيا، بستاهل يصير فيه هيك.

- غريب أنت والله، يعني فوق ما الزلمة انسجن وراح مستقبله وهو بدافع عن قضية عامَّة مؤمن فيها، نيجي نشمت فيه إحنا كمان؟ معقول أنت سامر؟

- لا لا لا، مش هيك، شوفي يا مرح، عادة في نوع من التقديس في قضايا زي هاي، هالة كبيرة من التبجيل والأسطرة برسموها الناس حول الضحية، بحوِّلوا الشخص لأسطورة يعني.

أنا شخصيًّا بشيل هاي الهالة، عشان أفهم، لأنه تقديس الشيء سد منيع أمام فهمه وتحليله، فلو شلتِ أنتِ كمان معي هالة التقديس والتعاطف غير المحدود هذا، وتطلَّعتِ على حالة هالشاب بحيادية، راح تلاقيه غلطان من ساسه لراسه، حتى لو إنه ضحية عنف السلطة، هاد ما ببرؤه من الخطأ اللي ارتكبه في حق نفسه، الضحايا مش أبرياء بالمطلق يعني، وممكن الإنسان بسهولة يكون جاني ومجني عليه بالوقت نفسه.

فالفكرة، إنه يعني أنا بفهم إنه في دول معيَّنة فيها حرب أو تحت احتلال، في هاي الدول، ممارسة السياسة أو حتى ممارسة العنف ضد السلطة بكون ضرورة يومية وقدر، مش خيار يمكن الإنسان ياخذه أو ما ياخذه، هذا مفهوم وحقيقي وواقعي وما حدا بقدر يقول له لأ، لكن في دول ثانية مستقرة نوعًا ما، وفيها نظام سياسي وسلطة قائمة وحكومة وإلخ، لشو حضرتك بتروح تتحدى السلطة وتناكفها؟ هذا سؤال مهم، لشو؟

أنا بقول لك ليش بعملوا هيك، لأنه هدول الناس عندهم نوع من قصور النظر وانسداد الأفق، بكل صدق وأمانة وبدون تحيُّز، وهذا شي موجود عند ناس كثير ترى، بتخيَّلوا، إنه السبب الرئيسي والوحيد والأوحد

في معاناتهم هي الدولة، وكأنه يعني لو الدولة راحت بكره، كلهم راح يصيروا أغنياء ورأسماليين وأصحاب ضيع وأطيان، وهذا شي مش صحيح أبدًا، تأثير الدولة على حياة الإنسان لا يتعدى في أسوأ حالاته عشرة بالمية، وإذا بدنا نحكي على مستوى الدخل، فَلَو دخلك ألف دينار خلينا نقول، الحكومة آخرها تاخذ منك ميَّة منهم، عشرة بالمية، هدول اللي مسببين تعاستك؟ هدول اللي معطلين مستقبلك؟ والدولة ما بتاخذهم هيك، بتعطيك بدالهم خدمات عامَّة، هلأ خدمات منيحة مش منيحة، موضوع قابل للنقاش، بس فيه خدمات، ومجانية، في تعليم، فيه علاج، في شوارع... إلخ، فليش عشان عشرة بالميَّة بس من حياتك بدك تروح تخانق الحكومة وتسب عليهم وترمي حالك بالسجون وتضيع مستقبلك؟ ليش؟ رياضيًّا هالشي صحيح؟ منطق إنَّا نخاطر بتسعين بالمية عشان عشرة بالمية؟ بقول لك في قصور بالفهم بالموضوع.

عشان هيك أي واحد عقله نظيف شوي، ما بدخل بالسياسة أبدًا، بتابعها يعني من باب الفضول، بشوف سواليف ترامب، قصص بوتين، بقرأ شوية أخبار من هون ومن هون وبس، مش أكثر من هيك، لأن اللي عقله نظيف، بتلاقيه مشغول بحياته الشخصية، بأهدافه اللي بده يحققها، بطموحاته، بتلاقيه دائمًا منهمك في محاولة بناء مستمرة لنفسه، باخذ دورات، بطوِّر حاله، بقرأ، بلعب رياضة، بشتري أشياء، ببيع أشياء، بسافر هون، بروح هناك، بدرس، بشتغل، بتزوج، بخلف، مشغول فعليًّا، مشغول يلاقي سبل يحسِّن فيها من حياته، عوضًا عن أعذار يعلِّق عليها فشله، فعشان هيك بشتغلش بالسياسة، مركِّز على الكثير اللي بقدر يعمله مش النتفة اللي ما بقدر يعملها، ولا عنده استعداد أبدًا يرمي جهوده وإمكاناته وفرصه وآماله كلها هاي في الزبالة، عشان الهالة المقدسة الكذابة اللي قلنا عنها بالأول، واللي ما بتطعمي خبز ولا بتعالج ولاد، فعرفت ليش صاحبك هاد غلطان؟ جاركم قصدي.

لأنه مخ ما عنده، لأنه لو ما دخل هالشغلة من زمان، واشتغل على حاله وباللي بقدر عليه، كان هلأ تلاقيه إنسان مختلف تمامًا، كان راح يكون إنسان ناجح وبشتغل، وعنده زوجة وأولاد يدير باله عليهم وينبسط فيهم، وكافيهم حياتهم أهم شي، بدل ما عايش مسخَّم، والناس قاعدين ببعتوا لبعض في نصاص الليالي عشان يساعدوه، فهمتِ علي ليش بقول لك بستاهل؟ لأنه كله من إيده.

تستمر مرح في صمتها الطويل لعشرين ثانية أخرى بعد أن ينهي زوجها كلامه، ثم تقول بنبرة هادئة:

- فهمت سامر، معك حق.

لحظة صمت، ثم تستطرد:

- أنا قايمة أتحمم.

تظهر مرح واقفة أمام مرآة الحمَّام، وقد خلعت نصف ملابسها، ويبدو عليها الحزن العميق، تغمض عينيها بقوَّة، ثم تفتحهما مرة أخرى، محاولة طرد شيء ما من عقلها، لكنَّها لا تفلح، وتبدأ دموعها بالانهمار غصبًا عنها.

تمسك هاتفها، وتنظر مطوَّلًا إلى صورة كاظم، ثم تغلق الهاتف، تجلس على حافَة حوض الاستحمام من الخارج، والستارة تفصل بينها وبين الحوض نفسه، تمد يدها وتفتح صنبور الدش فتتدفق المياه على أرضية حوض الاستحمام الخالي، مصدِرة هديرًا عاليًا، ثم تنخرط في نحيب طويل.

* * * *

مبنى دائرة خدمة الجمهور، قاعة ضخمة مكيَّفة، مرصوفة بالرخام الملوَّن، وفِي الواجهة ثمانية كاونترات، يجلس عليها عدة موظفين أنيقين يقومون باستلام الطلبات، وشاشة ضخمة تظهر عليها الأرقام، ومقابل ذلك صفوف من كراسي الانتظار الوثيرة يجلس عليها كاظم وزوجته ومراجعون آخرون.

وبينما تنطق الشاشة كل دقيقة برقم جديد، يبدو كاظم متوترًا جدًّا وكأنه على وشك المغادرة أو بالأحرى الهرب، فتمسك زوجته بيده، وتقول:

- اهدأ يا كاظم اهدأ، خمس دقايق وبيجي دورنا وبناخذ الإعفاء، بالله عليك وعشاني وعشان مالك إنك تهدأ وتروق، شوي وبطلع رقمنا، بنقوم نقعد عند الموظف دقيقتين وبنروح وورقة الإعفاء معنا، وبعمل مالك العملية، مش هذا اللي بدنا إياه؟ مش بدك مالك يطيب؟ بدك ولا ما بدك؟

- ما حكيت شي، أنا هيني قاعد.

ثانيتين من الصمت، ولا يزال كاظم يتقلَّب في كرسيه.

- بدي أقوم أدخِّن سيجارة، على بال ما يجي الدور.

- لا ما بدك تدخن، خليك قاعد هون عندي.

- والله بدي أدخن! بدي أهرب أنا؟ توخذي هويتي طيِّب؟ شو رأيك؟ هيها، خذيها.

تنظر زوجته في عينيه محاوِلة قراءة ما ينوي فعله، ثم تقول:

- لا ما بدي هويتك، بس دخن سيجارة واحدة وتعال، قرَّب يجي رقمنا.

يقف كاظم خارج المبنى، ويشعل سيجارة ما قبل حكم الإعدام هذه، ويبدأ بتدخينها وهو ساهم بنظره نحو السماء علَّها تنقذه من مصيره المحتوم، لم يبقَ في يده أي شيء يمكنه عمله، لا شيء، كل جدران مقاومته انهارت، والسماء التي يسكنها ذلك الساحر الكبير لا تزال صامتة، صمَّاء، لا مبالية كعادتها.

ومع أنَّه لم يكن يريد لتلك السيجارة أن تنتهي أبدًا، فإنَّه وبلا وعي منه دخَّنها بسرعة وعصبية، فانتهت.

يتنهَّد تنهيدة عظيمة وكأنَّما يعلن استسلامه التام أخيرًا، ثم يهم بدخول المبنى مرة أخرى، وفي تلك اللحظة بالذات، يرن هاتفه:

- ألو.

- ألو مرحبا.

- أهلًا، تفضلي.

- أنا الدكتورة شيرين من مستشفى حمزة، حضرتك أبوه لمالك، صح؟

- أهلًا دكتورة، صح، أنا أبوه.

- ممتاز، خليني أبشرك لكان، أنا مبارح تواصلت مع جماعة بعرفهم بخصوص عملية مالك، ولحسن الحظ، طلع في وفد طبي نرويجي موجود بعمَّان الشهر هاد، وبعملوا العمليات هاي مجانًا، فأنا بسرعة بسرعة حجزت موعد لمالك على بكره.

- عن جد؟ عن جد دكتورة؟

- جد الجد، وبعتت لهم تقارير مالك كمان، يعني الأمور جاهزة خلص، فهلأ بسرعة بسرعة بتوخذ مالك وبتطلع فيه على المركز العربي، وبتسأل عن الدكتور نعيم الأنصاري، وبتقول له إنك جاي من طرفي، وبس، هم راح يرتبوا كل شي ثاني، وبكره بعمل العملية إن شاء الله، وبدون ما تدفعوا ولا فلس.

يرتبك كاظم كثيرًا، ولا يعرف ماذا سيقول للطبيبة.

- شكرًا شكرًا دكتورة، كل عام وأنتِ بخير، قصدي مبروك، الله يبارك فيكِ، الله يخليكِ دكتورة، شكرًا كثير والله، شكرًا، مش عارف شو أحكي والله، شكرًا شكرًا، هسه هسه بطلع هناك، سليم اسمه الدكتور؟ سليم، صح؟

- نعيم، نعيم الأنصاري.

يدلف كاظم بسرعة إلى المبنى، ليجد زوجته وقد جاء دورها وجلست أمام الموظف، فتنظر له بعتب مجنون لتأخيره، يمسك يدها لينهضها من مكانها وهو يشرح لها ما حدث معه بينما هي متمسكة بكرسيها، ثم يغادران بسرعة وسط دهشة الموظف وحيرته من هذين المواطنَين الغريبَين.

يظهر كاظم وزوجته وطفله وهم ينتظرون في قاعة استقبال المركز العربي للقلب، يقترب منهم طبيب أشيب الرأس، يسلِّم على كاظم بحفاوة، ويأخذ منه بعض الأوراق، يربِّت على رأس الطفل ثم يقودهم إلى الداخل.

* * * *

الدكتورة مرح في عيادتها في المركز العربي، تنظر من النافذة باتجاه مدخل المستشفى الرئيسي، يظهر كاظم خارجًا من البوابة الزجاجية وهو على وشك الطيران من الفرح، يمشي بمحاذاة كرسي متحرِّك يدفعه ممرِّض، ويجلس فيه ابنه، وتمشي بمحاذاته زوجته وهي تحمل بعض الأكياس التي تحتوي على أدوية الصبي وأغراضه التي كانت في غرفته، يتوجهان نحو سيارة أجرة متوقِّفة، ويضع كاظم ابنه في الكرسي الخلفي بحذر، ثم تجلس زوجته بقرب الصبي، ويجلس كاظم في الكرسي الأمامي، وتنطلق السيارة.

يطرق باب عيادة الدكتورة طرقة خفيفة، ثم يدخل شاب عشريني وهو يمسك مظروفًا صغيرًا.

- مرحبا دكتورة.

- أهلًا خالد.

- دكتورة هاي فاتورة المريض مالك الحوت، طلع قبل شوي، والدكتور نعيم قال لي إنه حسابه عندك.

- صحيح خالد، خلي الفاتورة على المكتب وهلأ ببعت لك الشيك.

- شكرًا دكتورة، غلَّبتك.

يضع المحاسب المظروف على مكتبها ويغادر، تأخذ مرح نفسًا طويلًا وتعود بها الذاكرة إلى موقف قديم مع كاظم فتبتسم والدموع محبوسة في عينيها.

* * * *

كاظم ومرح شبابًا يجلسان على حافة أسمنتية في الجامعة، يخرج كاظم شنطة نسائية من كيس يحمله، ويعطيها لمرح.

- وهاي شنطتك.

تمسك مرح الشنطة، وتتفحصها وهي لا تكاد تصدِّق عينيها.

- كيف زبَّطتها؟ مش معقوول أنت يا حمودي! رجعت جديدة!

- رجعت تقول لي حمودي، يا بنت الحلال شاب طول بعرض وبتقول لي حمودي! اسمي كاظم، بلاش كاظم، محمد كاظم، أو قولي محمد حاف، بس شو حمودي هاي؟

- ولا يهمك حمودي، خلص راح أناديك كاظم، منيح هيك؟

- ماشي، بس المهم إنه شنطتك زبطت.

- والله يا حبيبي إنَّك فنان، عن جد إني محظوظة فيك.

- ما هذا اللي بقول لك إياه دائمًا، أنتِ الكسبانة في الجيزة هاي وأنا الخسران.

- لا بالله؟ وكيف هيك عاد؟

- يعني أنتِ راح تتزوجي واحد مهندس، ومواسرجي، نجّار، وبعرف ينظف كرشات ويصلِّح شنط، رجل متعدد المواهب، يعني بتستفيدي منه كثير، بينما أنا راح أتزوج بس دكتورة، وجرّاحة يا ستي، عشان ما تزعلي، بس يعني شو راح أستفيد؟ ما بعرف.

تضحك مرح خصوصًا مع الجدِّية التي يتصنَّعها كاظم.

- يعني هلأ اللي بتزوج دكتورة يا سيِّد كاظم ما بستفيد؟

يظهر كاظم وهو يتصنَّع التفكير.

- يعني إذا صحته منيحة زي حكايتي هيك، مش شايف مثلًا وين ممكن يستفيد!

- ولو، فكر يا زلمة، فكر، بلكي طلع معك شي من هون ولا من هون؟ يعني إلا ما يكون لها فايدة شقفة هالدكتورة مرتك؟

يقلِّب كاظم عينيه وكأنما يبحث في عقله عن فائدة ممكنة للزواج من طبيبة، ثم يقول بصوت متقطِّع، بينما تشرب مرح بعض الماء من قنينة بلاستيكية:

- يعني، يمكن يمكن، احتمال، إذا ربنا أعطانا ولد، بتطهِّريه، بنوفِّر أجرة المطهِّر يعني، هاي هي الفايدة الوحيدة اللي شايفها هلأ.

تقذف مرح الماء من فمها من شدَّة الضحك، وينفجر هو أيضًا بالضحك بعد فترة من تصنُّع الجد، بينما ينظر لهما بعض الطلبة المارِّين باستغراب.

* * * *

يظهر كاظم مرتديًا جلابية مغربية سوداء اللون، وقد هذَّب لحيته وقصَّ شعره وتنعَّم، ممسكًا بيد ابنه الصغير الذي يبدو أنه تعافى تمامًا وتورَّد خدَّاه، ويرتدي هو الآخر ثوبًا مغربيًّا أبيض ويعتمر طاقية بيضاء صغيرة مخرَّمة، وبينما يمشي الاثنان في زقاق صغير بين البيوت ينتهي بمسجد متواضع، يسأل مالك أباه:

- بابا، يعني هسه الله أكيد راح يكون في المسجد؟

- الله يا مالك موجود في كل مكان بنفس الوقت، يعني بكون في المسجد هذا، وفي مساجد ثانية كثير، وكله بنفس الوقت.

يستغرب الطفل:

- يعني بكون في كل المساجد في نفس الوقت؟!

- آه بابا، في كل المساجد بنفس الوقت.

فترة صمت بسيطة.

- وبشوفنا، بس ما بنقدر نشوفه، صح؟

- صح، بشوفنا وبسمعنا بس ما بنقدر نشوفه ولا نسمعه.

يبدو الطفل مذهولًا بما يسمع ومحاوِلًا إيجاد تفسيرًا له، ثمَّ تنفرج أساريره فجأة وكأنما اكتشف اللغز المحيِّر حول كينونة الله، ويقول لأبيه:

- آااه، ساحر يعني!

يضحك كاظم من قلبه، ينظر إلى السماء بامتننان كبير، ثم يقول لابنه:

- آه ساحر، ساحر كبير.

ثم يمسك بيد ابنه ويدخلان إلى المسجد، بينما تُقَام الصلاة.



ديك الجن (حسام أبو طويلة)

كاتب أردني من مواليد 1977، يقيم ويعمل في أبو ظبي، بدأ الكتابة عبر منصّة فيسبوك عام 2014 تحت اسم مستعار (ديك الجن)، وفي 2015 صدر كتابه الأوّل مأمون القانوني الذي لاقى رواجًا واسعًا، وأتبعه بكتاب اللعبة 2018، وهذا هو كتابه الثالث.

يكتب ديك الجن في مواضيع متعددة، كالفقر، والظلم الاجتماعي والمرأة والدين الإسلامي وبخاصّة رؤية الإنسان لله.. وتفاعلات هذه الرؤية على حياته، وينوّع في أسلوبه بين القصة القصيرة ذات النفس الرّوائي التصويري والتأمّلات أو حديث النفس. وفي عام 2017 فاز فيلم (بعض يوم) المقتبس عن إحدى قصصه بجائزة قمرة للأفلام القصيرة.

مكتبة
786
telegram @t_pdf



قولي لي.. كيف لي أن أشبع من صورتك؟ ما المتجدد فيها؟ ما الذي لم أره مسبقًا وأطمح لرؤيته الآن؟ ما الذي يدفع أصابعي قسرًا لفتحها كلّ دقيقتين؟ متى ينتهي استعباد التحديق هذا؟ متى يتحرّر الإنسان من هذا السحر؟ وكيف تُفكّ التعويذات؟ كيف؟

تصميم: محمود هشام







www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

